ملامح سودانية

(١)

جنوب السودان

في مائة عام

دكتور محمد المعتصم



ملامح سودانية

(١)

جنوب السودان

في مائة عام

دكتور محمد المعتصم

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

تقديم

بقلم الأستاذ / الدكتور محمد عوض محمد
الأستاذ بكلية الآداب ومدير معهد الدراسات
السودانية ووزير التربية والتعليم سابقاً

يسعدنى أن أقدم للقارىء العربى هذه الدراسة الممتعة ، لكى يستنير بها سكان وادى النيل ، والمنصفون من القراء فى مختلف الأقطار ، حتى يستطيعوا جميعا أن يتبينوا فيها شمس الحقيقة ناصعةرائعة ، لا يشوبها ما يثيره المرجفون من الزور والبهتان .

وإنى إذ أكتب هذه السطور ، تعود إلى خاطرى ذكرى نيف وأربعين عاماً كاملة مطردة لا هوادة فيها ولا انقطاع ، قضيتها كلها وسط الطلاب فى جامعة القاهرة ، منكبين فيها على الدراسات الجغرافية ، على اختلاف ضروبها وأشكالها ، وبوجه خاص ما كان منها متصلا بنهر النيل والأقطار التى يجتازها ، وظواهرها الطبيعية والبشرية .

إن الذى قضى فى خدمة الشباب هذا العهد الطويل ، باذلا فى تلك الخدمة كل ما فى وسعه من جهد ، يسعده بلا شك أن يشهد ثمرات جهوده ، وهى ترقى فى مدارج المجد ، وتشق طريقها فى الحياة ، وتؤدى أمانة العلم بكل إخلاص ووفاء .

لقد اغتبطت ، إذ رأيت الكثير من أبنائى وقدتبوأوا مقاعدالوزارة، يؤدون الواجب الوطنى فى جد وجدارة ، كما رايت غير قليل منهم يطوفون

بأرجاء الوطن العربى أو المحافل الدولية حيث ينهضون بمختلف الأعباء ، وينشرون الذكر الحسن لبلادهم وأمتهم .

وأياماكان مقامهم ومقصدهم فإن أبناءنا قد أثبتوا كفايتهم ودأبهم ، سواء فى داحل القطر أو فى خارجه ، وسواء تبوأوا منصباً خطيراً أو قنعوا بالعمل الدائب والخدمة الخالصة .

ومن أبنائنا البررة ، الذين تلهج الألسنة بذكرهم ، هذا المعتصم بالله مؤلف هذا الكتاب ، الذى اختار لنشاطه « ركن السودان » ويا حبذا هو من ركن ركين فى الإذاعة المصرية ، حيث يدير ركنه هذا إدارة هادئة رزينة ويظل مثابراً على دأبه ونجاحه زهاء العشرين عاما .

أجل .. وإنى لأخشى أن يكون الكثير منا يغبط المعتصم على منزلته الرفيعة ، وإن لم تكن براقة أو ضخمة ، غير أنها تتيح له أن يرى السودان رأى العين كل يوم ، وأن يخالط أهله الكرام مخالطة الصدق والوفاء ، وغرفته فى دار الاذاعة هى الكعبة التى نقصدها جميعا ، لنتزود من الحديث السودانى ما يحيى نفوسنا ويشفى غلتنا .

ومن فاته أن يرى محمد المعتصم ويتحدث إليه فلن يفوته أن يطلع على هذه الثمرة الطيبة من إنتاجه العقلى ، التى أودع فيها خلاصة تجاربه ودراسته عن موضوع من أجل الموضوعات وهو السودان الجنوبى .

وإن هذا الموضوع تتجلى فيه صورة الاستعمار البريطانى فى أبشع وأحقر أشكالها لقد حاول الإنجليز ، حين دخلوا السودان فى الربع الأخير من القرن الماضى ، أن يتملقوا اسكانه ويتظاهروا بعطفهم وحرصهم على تقدم البلاد والسكان ولعل فريقاً منهم كانت له رغبة صادقة فى أن يرى التقدم المادى ينتشر تدريجياً ، ولكن الساسة ، الذين كانت بيدهم

مقاليد الأمور ، عز عليهم أن يروا السودان هذا القطر المترامى الأطراف الذى تربو مساحته على المليون ميل مربع . فلم يلبثوا أن صور لهم الوهم أن هنالك سوداناً شمالياً وآخر جنوبياً ولا بد من أن يشطر القطر شطرين ، وأن يعزل الجنوب عن الشمال وأن يضاف الجنوب إلى المستعمرات البريطانية فى أوغندا أو كينيا .

فى ذلك الوقت كان الاستعمار البريطانى يحلم بأن ينشىء شيئا يشبه الهند فى آسيا . وأن يتألف هذا الشىء من كينيا وأوغندا والسودان الجنوبى . وقد تضخم المشروع بعد الحرب العالمية الأولى ، إذ ضم إليه إقليم تنجانيقا وزنجبار ، ياله من مشروع خطير ! الهند فى الشرق ، وأفريقيا فى الغرب يرفرف عليها جميعا العلم البريطانى ، ويجرى بينهما المحيط الهندى وقد أصبح بحيرة بريطانية شاسعة .

توهم الاستعمار هذه الصورة فى وقت مبكر ، وأخذ يعد لها العدة فى وادى النيل بفصل السودان الشمالى عن الجنوبى . إن السودان الشمالى يسوده الإسلام ، فلا بد أن يحرم الإسلام على أهل الجنوب . ولا بد أن يحشر فى الجنوب من الطوائف التبشيرية من هب ودب . وإذا كانت العربية لغة الشمال فيجب أن تحرم العربية على أهل الجنوب ولا يجوز للجنوبى أن يتخذ لأبنائه إسماً عربياً أو أن يلبس زياً عربياً . وأخذت الحكومة تمنح الهيئات التبشيرية ، على اختلاف أشكالها ، منحاً مالية ضخمة ، لكى تنشىء بها الكنائس والمدارس ، على شرط ألا تعرف هذه المدارس شيئا عن الدين الإسلامى أو اللغة العربية بل يدرس بها بغض أهل الشمال أو النفور منهم . كل هذا والأموال اللازمة لفصل الجنوب عن الشمال كانت تجبى من أموال أهل الشمال ، وهذا الطريق هو الوحيد الذى يمارسه الاستعمار فى عديد من الأقطار .

إن التفرقة بين الشمال والجنوب قد أحدثت شر الأحداث فى السودان ،

وأثارت الأحقاد ، ونشرت الفتن . والحكومة تبذل اليوم جهوداً جبارة لإصلاح ما أفسده الاستعمار على مدى تلك السنين الطويلة .

أن قصة السودان الجنوبى قصة تهمنا جميعا ، وتهم كل طالب يدرس تاريخ الاستعمار وتصرفاته البغيضة . وقد بذل الدكتور محمد المعتصم جهداً محموداً لكى يوضح للقارىء هذه القصة ويشرح جميع نواحيها وتفاصيلها .

ويسرنى أن أرى هذا الكتاب فى يد أبناء النيل وأن يطلعوا على فضائح المستعمرين ؛ لأن هذا خير درس يلقن للشباب هنا ، ولكنه شباب يشهد موبقات الاستعمار ، الذى لا نزال نشهد شروره فى وادى النيل من الأقطار المختلفة .

٧ مارس ١٩٧١

دكتور محمد عوض محمد

جنوب السودان

تتجه الأنظار اليوم إلى جنوب السودان .. هذا الجزء العزيز من وادى النيل .. وتتطلع إليه فى فترة حاسمة دقيقة من أهم فترات تاريخه الذى شهد ألوانا من الصراع يمثل فى مضمونه وجوهره قصة الخير والشر .. هذه القصة التى بدأت فصولها الحقيقية منذ أن وطأ الاستعمار أرض وادينا المقدسة .. وأراد أن يعبث بمقدراته ويستأثر بخيراته وثرواته .. وكان فى قمة مخططه اقتطاع جنوب السودان . هذا الجزء الغنى الخصيب من أرض النيل ليضمه إلى مناطق نفوذه .. فلما فشل فى تحقيق هدفه على هذه الصورة، بدأ يمارس ألواناً أخرى من المحاولات والخطط . وبدأت بالتالى فصول جديدة من قصة الصراع بين الخير والشر ما زالت مستمرة حتى الآن . ولتتخذ أشكالا وصوراً متعددة ستكون نهايتها الحتمية انتصار الخير على الشر ودحر كافة المحاولات التى شهدها تاريخنا المعاصر من جانب الاستعمار وأذنابه لفصل جنوب السودان عن شماله .

وجنوب السودان يمثل الأراضى الواقعة من حدود أوغنده إلى خط عرض ١٢ شمالا ، وهو عبارة عن منطقة واسعة من الأراضى مستوية السطح ، يجرى فيها النيل وروافده المتعددة ، وأهمها بحر الجبل ، وبحر الغزال ، وبحر العرب ، ونهر السوباط ، وعشرات من المجارى المائية التى تجعل هذه المنطقة من أكبر مناطق الزراعة فى العالم . هذا إلى جانب الأمطار الغزيرة التى تسقط عليها فى معظم شهور السنة . والتى تساعد على نمو الغابات الضخمة بأشجارها القوية وهى فى حد ذاتها ثروة هائلة سوف تمثل ، بعد استقرار الأمور فى الجنوب ، مصدراً رئيسياً فى اقتصاديات السودان .

ويسكن جنوب السودان عدد من القبائل تتشابه أصولها، ولكنها تختلف

لهجاتها وعاداتها وتقاليدها ومن أشهر هذه القبائل الدنكا والشلك والنوير والزاندى والمورو والانجستا وغيرها . ويتراوح عدد سكانها مابين أربعة ملايين وأربعة ملايين ونصف مليون نسمة يعيشون فى ٣ مديريات تكون جنوب السودان ،وهى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال ثم مديرية أعالى النيل .

وإذا كانت هذه المديريات الثلاث قد ضمت إلى مديريات السودان الأخرى منذ مائة عام تقريبا .. إلا أن هذا كان إداريا بحتا . لأن التصاق الجنوب بالشمال يرجع إلى آلاف السنين .. ومنذ أن عرفت الحياة فى أرض النيل .. لم تكن هناك فى يوم من الأيام عقبات دون اتصال أبناء الشمال بأبناء الجنوب أو العكس ، والتاريخ وهو يروى لنا أطرافا من هذه الصلات ، منذ عهود الفراعنة ، أى منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، يؤكد اتصال الحضارة على ضفاف النيل .. وهناك من الشواهد الملموسة، سواء فى الحفريات أو فى العادات والتقاليد ، مايؤكد حقيقة الاتصال بين شمال السودان وجنوبه منذ هذه الفترات البعيدة من التاريخ .. واستمرت هذه الصلة قوية عبر قرونه المتلاحقة ، إلى أن كان العصر الحديث وتكوين سلطة الفونج فى سنار ، والتى يؤكد بعض المؤرخين أن سلاطينها ترجع أصولهم إلى قبائل الشلك الذين اختلطوا بالعرب .. فكان منهم الأصل الذين تكونت به هذه السلطنة العريقة فى تاريخ السودان

وجنوب السودان من الموضوعات التى أثارت انتباه الكتاب والرحالة والجغرافيين فخرج للعالم العديد من المؤلفات والكتب التى تتحدث عن جنوب السودان بمختلف اللغات . وللأسف جاءت أغلب هذه المؤلفات وقد جانب الحقيقة واتجهت إلى الإثارة وأجمع معظمها على مساندة الاتجاه الاستعمارى فى خلق التباعد بين شمال السودان وجنوبه وتعميق الهوة بينهما من نواحى الدين والجنس والعادات والتقاليد ومقومات الحياة الاقتصادية والبشرية .. ونسى

هؤلاء الكتاب صلة النيل الخالدة الذى يعد أقوى رباط يجمع بين أبناء هذه المنطقة . . والذى يعد وحده عنصراً كافيا من عناصر الوحدة التى لا يوجد له نظير فى العالم

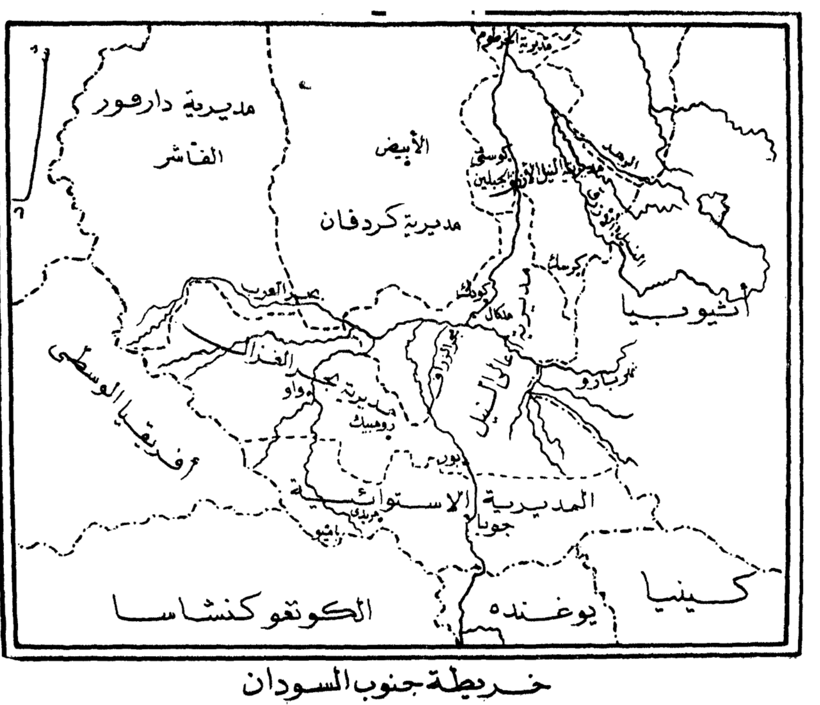
وسوف تكون قصة جنوب السودان محاولة لتوضيح حقيقة هذا الجزء الهام والحيوى فى جسم السودان .. نستعرض ، خلالها فى إيجاز ، تاريخه وجغرافيته وإمكانياته واقتصادياته ثم قصة الخير والشر التى تخللت المائة عام الأخيرة من عمره والتى أثارت انتباه العالم كله ليرى نتيجة كفاح العناصر المؤمنة المتحررة ضد قوى الاستعمار والرجعية .

دكتور محمد المعتصم

الفصل الأول

ماهو الجنــــوب

- مديريات الجنوب
- القبائـل الجنوبية
- صفحات من المجتمع



خريطة جنوب السودان

أولا : مديريات الجنوب

يتكون السودان الجنوبى من الناحية الإدارية فى الوقت الحاضر من ثلاث مديريات ، هى الاستوائية فى أقصى الجنوب ، وعاصمتها مدينة جوبا ، وبحر الغزال وعاصمتها مدينة واو ، ثم مديرية أعالى النيل وعاصمتها ملكال. وهذا التحديد الإدارى ينطبق على مديريات الجنوب منذ عام ١٩٤٨ . وقبل هذا التاريخ كانت المديرية الاستوائية تسمى باسم مديرية منجلا التى ظلت محتفظة بهذا الاسم حتى عام ١٩٣٥ .. وبعدها أدمجت بحر الغزال ومنجلا رسمياً بالمديرية الاستوائية . وعلى هذا الأساس فإن المديريتان اللتان كان يتكون منهما جنوب السودان فى الفترة مابين عامى ١٩٣٥ و ١٩٤٨ هما الاستوائية وأعالى النيل . . وأضيفت إليهما فى عام ١٩٤٨ المديرية الثالثة وهى بحر الغزال . وليصبح وضع هذه المديريات منذ ذلك التاريخ على النحو الذى توجد عليه اليوم .

هذا هو تحديد المديريات الجنوبية من الناحية الإدارية . . أما تحديدها من الناحية الجغرافية فإنه من الصعب وضعه فى إطار وصوره على النحو الذى نجده فى أقاليم وجهات أخرى . . ان كان العرف والتداول قد جعل من خط عرض ١٠° شمالا هو الحد التقريبى بين شمال السودان وجنوبه ، وذلك منذ أن جعلته الإدارة البريطانية البوابة التى يقف عندها كل قادم إلى الجنوب من ناحية الشمال ، ولا يسمح له بالدخول إلا بإذن خاص منها . . وكان هذا نواة لما عرف بعد ذلك بقانون المناطق المقفلة .

ويحسن بنا أن نعرض ملامح عن تاريخ مديريات الجنوب وشىء عن عن طبيعتها وإمكانياتها .

١ — المديرية الاستوائية :

تقع المديرية الاستوائية فى أقصى جنوب السودان ، وتحتل الجزء الأكبر من أرضه ، ويتخللها عدد من المجارى المائية القادمة من منابع النيل الاستوائية . وقد تكونت هذه المديرية بهذا الاسم منذ عهد قريب كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ففى عام ١٩١٦ تم ضم مديرية منجلا مع مديرية بحر الغزال فى مديرية واحدة واستمر الوضع من الناحية الادارية على هذا النحو حتى نهاية عام ١٩٤٨ حين ألغى هذا التقسيم . . وأعيد العمل بالتقسيم السابق لتصبح مديرية منجلا هى المديرية الاستوائية .

وقد ضمت المديرية الاستوائية إلى مديريات السودان فى عام ١٨٦٩ . وكانت البلاد الواقعة فى تلك المنطقة حتى ذلك التاريخ تقع فى دائرة نفوذ أحد كبار التجار ، واسمه السيد / أحمد العقاد ، الذى كان يديرها لحسابه نظير ضريبة سنوية يدفعها للحكومة فى الخرطوم . وفى العام المذكور أى سنة ١٨٦٩ قام صمويل بيكر أحد كبار المغامرين الإنجليز بتكليف من خديو مصر السابق إسماعيل بحملة قوامها ١٧٠٠ رجل من المشاة المصريين والسودانيين لفتح البلاد الاستوائية والقضاء على تجارة الرقيق فى هذه المنطقة . كما سعى إلى تأسيس نقط عسكرية لحماية الطريق وتنشيط هذه الجهات . ومنحه الخديو رتبة فريق ولقب باشا وراتباً قدره عشرة آلاف جنيه فى السنة مع تعيينه حاكما للجهات الاستوائية لمدة أربع سنوات . وفى عهده تأسست مدينتى التوفيقية والإبراهيمية فى منطقة بحر الجبل ، كما أقيمت عشر نقاط عسكرية للحراسة على نهر النيل وكان نجاح هذه المهمة يرجع إلى وجود ضابط مصرى كفء هو محمد رؤوف الذى كان يعمل وكيلا لصمويل بيكر الذى لم يلبث أن غادر هذه البلاد عائدا إلى الخرطوم فالقاهرة بعد أن انتهت فترة انتدابه .

والمديرية الإستوائية تشترك فى حدودها مع خمس من الدول الأفريقية . وهى الحبشة فى الشرق وكينيا وأوغندا فى الجنوب . . ثم الكونغو كنشاسا وأفريقيا الوسطى فى الجنوب الغربى . . وقد أثر هذا الموقع على أهمية هذه المديرية من الناحية الإستراتيجية . . فقد جعل منها حلقة اتصال قوية مع هذه الدول وواسطة عقد بينهم . . وإن كان قد أثر عليها تأثيرا سياسيا خطيرا فى نفس الوقت وذلك حين استغلت العناصر المعادية لوحدة السودان هذا الموقع والتصاق هذه المديرية بحدود هذه الدول . . فأخذت تبعث إلى جنوب السودان بالأسلحة والمعدات والأموال لمساعدة المتمردين ودعاة الانفصال . ومن ناحية أخرى عملت على احتضان العناصر المتمردة وإيوائها فى بعض من هذه الدول . وتولت تدريبها وإعدادها للقتال . . ثم ترسلها إلى الجنوب عبر هذه الحدود . . لتقوم بدورها المرسوم فى إثارة الفتن والقلاقل فى جنوب السودان . . ولتقلب هذه المناطق الوادعة الآمنة إلى مسارح للقتال دامية .

وقد حبا الله المديرية الاستوائية بالعديد من المزايا التى لا تتوافر فى غيرها من مديريات السودان الأخرى . فهى تعد من أخصب بقاع وادى النيل وأوفرها خيرا و أكثرها امتلاء بالمجارى المائية التى تنحدر وتنتشر فى معظم أراضيها هذا فضلا عن مياه الأمطار التى تسقط فى معظم شهور السنة والتى تساعد على وجود الغابات ذات الأشجار الضخمة . وتجعل من هذا الإقليم جنة خضراء .

والأرض فى المديرية الاستوائية تمتاز بأن سطحها يكاد يكون مستويا وتبلغ أقصى ارتفاع لها فى شرق النيل حيث توجد ثلاث من الكتل الجبلية التى يتراوح ارتفاع الكتلة منها بين ألفين وثلاثة آلاف متر . وينحدر سطح الأرض وهو متجه شمالا حيث السهول الفسيحة والتربة الخصبة القوية التى يجرى فيها النيل متعرجا . تحف به الأخوار والمستنقعات التى تكثر

فيها قطعان الحيوانات المفترسة حيث تعيش فى هذه المناطق وما حولها . فنجد الفيل والأسد والفهد ووحيد القرن والجاموس الوحشى وغيرها من الضوارى .

وساعدت ظروف التربة الخصبة والمناخ الصالح للزراعة على نجاح زراعة بعض المحاصيل التى امتازت فى إنتاجها بصورة تفوق الوصف فى جودتها وكمياتها ، ورغم هذه الميزة الضخمة . إلا أن الاستعمار قد أخر استغلال هذه المناطق زراعيا وعطل جهود الأهالى فى هذا المجال الهام ليحرم الاقتصاد السودانى من الانتفاع بإيراد ضخم ستدره هذه الأراضى لو سمح للأهالى باستغلالها . كما حرص المستعمر على أن يظل الأهالى بعيدين عن مجالات المشاركة فى الأعمال الزراعية حتى لا يستقروا فى الأرض من ناحية ومن ناحية أخرى تنتعش أحوالهم المعيشية ، فيبدأون فى التفكير فى مستقبلهم ويتطلعون إلى آفاق جديدة لا يحبذ الاستعمار التوصل إليها .

والحقيقة أن المديرية الاستوائية ، شأنها شأن مديريات السودان الجنوبية ، كانت سيئة الحظ فيمن ولى أمر إدارتها . فقد صادف ضمها إلى الإدارة السودانية ظروف الضعف السياسية التى كان يمر بها الحكم فى وادى النيل .. وامتثال الخديو لأوامر الحكومة الإنجليزية . وذلك قبل سنوات من الاحتلال البريطانى لوادى النيل . ومن هنا فرضت عليه حكاما من الإنجليز وغيرهم ليديروا مديريات السودان بصفة عامة والجنوب بصفة خاصة . ومنذ ذلك التاريخ وحتى خروج الإنجليز من السودان فى عام ١٩٥٥ .. وإدارة جنوب السودان فى يد حكام وموظفين من انجلترا .

وعلى هذا كان طبيعيا أن يخلف بيكر فى عام ١٨٧٣ انجليزى آخر هو غوردون الذى فرضته الحكومة الانجليزية على خديو مصر ليعينه حاكماً

للاستوائية لغرض فى نفسها . فقد اتضحت فيما بعد رغبة الإنجليز فى الاستئثار بحكم هذه الجهات الغنية ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز . وامتثل الخديو لهذه الرغبة وعينه حاكما على الاستوائية عام ١٨٧٤ ، واختار لمعاونته ضابطا مصريا كفئا هو اللواء ابراهيم فوزى الذى عمل على نشر راية العدل والنهوض بهذا الإقليم الهام من أقاليم وادى النيل ، كذلك أولى الزراعة عناية كبيرة فأدخل زراعة البن والذرة والسمسم والأرز .. ونهض بالتجارة فازدادت صادرات الإقليم من العاج والجلود . وكان نجاح ابراهيم فوزى على هذه الصورة مثار حقد غوردون وخشيته من أن تؤدى سياسته إلى فشل المخطط الانجليزى فى ابتلاع هذا الأقاليم .. فأصدر أمره بفصله من وظيفته فى عام ١٨٧٦ .

ورأى غوردون الانجليزى أن يستعين بعدد آخر من المساعدين الأجانب فى مهمته التى استمرت عامين تقريبا فى إقليم الاستوائية حتى يتم فصل هذه الجهات عن جسم السودان ويتمكن هؤلاء الأجانب من تنفيذ المخطط الاستعمارى فى السودان الجنوبى . وشجعه على ذلك نجاح هذا الاجراء فى الأقطار الإفريقية المجاورة بجنوب السودان . وعلى هذا نسمع عن إدارى وطنى يتولى مقاليد هذه البلاد منذ ضمها للادارة السودانية بل كانوا كلهم على شاكلة بيكر وغوردون جسى ولوبنج .. واجتهد هؤلاء فى إدارتها بعيداً عن مجالات رقابة الحكومة أو الالتزام بأوامر وتوجيهات الخديو صاحب السلطة الشرعية فى وادى النيل آنذاك .

وغادر غوردون خط الاستواء ليعين أحد الانجليز خلفا له .. ثم ليخلفه الألمانى شنيتزر حتى قيام الثورة المهدية . وهناك تقوم بريطانيا بمحاولتها الجريئة لفصل إقليم خط الاستواء عن جسم السودان .. وكان ذلك حينما ادعت أن القوات الموجودة فى هذه المنطقة معرضة للخطر وأرسلت جيشا بقيادة ستانلى

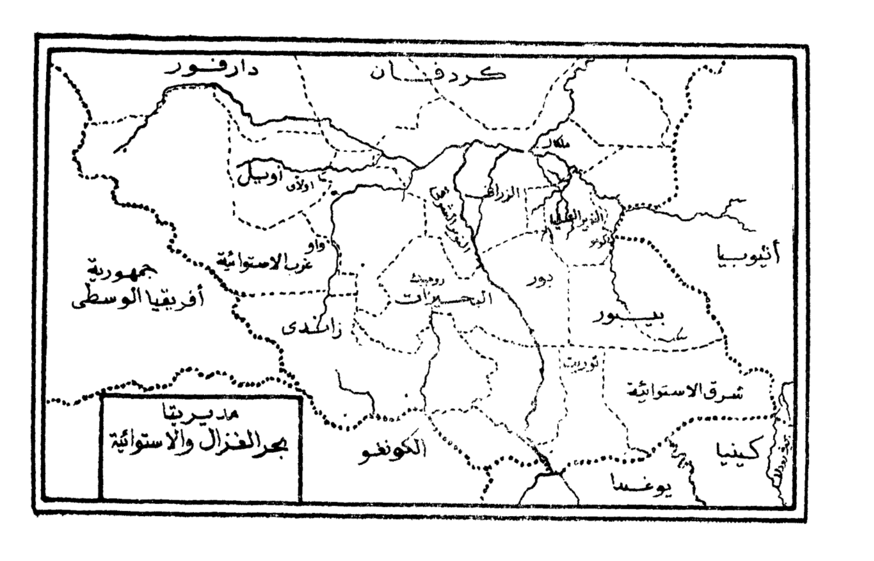
لإنقاذ هذه القوات التى رفضت هى وقائدها أمين باشا الانصياع للإرادة الانجليزية . ورفضت أن تترك هذة المديرية وتسلمها للقوات الإنجليزية التى كانت قد احتلت مصر .. وتجاهد فى احتلال السودان . وكان قائد الثورة ضد محاولات الاستعمار فى خط الاستواء ضابطا سودانيا أهمله التاريخ هو الملازم فضل المولى الذى تمرد على أوامر الخديو بتسليم الإقليم لقوات ستانلى .. وحفز إخوانه وجنوده على التمسك بهذه الأرض حتى يفنى آخر رجل فيهم .

لكن الاستعمار وحيله ووسائله كانت أقوى من المقاومة وأعتى من الثورة . ونجح ستانلى وخرجت القوات السودانية والمصرية من هذا الإقليم لتبدأ بريطانيا فى ممارسة سياستها عليه وتنفيذ أهدافها الاستعمارية فى هذا الجزء العزيز من وادى النيل .

* * *

وجوبا هى عاصمة المديرية الاستوائية .. وقد أكسبها موقعها أهمية خاصة فى التاريخ الحديث والمعاصر .. فمنذ قرون تقريباً اختيرت لتكون نهاية خط مواصلات يبدأ من المحيط الهندى ماراً بشرق أفريقيا حتى يتصل شرق القارة الإفريقية بوسطها . والمنطقة التى تقع فيها مدينة جوبا — برغم أهميتها — فإنها منعزلة عن العالم من ناحية الشمال حيث تقع منطقة السدود النباتية التى تحول دون هذه الصلة . وقامت فيما مضى حملة الجوبا فى عهد خديو مصر إسماعيل عام ٨٧٥ لتقوم بمهمة فتح طريق من جوبا إلى المحيط، لكن هذه الحملة لم يكتب لها النجاح .. حيث وقفت المطامع الاستعمارية حائلا دون إتمامها .

وقد استحوذت المديرية الاستوائية على اهتمامات الرحالة والمؤرخين والكتاب فخرجت مؤلفات كثيرة تتحدث عن هذا الإقليم وتناولت كل جوانبه . ومما ضاعف الاهتمام بها اكتشاف منابع النيل فى أواخر القرن الماضى .. وكانت



مديريتا
بحر الغزال والاستوائية
دارفور
كردفان
أثيوبيا
جمهورية
أفريقيا الوسطى
أويل
واو
غرب الاستوائية
زاندى
البحيرات
رومبيك
دور
بيبور
ملكال
الزراف
النوير العليا
شرق الاستوائية
كينيا
يوغندا
الكونغو

المديرية الاستوائية هى المفتاح إلى الكشوف الجغرافية المتعددة فى هذه المنطقة والتى أثارت اهتمام العالم فى حينه .

ولعل أهم فترة فى تاريخ هذه المديرية . تلك التى ولى زمام الأمور فيها الضابط المصرى اللواء إبراهيم فوزى فى الربع الأخير من القرن الماضى . . والذى كان له فضل كبير فى نموها وازدهارها .

* * *

٢ — مديرية بحر الغزال :

مديرية بحر الغزال هى ثانية مديريات الجنوب الثلاث . . وأحدثها من ناحية التكوين الإدارى . لقد خططت حدودها الإدارية وأعلن قيامها فى عام ١٩٤٨ . ومع هذا فماضيها قديم عريض وتاريخها المعاصر حافل بالأمجاد الوطنية .

ويشق هذه المديرية بحر الغزال بفروعه المتشعبة التى تتخلل معظم أجزائها تقريبا وحدودها من الشمال بحر العرب والغزال ويفصلانها عن دار فور وكردفان ، ومن الشرق بحر الجبل الحد الفاصل بينها وبين مديرية أعالى النيل ، ومن الجنوب تكون حدودها مع الكونغو وأوغندا والمديرية الاستوائية ، ثالثة مديريات السودان الجنوبى .

وتنقسم المديرية إلى قسمين رئيسيين : الأول القسم الشمالى وهو متسع خصب صالح للزراعة يروى بمياه النهر وفروعه وكذلك بمياه الأمطار التى تسقط تسعة أشهر فى السنة تقريباً . وتجرى حاليا فيه تجارب ناجحة لعدة مشروعات زراعية تنتج الأرز والقطن والذرة وبعض الأنواع الأخرى من المحاصيل التى يتم تسويقها وشحنها إلى الخرطوم وبور سودان ومدن غرب السودان . ومما ساعد على نجاح الزراعة الحديثة أيضاً خصوبة التربة

واستواء السطح وخلوه من الموانع الطبيعية ومعوقات صلاحية الإنتاج. أما القسم الجنوبى من المديرية فهو قليل الخصوبة .. تتخلله المرتفعات ويوصف بأنه جبلى لا تنمو فيه إلا بعض الأشجار الطبيعية وتكثر الغابات فى بعض مناطقه، كما أنه قليل السكان لم تطرقه يد العمران بعد .

ومدينة واو هى عاصمة مديرية بحر الغزال . وقد اختلفت التفسيرات حول هذه التسمية فمهم من يقول أن كلمة واو تحريف لكلمة «جاو» أى السوق حسب لهجة البونجو إحدى القبائل القاطنة فى هذا الإقليم. وبعضهم يذكر أن أفراد قبيلة الدنكا الذين انتصروا على القوات المتقدمة إليهم .. كانت كلمة السر عندهم ساعة الانتصار هى واو .. وفريق ثالث يقول إن كلمة واو جاءت من تسمية لشجر الجميز حين تنمو وتتدلى فروعها إلى الأرض وحينئذ يقول الدنكا إن الشجرة واوت . ويمكن تصديق أى من الروايات الثلاث حول تسمية عاصمة بحر الغزال .

وأشهر القبائل التى تسكن مديرية بحر الغزال هى قبيلة الدنكا أكبر قبائل جنوب السودان من ناحية العدد، والتى يتجاوز عدد أفرادها أكثر من مليون نسمة .

وفى إقليم بحر الغزال ظهر أحد رجالات السودان المعروفين والذين لمع ذكرهم فى أواخر القرن الماضى .. ذلك هو الزبير باشا رحمت العباسى الذى استطاع بجهده وكفاءته أن يؤسس ملكا عادلا قوياً . وأن يكون جيشا من اثنى عشر ألف مقاتل من الرجال الأشداء الذين ساعدوا على توطيد أسباب الأمن والنظام . وحموا نظام الحكم من محاولات أعدائه للنيل منه واتخذ الزبير باشا من مدينة ديم الزبير عاصمة له أثناء فترة حكمه .

وفى عهده تم الاتفاق بينه وبين زعماء قبيلة الرزيقات على فتح الطريق الموصل بين بحر الغزال وكردفان وذلك لصعوبة استعمال مجرى النيل ممراً مائياً فى نقل الحاصلات والتجارة بين الإقليم وغرب السودان لوجود

منطقة السدود النباتية . وبفتح هذا الطريق وتأمينه .. انتعشت الحالة الاقتصادية فى بحر الغزال وعم الرخاء على المواطنين هناك .

وقد نظر الاستعمار البريطانى إلى منطقة بحر الغزال كمكان بعيد أمين يستطيع أن ينفى إليه الأحرار الذين يرتفع صوتهم بنداء الجهاد المقدس ضـــده . ومن بين هؤلاء الذين نفوا إلى بحر الغزال ولقى ربه هناك الشهيد عبيد الحاج الأمين أحد أبطال ثورة ١٩٢٤ . وكان الاستعمار يقصد من وراء هذا تشويه سمعة هذا الإقليم الذى جعلت منه العناصر الوطنية فيما سبق مركزاً هاما من مراكز النشاط والإنعاش فى السودان .

وتشكل منطقة السدود النباتية التى تقع غالبيتها فى إقليم بحر الغزال خسارة كبيرة فى نسبه ما يحمله النيل الأبيض من الماء منذ انطلاقه من منابعه فى هضبة البحيرات . فمن الجزء الذى يبدأ من نقطة افتراق فرعيه المسميان بحر الزراف وبحر الجبل إلى مصب نهر سيت ولمسافة تبلغ ١٣٠ كيلو متراً ، تنتشر هذه السدود الكثيفة من النباتات فى مجرى النهر والتى تستهلك كميات كبيرة من مياهه تبلغ تسعة أعشارها . كما ترغم هذه النباتات مجرى النهر الطبيعى على الانتشار والاتساع الهائل على هذا المدى الطويل متسببة فى ضعف مجراه . فتسير المياه ببطء شديد . وقد تخللت النباتات المنطقة كلها حتى لا يرى المسافر إلا الماء من كل الجهات ولا سيما عند ملتقى بحر الرجاف ببحر الغزال عند بحيرة نو .

هذه السدود النباتية تطفو أحياناً على سطح الماء ، ويسير النهر من تحتها . وهذه النباتات لها أشكال ثلاثة معروفة : النوع الأول وتبلغ جذوره قاع النيل ، والثانى تنتشر جذوره فوق الماء ، أما النوع الثالث فيطفو كله فوق السطح . هذه المجموعات الثلاث تكون فى النهاية سداً متيناً يعترض مياه النيل بين شاطئيه ، ويزداد طولا فى المناطق التى تكثر فيها هذه النباتات وتبلغ أحيانا عدة كيلو مترات . أما سمكها على الماء فقد يصل

أحيانا إلى أكثر من متر ونصف متر .. وفى هذه الحالة تعتبر معبرا بين شاطىء النيل يستطيع الإنسان والدواب أن تمشى فوقها من شاطىء إلى آخر .

ووجود هذه السدود يعتبر عائقاً ضخماً فى سبيل المواصلات النهرية. فهى تقطع الطريق على السفن والقوارب المسافرة وتحبسها عن مواصلة رحلتها أياماً أو شهورا إلى أن يتم اقتلاع هذه النباتات .

والغريب فى أمر هذه النباتات أن ألوانها جميلة وجذابة للغاية ويخيل لك وأنت تراها فى مجرى النيل أنك تسير فى بستان جميل تفنن زراعه فى اختيار أشكال زهوره . كما أن لهذه النباتات خاصية أخرى وهى سرعة ابتلاع المياه . وقد اجريت تجارب وضع فيها ثلاثة من هذه النباتات فى صفيحة مملوءة بالماء . وفى اليوم التالى كان النبات قد امتص كل مافيها من الماء .

وقد فكر رجال الرى منذ عشرات السنين فى إنشاء قناة بطول منطقة السدود يحولون إليها مجرى النهل مبتعدين به عن هذه المنطقة التى تعتدى على نسبة كبيرة من مياهه ، وظل هذا المشروع يتعثر فى التنفيذ وكان الاستعمار الجاثم على صدر وادى النيل سببا رئيسيا فى تعويقه .. ثم ماكان بعد ذلك من أسباب أخرى عطلت قيامه .

ومشروع القناة الممتدة عبر ١٣٠ كيلو مترا والتى عرفت فى المشاريع الهندسية باسم قناة جونجلى ستزيد نسبة مياه النيل الأبيض إلى مايقرب من حجم مصادرها الرئيسية وتقلل التفوق الهائل الذى تتميز به مياه النيل الأزرق عن مياه النيل الأبيض . وفى النهاية ستكون هذه الزيادة لصالح المشاريع المتعددة التى تستلزمها النهضة الجديدة فى وادى النيل ، هذا فضلا عن التسهيلات الملاحية التى ستقدمها هذه القناة الجديدة ومدى أثرها فى تطوير الملاحة فى هذه المنطقة الصعبة .. كما ستخلق القناة الجديدة منطقة

فريدة فى نوعها فى العالم . إنك تستطيع وأنت تعبر هذه القناة أن ترى على جانبيك مناطق مائية ضخمة تؤمها الوحوش والضوارى وغيرها من الطيور والزواحف التى تستوطن هذه المنطقة الجديدة وتجعل منها حقلا خصبا من حقول السياحة والصيد .

* * *

٣ — مديرية أعالى النيل :

تكونت مديرية أعالى النيل بحدودها الإدارية الحالية فى الثلاثينات من هذا القرن ومنذ حوالى خمسة وثلاثين عاما تقريبا . وكانت قبل هذا العهد تعرف باسم محافظة فاشودة وعاصمتها مدينة فاشودة التى اشتهرت بأنها مركزا لقبيلة من أهم قبائل السودان الجنوبى وهى قبيلة الشلك .

ولنرجع إلى الوراء قليلا لنعرف شيئا عن مديرية أعالى النيل .. أو محافظة فاشودة التى زاد الاهتمام بها عقب حادثين مهمين فى تاريخ أفريقيا . الأول يختص بمحاربة تجارة الرقيق . والثانى يتعلق بقصة تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية المستعمرة . لقد شهدت محافظة فاشودة منذ أكثر من مائة وخمسين عاما وقائع دخول رهط من المغامرين الأوروبيين إلى أرضها بحجة الاتجار فى العاج وريش النعام .. وما لبث هؤلاء الأجانب أن استبدلوا هذه التجارة بالاتجار فى البشر سكان المناطق وغيرها وتصديرهم إلى الأسواق فى الخارج . واستمرت هذه التجارة المقيتة المربحة حتى كان عهد الحكمدار جعفر صادق الذى ولى حكمدارية السودان عام ١٨٦٠ . وفى أيامه أصدرت الحكومة أوامرها إليه بالقضاء على هذه التجارة فى جنوب السودان . ورأى أن يبدأ بمحافظة فاشودة ليطهر منها المتجرين وليحرر الضحايا وليقطع الطريق على النخاسة فى إقليمى بحر الغزال والاستوائية ، وقد نجح جعفر صادق فى مهمته ،

واستطاعت الحملات التى قام بها أن تؤدى واجبها على خير وجه . وتمكن في عام ١٨٦٥ أن يطهر محافظة فاشودة تماما من أثر هؤلاء التجار الذين صادر قوافلهم وسفنهم المحملة بالرقيق . واستدعى رث الشلوك إلى الخرطوم حيث سلمه ما تم تحريره من رعيته . وكرمه وقدم له الهدايا والمنح وأعاده معززا إلى عاصمة إقليمه ، ومنذ ذلك التاريخ دخلت محافظة فاشودة التى عرفت بعد ذلك بمديرية أعالى النيل إلى حدود السودان الجغرافية .

أما الحادث الثانى الذى اشتهرت به محافظة فاشودة ، فكان تلك المناورة الاستعمارية بين فرنسا وبريطانيا على ابتلاع هذه المحافظة وضمها إلى مناطق نفوذهما . واستمر الصراع بين الدولتين الاستعماريتين على فاشودة قرابة شهرين . وانتهى بانتصار بريطانيا . ففى شهر سبتمبر من عام ١٨٩٨ دخلت قوات فرنسية إلى هذا الاقليم ورفعت عليه علم فرنسا معلنة احتلاله وضمه للنفوذ الفرنسى ، ولما بلغ الخبر السردار الإنجليزى كتشنر سافر بنفسه إلى فاشودة ليرقب تطورات الموقف . والتقى هناك بالجنرال مارشان قائد الحملة الفرنسية وطالبه بإنزال علم بلاده والجلاء عن المنطقة . وأصر كتشنر على رفع العلم المصرى وعين له كتيبة سودانية لحراسته .. واستمرت المناورات بين القوتين الفرنسية والإنجليزية على احتلال فاشودة حتى ديسمبر من نفس السنة حين احتلت القوات الفرنسية مواقعها وانسحبت إلى حيث أتت . ومن المعروف أن كتشنر قد استغل اسم مصر صاحبة السلطة الشرعية آنذاك على ذلك الإقليم ليرغم فرنسا على إخلائه . وكان هذا الاستغلال يصحبه إجراء عملى هو رفع العلم المصرى حتى يثبت صدق طلبه .

ومن ناحية الوضع الجغرافى والتقسيم الإدارى .. تقع هذه المديرية على بعد حوالى ٧٠٠ كيلومتر جنوب الخرطوم وأشهر مدنها فاشودة التى تعرف

الآن باسم كودوك .. ثم ملكال العاصمة الحالية. وتمتد على النيل من مدينة الجبلين عند خط عرض ١٢ إلى بحيرة نو ومنها على بحر الجبل حتى اللادو عند خط عرض ٥ تحدها من الشرق مديرية النيل الأزرق ، ومن الجنوب مديرية بحر الغزال ومن الغرب كردفان .

وقد دخلت هذه المنطقة إلى حدود السودان رسميا فى عام ١٨٧١ . واستمرت منذ ذلك التاريخ تعاصر أحداثه المختلفة من وقائع الحرب المهدية ثم دخول الانجليز إلى السودان وحادثة فاشودة . ثم استئثار الإدارة البريطانية بهذا الإقليم الهام منذ عام ١٨٩٩ حتى ظفر السودان بحريته بعد توفيق ثورة ٢٣ يوليو فى مصر فى توقيع اتفاقية السودان بينها وبين بريطانيا فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٢ والتى نصت على الحكم الذاتى وتقرير المصير للقطر الشقيق .

هذا بعض ماسجله التاريخ لمحافظة فاشودة .. التى عرف بعد ذلك باسم مديرية أعالى النيل .. وهو يؤكد أهمية هذا الجزء من السودان وحيويته والذى كان مثارا للاهتمام فى فترات متعددة منه .

وتتميز مديرية أعالى النيل بأهمية كبيرة بالنسبة للسودان .. فهى النقطة التى يلتقى فيها شماله بجنوبه .. والمركز الذى يلتقى فيه ويتفرع منه أشهر روافد النيل وفروعه .. كما أنه تقع بها أشهر مناطق السدود النباتية فى العالم تقريبا والتى يقرب طولها من مائة وثلاثين كيلو مترا .. كذلك تعتبر هذه المديرية مجمعا لأشهر وأهم القبائل التى تسكن جنوب السودان .

وتحتل منطقة السدود الجزء الغربى من أعالى النيل وتبدأ من مدينة غابة شامبيه وتنتهى إلى الجنوب من بحيرة نو . وقد كانت هذه المنطقة على مدى التاريخ هى الستار الذى ظل يحجب وراءه سر منابع النيل منذ آلاف السنين .. لقد كان الرحالة والمستكشفون يتعثرون ضد هذا الامتداد الواسع

للمجرى .. والتشعب الكبير له فى مناطق لا تحصرها العين ولا يحدها البصر . وكان المصريون أول من تحدى هذه الظاهرة الطبيعية الجبارة .. فقد استطاعت حضارة مصر أن تنشط فى هذه الأماكن الوعرة التى يغطيها الماء والنبات والطين .. وأن تتوغل فى هذه السدود والموانع .. فكانت رحلات سليم قبطان ورؤوف وغيرهما . ومساعداتها الإيجابية الفعالة فى رحلات الأجانب أمثال بيكروسبيك وجرانت الذين لم يكن لهم من أسباب الكشف عن منابع النيل إلا المجد والشهرة واستطاعت الحضارة المصرية أن تصل فى التاريخ السحيق إلى هذه الجهات وكونت فى التاريخ المعاصر جسرا إلى منطقة البحيرات الاستوائية عن طريق مديرية أعالى النيل .

ومن المعالم البارزة فى مجرى النهر فى مديرية أعالى النيل بحيرة نو هذه البحيرة المتسعة الشهيرة التى تنتهى عندها الروافد الهامة الثلاثة من روافد النيل وهى بحيرة الجبل وبحر الغزال وبحر الزراف إلى الغرب من هذه البحيرة . ومن بحيرة نو يتجه النهر نحو الشرق ليلتقى بالرافد القادم من الحبشة وهو نهر السوباط والذى يعتبر أول رافد يحمل الغرين والقوة فى آن واحد ؛ ليعين النهر العظيم الذى أنهكه التعب فى منطقة السدود النباتية؛ وليكون دفعة قوية له يستأنف منها رحلته الكبيرة إلى الشمال تحت اسم النيل الأبيض .

ويتجه النيل الأبيض فى مسيرته إلى الشمال فى انحدار بطىء لا يتجاوز المليمترين فى كل كيلو متر ، وهو ضحل القاع فى بعض مناطقه التى تتعثر فيها الملاحة . ويظل هكذا حتى يصل إلى مدينة ملكال .. العاصمة الجديدة لمديرية أعالى النيل والتى خلفت فاشودة العاصمة القديمة ، فقد أصر الاستعمار على محوها من التاريخ كعاصمة وأسم حين استبدلها باسم كودوك وذلك حتى يخفى معلماً هاماً من معالم الحضارة والتاريخ فى الجنوب .

وملكال اسم شاكاوى يعنى (مرعى الماشية المرتفع) . . وهى بلدة صغيرة اتخذ منها الرى المصرى فى السودان مركزاً لمشروعات ودراسات فى أعالى النيل . وأقام فيها المبانى والمنازل على الطراز الحديث . وأحدث فيها حركة ضخمة من النشاط العمرانى والسكانى ساعدت على أن تكون مركز وعاصمة لهذه المديرية الواسعة الغنية بالإمكانيات .

وفى العاصمة القديمة كودوك أو فاشودة .. يقيم رث الشلوك وهو زعيم قبيلة من أكبر قبائل السودان الجنوبى عددا والتى يبلغ أفرادها ما يقرب من نصف مليون نسمة .. بعضهم يدين بالإسلام والبعض الآخر بالمسيحية والقسم الثالث بالوثنية . وبهذه المناسبة يسكن مديرية أعالى النيل ثلاث من أكبر قبائل جنوب السودان .. فيقيم الشلوك فى المنطقة الغربية للنهر، والدنكا فى المنطقة الشرقية ، أما النوير فقد اتخذوا جنوب الإقليم منطقة لهم . وهذا لا يعنى استقرارهم الدائم فى هذه الجهات .. لأن حياتهم قامت على الترحال والتنقل .

وتعتبر مديرية أعالى النيل من أشهر مناطق الصيد فى أفريقيا ويوجد بها قطعان هائلة من الفيلة والتماسيح وفرس النهر « السيد قشطة » والزواحف الضخمة وغيرها من الحيوانات التى تستحوذ على اهتمام السياح والرحالة .. وتثير فيهم حب المغامرة فى الغابة التى توجد فى أنحاء متعددة من هذه المديرية ، وهى تحوى الأشجار الضخمة الوفيرة الثمار مثل الموز والمانجو . هذه الثمار لها قصة مع الاستعمار سنرويها فيما بعد .

ثانيا : القبائل الجنوبية

١ - قبيلة الدنكا :

تعد قبيلة الدنكا من أشهر قبائل جنوب السودان وأكثرها عددا ، إذ يبلغ مجموع أفرادها حوالى مليون ومائة وثلاثين ألف نسمة . ينتشرون فى منطقة واسعة تمتد من مدينة الرنك فى الشمال إلى مدينة واو فى الجنوب ومن بحر الغزال شرقا إلى مديريتى كردفان ودارفور غربا .

والمعلومات التى وصلتنا عن التاريخ القديم لهذه القبيلة الكبيرة قليلة رغم ضخامة عددها ، وذلك لأن لهجة الدنكا يتخاطب بها فقط ، وليس لها حروف هجائية تكتب بها . ومن هنا تعذر تسجيل تاريخها وماضيها ، هذا فضلا عن أن الدنكا لم يهتموا أنفسهم بهذا الأمر ولم يحاولوا الكتابة بأية صورة من صورها كالنقوش أو الرسوم المعبرة مثلا . وعلى هذا ضاع تراث كبير عريق لم يصلنا إلا طرف يسير منه بطريق الرواية أو العادات أو التقاليد التى مازالت متبعة حتى اليوم . وعلى سبيل المثال هناك تقليد دنكاوى حتى اليوم وهو أن يضعوا لبنا فى كأس ليشرب منه الثعبان الذى يألفونه ويسكن معهم . وتوجد فى المتحف المصرى بالقاهرة صينية من نحاس أصفر منقوش عليها شكل امرأة تحمل كأسا فيه لبن يشرب منه ثعبان (قسم بلاد النوبة رقم ٤٥ دولاب رقم ٢٣) . وهذا دليل على معاصرة الدنكا لقدماء المصريين أو تأثرهم واحتفاظهم بتقاليد الفراعنة . وليس هذا هو الدليل الوحيد على هذه الصلة . بل إن عاداتهم فى عدم إطلاق لحاهم ثم ردائهم الذى يلف عند الوسط ويرتفع على كتف واحد ثم شكل النعال التى يرتديها بعضهم هى فى الحقيقة عادات قديمة مختزنة عند قبائل الدنكا عرفت على أنها عادات فرعونية .

وتنقسم الدنكا إلى مجموعات من القبائل . تنقسم كل منها إلى بطون وفخود تسمى كل منها بأسماء الأماكن أو الحيوانات . ومنطقة كثافتهم تقع في إقليم بحر الغزال وبحر العرب حيث توجد معظم أراضيهم . ومع كل هذه التقسيمات والفروع فإن هناك قسمين رئيسيين لقبيلة الدنكا : القسم الشمالي والذين يعرفون بدنكا الشمال وهم يميلون إلى الزراعة ودنكا الجنوب وهم رعاة وأصحاب ماشية .

والقسم الشمالي من الدنكا يزرع الذرة واللوبيا والفول السوداني والسمسم والتبغ . أما القسم الجنوبي فلديه ثروة حيوانية هائلة تتركز في قطعان لا حصر لها ولا عدد بسبب كثرتها من ناحية، وانتشارها في الغابات والأراضي المسطحة الواسعة من ناحية أخرى وتعتبر الماشية وجلودها من صادرات هذا الإقليم الهامة إلى الخارج .

وأغلبية الدنكا تعتنق الوثنية، وهناك أعداد لا بأس بها تدين بالإسلام الذى اعتنقوه عن عقيدة واقتناع . كما أن البعض يدين بالمسيحية نتيجة لنشاط البعثات التبشيرية فى الجنوب . وهم شديد والمحافظة على تقاليدهم العريقة التى حاول الاستعمار أن يغيرها ليحطم قوة إجماعهم ويفتت أعدادهم الضخمة ولكن بلا جدوى .

وتعتبر الدنكا من أشد المتحمسين المتعاطفين لإخوانهم فى السودان الشمالى . وهم على مدى تاريخهم الطويل قد أبدوا من الشعور الطيب والمشاركة القلبية ما يؤكد حقيقة هذه العلاقات التى يعتزون بتوثيقها على الدوام برغم محاولات بث الوقيعة والدس وبذر الشقاق التى حاول الاستعمار وأذنابه أن يوقعوا بينهم وبين إخوانهم . . ولكنهم كانوا يقظين لهذه المحاولات التى باءت كلها بالفشل . والدنكا بصفة عامة من العناصر الوطنية المخلصة المتحمسة فى جنوب السودان لبوا على الدوام نداء الواجب فى كل انتفاضة قامت فى الشمال . وشاركوا

بإيجابية فى إعلان سخطهم على وجود المستعمر . والتاريخ الحديث والمعاصر حافل بصفحات ناصعة من كفاح الدنكا ضد قوات الاحتلال منذ اليوم الأول لاغتصابها أرض الجنوب بعد أن تم لهم احتلال مصر . ومحاولاتهم تصفية الثورة المهدية لاحتلال السودان .

ففى عام ١٨٨٣ قام الدنكا بثورتهم المعروفة ضد الإنجليز مساندين الثورة التى انطلقت فى الشمال لتخليص البلاد منهم . وكانت هذه المحاولة الأولى واتبعها محاولات متعددة إلى أن زال الوجود الاستعمارى من السودان بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر . . وإصرارها على خروج الإنجليز من السودان وترك الحرية لشعبه لتقرير مصيره .

وكان الدنكا من أشد الجماعات التى قاومت أعمال الكنائس والإرساليات التى أرادت العبث بمستقبل الجنوب مستغلة اسم الدين . ولم تنجح هذه البعثات فى مهمتها فى إقليم الدنكا على النحو الذى كان مقرراً لها فقد فطن شعب الدنكا بفضل وعيه وإدراكه لكافة المحاولات الاستعمارية سواء الذى اتخذ اسم السياسة أو الدين .

* * *

٢ — قبيلة الشلوك :

وثانى قبائل جنوب السودان من ناحية العدد ومساحة الأرض التى يعيشون عليها هم أفراد قبيلة الشلوك . ويبلغ تعدادهم مايقرب من نصف مليون نسمة يستوطنون منطقة خصبة صالحة للزراعة يبلغ طولها حوالى ٢٥٠ كيلومتراً تمتد على الضفة الغربية من النيل الأبيض من منطقة بحيرة نو إلى الشمال حتى مدينة الجبلين على خط عرض ١٢°. كذلك فإن بعضهم يعيش فى منطقة أقل طولا فى

شرق النيل الأبيض . وهى من ملكال إلى السوباط لمسافة مائة وخمسين كيلو متراً .

والشلوك أكثر القبائل الجنوبية اختلاطاً بالعرب سكان السودان الشمالى .. وهذا يرجع إلى موقعهم المتوسط بين شمال السودان وجنوبه . وهذا الموقع جعلهم على صلة بالعرب فتأثروا بالدين الإسلامى واعتنقه عدد كبير منهم كما دخلت عليهم بعض العادات والتقاليد العربية . وهذا ما حاربه الاستعمار طوال فترة وجوده فى السودان ليحول دون الإتصال بين أبناء الوطن الواحد . ومع ذلك استمرت الصلات شديدة قوية بين أفراد قبيلة الشلوك وبين إخوانهم أبناء الشمال .

وأشهر المدن الواقعة فى إقليم الشلوك هى ملكال عاصمة مديرية أعالى النيل وكودوك عاصمة قبيلة الشلوك حيث اتخذها زعيمهم المعروف باسم الملك أو الرث مقراً له .

وتعتبر الماشية أهم عنصر فى الحياة الاقتصادية عند الشلوك . والماشية هنا تعنى البقر . وهذه الماشية هى مثار اهتمامهم الأول ؛ وذلك إلى جانب اهتمامات أخرى تأثروا بها عقب اختلاطهم بإخوانهم فى الشمال .. وعلى رأسها الزراعة التى أصبحت الحرفة الرئيسية الأخرى التى تمثل فى أهميتها حرفة رعى الماشية واقتنائها وهذا التحول تم بعد أن هجر الشلوك أوطانهم السابقة فى حوض بحر الغزال وانتقلوا إلى أوطانهم الحالية على ضفاف النيل الأبيض بقيادة زعيمهم نيا كنج واتصلوا بعرب الشمال، وكانوا وقتئذ رعاة وليست لهم حرفة أخرى وبدأت الزراعة تغزو أقاليمهم ولكنها كانت فى أول أمرها حرفة تدخل فى أعمال النساء ولا يألفها الرجال .

واستمر مجتمع الرعاة عند الشلوك إلى عهد قريب أحس فيه أفراد القبيلة بالأخطار التى تهدد حياتهم نتيجة للأمراض التى تفتك بأعداد كبيرة من الماشية كل عام وبالتالى نقص الثروة المترتبة عليها . ولهذا كان اهتمامهم بالزراعة لتعوضهم بعض الخسائر ولتكون بديلا فى القوت والغذاء . وبدأوا يزرعون بعض المحاصيل والخضروات ومن أهمها الذرة الرفيعة والأرز والسمسم واللوبيا وبعض أنواع التبغ . وأصبح لهذه المحاصيل قيمة كبيرة فى المجتمع الشلكاوى.

وينقسم المجتمع الشلكاوى إلى أربعة أقسام رئيسية تمثل شكلا هرميا .. قمته الزعيم أو الرث .. وقاعدته الشعب . والقسم الأول الذى يمثل قمة المجتمع يتكون من الرث الحالى وعائلته وعائلات من سبقوه من الزعماء وهؤلاء جميعاً يقيمون فى عاصمة زعامتهم وهى مدينة كودرك . والقسم الثانى يتكون من الأشخاص الذين كانوا فى يوم من الأيام من الأسرة الحاكمة ثم حرموا لسبب أو لآخر من حق العضوية وهؤلاء لهم أوضاعهم الوظيفية فى ممارسة بعض الطقوس والعادات والقسم الثالث يتكون من حاشية الرث واتباعه وهؤلاء تركوا عشائرهم وأصبحوا عشيرة حاشية الرث ، والقسم الرابع والأخير هو قاعدة الهرم من أفراد القبيلة .

وهذا التقسيم لا يعنى أن المجتمع الشلكاوى فيه خاصة وعامة ، فالكل فى النهاية له واجباته واختصاصاته التى يتحتم عليها ممارسته حتى تسير العجلة وتنتظم الأمور وكل فرد لا يدخر وسعا فى أداء واجبه على خير وجه .

والشلكاوى شديد الاعتداد بنفسه حريص على الاعتزاز بكرامته حتى لقد وصفه بعض علماء الأجناس بأن من طبائعه الأنفة والكبرياء، ولكن الأمر فى حقيقته لا يعدو كونه التمسك الشديد بالكرامة والحرص البالغ على حفظها من أية مؤثرات .

وشعب الشلوك شعب مرح . يعشق الفن ، وحول حلقات الرقص يقضى أفراده أوقاتاً كبيرة من حياتهم وخاصة فى الليالى المقمرة ، حيث يتسامرون بالغناء وعزف الموسيقى والإنشاد والرقص ، وحيث تقام حفلات الزواج وغيرها من المراسم التى تعودت القبيلة على إحيائها .

* * *

٣ — قبيلة النوير :

النوير هم ثالثة قبائل جنوب السودان من ناحية العدد إذ يبلغون ما يقرب من ربع مليون مواطن يسكنون فى مساحة تقدر بثلاثين ألف ميل مربع . . ويقع أغلبها فى إقليم المستنقعات على ضفتى النيل الأبيض ويمتدون شرقاً إلى حدود الحبشة وغربا إلى كردفان . وهم يتحدثون بلهجة النوير التى يقال فى أسطورة قديمة أن أصلها وأصل لهجة الدنكا واحد . والذين يستندون إلى هذه الحقيقة يعرفون أن ٦٠٪ من النوير من أصول أخرى وذلك بسبب تقاليد الزواج عندهم ، فهم لا يتزوجون الأقارب ، ولا من الحلة أو القرية الواحدة ، بل يعمدون إلى مصاهرة قبائل أخرى وهى فى الغالب الشلك والدنكا .

وقبيلة النوير تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، الشرقى والغربى ، وكل من هذين القسمين يتفرع بدوره إلى أقسام أخرى صغيرة ، يعيشون فى قرى متقاربة فى القسم الشرقى لا يكاد يفصل بين بعضها بعضا مئات الأمتار ، بينما فى القسم الغربى تتناثر قراهم على مسافات بعيدة تصل إلى أكثر من خمسة وعشرين ميلا فى بعض الأحيان .

وطبيعة بلاد النوير صعبة قاسية ، ففى أيام الصيف أو الجفاف تصبح الأرض قاحلة وتكثر فيها الشقوق والأخاديد التى يتعذر معها الاتصال أو التنقل بحثا عن موارد المياه . وفى الخريف تهطل الأمطار بغزارة مكونة المستنقعات ومساحات

واسعة يغطيها الطين ، الأمر الذى يتعذر معه أيضاً الاتصال بين أجزاء هذا الاقليم . وعلى هذا يجتهد النوير فى التكتل فى رقعة متصلة من الأرض حتى لا تحول الشقوق والفجوات أيام الصيف ، أو الأرض للزجة أيام الخريف دون اتصالهم بعضهم بعضا .

وطبيعة بلاد النوير وظروفها لا تمكن النويريين من ميشة الاستقرار فى مكان واحد . واستلزم هذا الوضع حياة الترحال للحفاظ على حياتهم وحياة مواشيهم ، وعلى هذا فهم ينتقلون فى فصل الصيف أو الجفاف إلى المرتفعات ، وفى الخريف إلى مـــوارد المياه وذلك سعياً وراء المكان المناسب لرعى ماشيتهم التى هى عماد حياتهم والمصدر الرئيسى لثروتهم ، والنوير يعتبرون أكثر الشعوب النيلية اقتناء للبقر بعد قبيلة الدنكا .

هذه الرحلات التى يقوم بها أفراد قبيـلة النوير فى أعداد كبيرة فى موسمى الصيف والخريف قد أثرت فى حياة النويرى، وأرهفت إحساسه، وجعلته يشعر بالحنين نحو مناطق بعينها فينظم فيها الشعر الشعبى ويغنى لأغانى الفولـكلورية المصحوبة بالإيقاع على الآلات الموسيقية المحلية . وإذا قدر لبعض المهتمين تسجيل هذه الأعمال فسوف يخرج منها بحصيلة طيبة من التراث الفنى فى مجالات الشعر الشعبى والأغانى التى تدور حول الذكريات عن أماكن بعينها ، أو ألوان من الطبيعة التى يعيشون فيها .

والنوير يعيشون حياة اجتماعية اشتراكية منذ الزمن القديم ، يشارك غنيهم فقيرهم ويعين قويهم ضعيفهم ، ويعطف كبيرهم على صغيرهم . وينطلقون فى جمـــاعات متقاربة فى سنها ليحيوا حياة متصلة ليل نهار يشتركون مع بعضهم بعضاً فى العمل والراحة والمأكل والتسلية. وبمرور الأيام تكون هذه الجماعة قد أصبحت جزءا واحدا ملتحما متعاطفا متعاونا .

والنوير يعتزون بكرامهم ويعتدون بها إلى أقصى الحدود لدرجة أن الكتاب الانجليز الذين سجلوا هـــذه الحقيقة عزوها إلى ميلهم للتمرد والمشاغبة . والنويرى كذلك حريص على حقوقه الشخصية والاجتماعية .. مقتنع بأنه كفرد فى المجتمع يجب أن تكون له حريته وكرامته. وله فى هذا المجال مواقف عديدة مع الاستعمار لم تلن فيها قناة ، ولم يضعف له مركز بل كان على الدوام فى مواقف البطولة حتى ولو كلفته حياته .

وشعب النوير شعب مثقف يعتز بلهجته التى يعتقد بأن أصلها عريق فى مجال الحضارة ولهذا النوير يسمون لهجتهم « لغة الناس » أى التى اشتق منها الناس لهجاتهم فيما بعد . وهم على وجه العموم يقدرون ويحترمون من يقدرهم ويحترمهم ولم يفهم الاستعمار البريطانى هذه الحقيقة . . . فلهذا صادف متاعب جمة إبان تحكمه فى هذه الجهات، وقاد ضد أهلها عددا من المذابح والغارات الانتقامية حتى يضعف روحهم المعنوية واعتدادهم بأنفسهم ؛ ولكن محاولاته هذه زادتهم إصراراً على مواقفهم وحقوقهم .

* * *

٤ — قبيلة الباريا:

تعتبر قبيلة الباريا من أشد المجموعات النيلية قوة وبأساً ، كما أنها من القبائل التى تعتز بعاداتها وتقاليدها ، مهما كانت هذه العادات والتقاليد . ولقد أقام بينهم الاستعمار البريطانى أكثر من خمسين عاما ؛ استغل خلالها فطرتهم وجعل منهم حقلا لتجاربه فى بذر الشقاق والفرقة بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب فى الوطن الواحد، كما شجعهم على الاحتفاظ بعادة قبيحة وهى المشى عراة ؛ لدرجة أن كبار الموظفين الانجليز الذين عملوا فى المديرية

الاستوائية كان يحلو لهم أن يمشوا هم الآخرون عراة ليثبتوا للمواطنين أن هذه العادة ليست من المسائل التى تدعو إلى الاستنكار .

والمنطقة التى يعيش فيها الباريا تقع على الضفة الشرقية لبحر الجبل بجوار جوبا عاصمة المديرية الاستوائية لمسافة تبلغ حوالى سبعين كيلومترا . ومجموع أفراد القبيلة ليس كبيرا بالقياس للدنكا والشلوك والنوير ، ولكن قوة الباريا تكمن فى قوة رجالها الذين يمتازون بالقامة الطويلة والصحة المتدفقة لدرجة أن بعضهم يقذف الحربة لأكثر من ستين مترا لتصيب مقتلا فى فريستها .

وتنقسم قبيلة الباريا إلى مجموعة من العشائر يتصدر كلا منها رئيس يتولى تنظيم أمورها وتدبير وسائل معيشتها سواء من ناحية تقسيم الأرض للزراعة أو الرعى . وغالبا ما يكون هذا الرئيس هو صانع المطر ، الذى يتم اختياره بعد نجاحه فى اجتياز تجربة لاسقاط المطر . وعليه أن يمارس بعض الطقوس التى تبدأ بأن يحضر قطعا من الحجارة الصفراء والبيضاء ويغسلها بالماء ثم يضعها على صخرة كبيرة ويدهنها بزيت السمسم ثم يذبح عندها عنزة سوداء ويبدأ فى أكل لحمها وهو يتمتم ببعض التعاويذ ، فإذا ما سقط المطر عقب هذه المراسم ثبت صانع المطر هذا فى وظيفة رئيس هذه العشيرة . وغالبا ما يسقط المطر لأن منطقة الباريا هى أغنى مناطق السودان المطيرة والتى يسقط مطرها حوالى عشرة أشهر فى السنة .

والحرفة الرئيسية لأفراد قبيلة الباريا هى رعى قطعان الماشية القليلة التى يملكونها وبعد ذلك يقومون بزراعة بعض المحاصيل القليلة وهى الذرة الرفيعة والسمسم . وبقية وقتهم يقضونه فى ممارسة الألعاب العنيفة والرقصات القوية على أنغام الطبول العالية . وهم يقيمون فى أكواخ على شاطىء النهر متباعدة متناثرة بعضها فى قلب الغابة .. ولا يهتمون بأمرها كثيراً .

وقد عاش الباريا أكثر من خمسين عاما فى ظل الاحتلال البريطانى عراة . لايجدون إلا التشجيع الكامل من الحكام الانجليز الذين كان فى استطاعتهم إلغاء هذا الوضع حرصا على آدميتهم ، ولكنهم بدلا من ذلك عمقوه فى نفوسهم . كما أنهم بذلوا جهودا جبارة مع مواطنى هذه القبيلة ليجعلوا منهم عناصر متمردة ، تكره الانتماء للوطن السودانى وتعادى إخوانهم من أبناء السودان الشمالى. وقد استجاب بعض ضعاف النفوس لهذا الإيعاز بينما وقف البعض الآخر ممن تلقوا قسطا من التعليم يحذر مواطنيه من مغبة التردى فى حبائل ومكائد الاستعمار .

والمرأة ليس لها مكان ملحوظ فى مجتمع الباريا ، فدورها فى الحياة العامة ضعيف لايتجاوز قيامها ببعض الأعباء المنزلية ، أما الرجل فهو كل شىء فى هذه القبيلة عليه تقوم العلاقات العائلية ، وبه تقوى شوكة العشيرة ويشتد بأسها .

* * *

٥ — قبيلة الزاندى :

شعب الزاندى من أكبر شعوب جنوب السودان عدداً إلا أن نسبة المستقرين منه فى داخل الوطن السودانى لاتتجاوز سدس تعداده الذى يبلغ أكثر من مليون وربع نسمة . يسكن منهم فى السودان الجنوبى نحو مائتى ألف مواطن ينتشرون فى المنطقة من طمبورا غربا إلى مريدى شرقا وعاصمة إقليمهم مدينة يامبيو . وحدود إقليم الزاندى تشترك مع جمهوريتى أفريقيا الوسطى والكونغو كينشاسا فى مسافة كبيرة .

ومناطق الزاندى من أكثر مناطق السودان الجنوبى مطرا ، فهو لايكاد ينقطع طول اليوم فيما عدا شهور الشتاء وهى أواخر ديسمبر ويناير وأوائل فبراير . ويشتهر إقليمهم بالتالى بأنه من أحسن مناطق الزراعة على المطر.

وتختلف تربة الإقليم من ناحية إلى أخرى . . فهى أحيانا طفلية سميكة تساعد على الاحتفاظ بالماء لمدة طويلة . وأحيانا رملية هشة يتسرب منها الماء . وهى فى مجموعها أرض خصبة ولكن الوعى الزراعى ضعيف . والمواطنون يتبعون طرقا بدائية فى زراعة أراضيهم رغم وجود مشروع الزاندى الزراعى الكبير فى إقليمهم . وكان نتيجة لهذه الطرق التى يتبعونها وخاصة حرق الحشائش ومتبقيات الزراعة فى الأرض سببه أن الأرض أصبحت قليلة الصلاحية للانتاج على النحو المطلوب .. مما ترتب عليه عدم استقرار المزارع فى أرض بعينها ولجوؤه إلى الزراعة المتنقلة كأسلوب لمعيشته وارتزاقه .

وشعب الزاندى مضطر إلى ممارسة الزراعة نظرا لأن الحرفة الأخرى البديلة لها والمنتشرة فى معظم مديريات الجنوب وهى رعى الماشية لا تصلح فى إقليمهم لانتشار فيه ذباب التسى تسى والتى تعد من ألد أعداء الماشية والذى يفتك بكل مايصادفه منها . وعلى هذا فشعب الزاندى مزارع بالضرورة . يزرع أنواعا متعددة من المحاصيل مثل الذرة الرفيعة والفول والسمسم والبطاطا والقصب والجوافة وبعض هذه المزروعات لا يوجد إلا فى إقليمهم .

ولما كانت الزراعة هى كل شيء تقريباً فى حياة الزاندى .. فإنه قد أصبح لها طقوس وعادات متوارثة منذ مئات السنين .. بحيث أصبح الفرد منهم يخضع فى حياته الزراعية لأمور ثلاثة ، أولها : سلطة رئيس القبيلة الذى يوزع الأرض وثانيها توجيه صانع المعجزات وهو الذى يشير باختيار قطعة دون سواها وذلك لوجود أرواح شريرة فى بعض الأراضى تؤثر على المحاصيل ، والأمر الثالث وهو الاعتقاد بالسحر إلى أبعد الحدود ولهم فى ذلك أساليب وقواعد تجلب الحظ وتبعد النحس إلى غير ذلك من المعتقدات .

وفى مجتمع الزاندى .. تشارك المرأة الرجل فى كافة الأعمال ماعدا الأعمال

الشاقة وعلى رأسها الامساك بالفأس ، فهذا أمر من اختصاص الرجل وحده ، بينما للمرأة نصيب كبير فى الأعمال المنزلية .

وقد اشتهرت مناطق الزاندى بنشاط كبير قامت به الإرساليات والمبشرون من رجال الدين المسيحى ، الذى لم يكن لهم من اهتمامات بأمر الدين بقدر ما كان لهم من اللون السياسى والطابع الاستعمارى الشىء الكثير . وقد عانت هذه المنطقة من وجود مراكز النشاط المريبة سنوات عديدة أقام خلالها هؤلاء الأدعياء مركز التبشير ودور التعليم لتنفث سمومها فى أبناء السودان الجنوبى ، وتلقنهم دروس الحقد والكراهية لإخوانهم أبناء السودان الشمالى ، وعلى مدى هذه السنوات استطاع الإنجليز أن يخلقوا أجيالا من الذين ضللتهم الدعاية الكاذبة ضد الشماليين . وكان هؤلاء العنصر الذى اعتمد عليه الاستعمار فى خلق جو التوتر بين أبناء الوطن الواحد وزرع بذور الكراهية ضد الشماليين على النحو الذى أسفرت عنه الحوادث التى امتدت طول السنين الماضية والاضطرابات التى أخذت مكانها فى هذا الجزء الهادى الوديع من الوطن السودانى .

* * *

٦ — النيام نيام :

فى ركن ناء سحيق فى أقصى جنوب غرب السودان فى حدوده مع الكونغو كينشاسا ومع أفريقيا الوسطى ، وبعد أن نترك إقليم الزاندى ، نجد المنطقة التى تسكن فيها جماعات النيام نيام والتى تصورها الخرافات على غير طبيعتها الوادعة الهادئة . حتى اسمها فقد شابه التشويه فأصبح فى الروايات سم « نم نم » وصوروا الشعب هناك بالتوحش والقسوة ، وهو ما لا يمت للحقيقة بصلة .

والطريق إلى جماعات النيام نيام يبدأ من جوبا عاصمة المديرية الاستوائية متجها نحو الغرب مارا بمناطق متعددة ، منها الغابات الضخمة والنهيرات المبعثرة

هنا وهناك والأرض التى يغلب عليها اللون الأحمر . . وهو لون النحاس الذى يملأ هذه المنطقة . وفى نهاية هذا الطريق الذى يبلغ أكثر من مائتى كيلو متر ، يستقر النيام نيام فى مساحة تقرب عن الخمسين ألف كيلو متر مربع.. يسكنها أفرادهذه القبيلةفى مساكن نظيفة يتساوى فى ذلك العامل والزعيم فكل يحرص على نظافة بيته .

والنيام نيام متوسطو القامة مستديرو الرأس فطس الأنوف ، ممتلئوا الوجه نحاسيو اللون . يستقبلك الفرد منهم وقد كسى البشر وجهه وعلت شفتيه ابتسامة عريضة دليل على الترحيب بالضيف ، وهذهعادة أهل النيام نيام التى اشتهروا بها منذ الزمن القديم .

والتفسيرات حول أصل جماعة النيام نيام تختلف ، فالبعض يقول أن أصولهم ترجع إلى قبيلة الباريا والبعض الآخر يقول أنهم جزء من قبيلة الزاندى وثالث يقول أنهم شعبمستقل بميزاتهوخواصه ، ولكنالمرجح أنهم جزء من قبيلة الزاندى استقر فى هذه المنطقة من السودان .

وشعب نيام نيام من أكثر شعوب السودان الجنوبى عناية بملابسهم ونظافة أجسامهم ... كما أنهم يتفننون فى تزيين أنفسهم بعقود من النباتات والحشائش المجدولة . . وفى بعض الأحيان من أسنان بعض الحيوانات ، كما أنهم يتحلون بالريش فى المناسبات والحفلات التى تكثر فى إقليمهم .

وهم أيضا على جانب كبير من المقدرة الفنية الذواقة . . ويتجلى ذوقهم الجميل فى صناعات الحفر على الخشب والسلال الجميلة والأوانى الخزفية الممتازة . وهم يقضون ساعات فراغهم فى مباشرة هذه الهوايات التى تدر تدر عليهم دخلا طيبا . .

والنيام نيام ميالون للزراعة ، شأنهم فى ذلك شأن الأصل وهو قبيلة

الزاندى. وأشهر زراعاتهم الشطة والكاسافا وهو نبات يطحن ويستخلص منه نوع من الدقيق الفاخر يصنعون منه الفطائر . كما أن أقليمهم حافل بأشجار الموز والباباظ والمانجو بكميات لا يمكن حصرها ، ومساكنهم تكون غالباً قريبة من المكان الذى يزرعون فيه . والسكن عبارة عن كوخ مستدير مصنوع من الطين والبوص وسقفه مخروطى وأمامه شرفة من نفس المادة. وقريب من هذا البيت توجد أكواخ أخرى لحفظ الحبوب روعى فى إقامتها أن تكون بعيدة عن الأرض بارتفاع مناسب حتى لا تتعرض للتلف من المياه والحشرات .

وكما أن البقر فى أعظم مناطق الجنوب هو مقياس الثروة عند الشخص، فإن السهام تعتبر مقياس الثراء عند النيام نيام حتى عهد قريب . فبالسهام يتزوج الشخص ويدفع المهر ويشترى السلع ويصرف أمور يومه. ومن التقاليد الغريبة التى كانت متبعة فى جماعات النيام نيام هو أن العريس كان يعمل عند آل العروس حتى يجمع المهر ويظل يدفع السهام طول حياته حتى ولو طلق زوجته أو ماتت يظل يدفع لأهلها . ولم يكن يعفيه من الدفع إلا كون زوجته عاقراً ، فى هذه الحالة تسقط عنه هذه القاعدة

هذه بعض الحقائق عن هذا الشعب الذى ظلمته الحكايات والأساطير، التى استغلت فرصة بعده النائى وعمله فى صمت لتقول عنه ماشاء لها أن تقول.. ولكنها تتنافى مع مايتميز به النيام نيام من صفات حضارية وحياة يومية يسودها العمل والإنتاج وتتميز بلمحات من الفن والجمال .

* * *

٧ — مجموعات أخرى من القبائل :

فى إقليم الجزيرة .. وجنوب خط عرض ١٢ ، توجد مجموعة من القبائل استوطنت جنوب الجزيرة منذ مئات السنين ، وتعتبر هذه القبائل حلقة من حلقات التدرج بين شمال السودان وجنوبه ، تلتقى فيها القبائل العربية بالقبائل

الجنوبية . وهذه القبائل هى المبان والبرن والبرتا والانجسنا . وأقسام من قبيلتى الشلوك والدنكا .

هذه القبائل تعيش فى منطقة يحدها من الشرق الحدود الحبشية ومن الشمال جماعات رفاعة الهوى ومن الغرب النيل الأبيض ومن الجنوب نهر السوباط . وفى هذه المساحة تمارس هذه القبائل أعمالها اليومية فى هدوء وسكينة . بعيدين عن ضوضاء المدن وجلبة المصانع . وقد أكدت الأبحاث التى أجريت عليهم فى الستينات من هذا القرن بأن طبيعة أقليمهم والهدوء الشديد الذى يتميز به وهو من أسباب طول عمرهم واحتفاظهم بحاسة السمع سليمة ١٠٠ ٪ إلى سن الشيخوخة حتى ليكادوا يسمعون دبيب النمل . وكان ضمن من قاموا بهذه الأبحاث العالم المصرى دكتور على المفتى عميد كلية طب جامعة عين شمس ؛ وكان نشاطه بين جماعات الأنجسنا والمبان .

وإلى جانب القبائل التى تعيش فى إقليم الجزيرة . فإن هناك مجموعات أخرى من القبائل الجنوبية تنتشر فى المديريات الثلاث الجنوبية . يعتبر أغلبها أقساماً فى القبائل الكبيرة التى سبق الحديث عنها . وهى الشلوك والدنكا والنوير والزاندى والباريا إلا أنها استقلت عنها منذ مدد بعيدة وأصبح لكل شخصيته المستقلة .

وأكبر هذه القبائل اللوتوكو ويسكنون المنطقة الواقعة شرقى بحر الجبل ويتميزون بقوة أجسامهم وحدة خلقهم . يعشقون الحرب والقتال ضد غيرهم ، فإن لم يجدوه حارب بعضهم البعض . وقد كان نتيجة هذا الالتحام المستمر أن فقدوا أعداداً كبيرة من أبنائهم . ويؤكد علماء الأجناس الذين درسوا هذه المناطق بأنه لولا الحروب المستمرة التى تعيشها هذه القبيلة لكانت أكبر وأقوى القبائل فى أفريقيا .

وقبيلة الجانق أحد أقسام الدنكا ، وهؤلاء يشبهون اللوتوكو فى أجسامهم وصفاتهم وهم يحبون الشغب فى شتى صوره

وقبيلة الفرتيت على الحدود بين بحر الغزال ودارفور ويقيمون فى إقليم حفرة النحاس ولهم فى محاولات الحرب والنزال باع طويل .

والمادى قبيلة قوية تعيش إلى جوار الباريا ولها كثير من صفاتها . وهناك مجموعة من القبائل الجنوبية تشتهر بطيب الخلق وجنوحيا إلى السلم وميولها الفنية حبها للعمل والإنتاج . ومنها قبيلة الجور التى تسكن بحر الغزال؛ وهم فرع من الشلك وشهرتهم الحفر على الخشب وصناعة التماثيل وطرق الحديد .

وقبيلة البانقو وهم يعدون من أرقى قبائل الجنوب وأرجحهم عقلا ويتميزون بالاستقرار وميولهم نحو الصناعة المحلية مستغلين مناجم الحديد الموجودة فى إقليمهم .

والقولو وهم امتداد للبانقو .

والمورو يعيشون على نهر ياى ويعشقون العلم وينشدون الثقافة . والشيرى فى أقصى بحر الغزال ، وقد اشتهروا بالنظافة والترتيب وحبهم للعمل وسعة صدرهم وقدرتهم على تحمل المشاق . وإقليمهم لا تسكنه إلا الضوارى ولهذا فهو خلو من الماشية ولا يربون سوى الدجاج الذى كثيراً ما تفترسه هذه الوحوش . وهؤلاء أتقنوا الحفر على الخشب .

* * *

هذه القبائل الجنوبية كانت مثار اهتمام عدد من الباحثين من أبناء وادى النيل وآخرين من الأجانب كتبوا عنها دراسات ومشاهدات . ولكن الملحوظ أن

الكتابات الأجنبية كانت غالبة وتتميز بعرضها المثير الذى كثيراً ما يتطاول على الحقيقة ويخرج على حدودها . ومن علماء وادى النيل الذين تناولوا قبائل الجنوب دكتور محمد عوض محمد ودكتور محمد محمود الصياد ودكتور على أحمد عيسى ودكتور محي الدين صابر . وكان هؤلاء رواداً فى هذا المجال وسيتبعهم بإذن الله أجيال أخرى تضيف جديداً إلى سجل المعرفة .

* * *

ثالثا : صفحات من المجتمع

أهم ما يميز المجتمع فى جنوب السودان ، هو ذلك التقارب الشديد بين تقاليد وعادات قبائله المختلفة والتى تكون صورة متكررة يمارسها كل منهم مع بعض الخصائص والتصرف فى تنفيذها . والذى أجمع عليه علماء الأجناس والرحالة الذين زاروا هذه المناطق هو الموضوعات الرئيسية التى تتخلل حياتهم كالزواج والرعى والصيد والزراعة والوفاة . كلها تمارس على نمط واحد فى مواسم وأوقات بعينها .

والملاحظة الأولى على المجتمع فى جنوب السودان هو ميوله الشديدة نحو الطرب والغناء والرقص . وأهل الجنوب يتفننون فى خلق المناسبات التى تمكنهم من مزاولة هذه الهواية المحببة إلى نفوسهم جميعا والتى يقيمونها فى الساحات القريبة من أماكن إقامتهم . ويشترك فيها أبناء المنطقة وبناتها . وفى الليالى القمرية تتعدد هذه الحلقات حتى لكاد يسمع دق الطبول وأصوات الموسيقى بصفة مستمرة طوال الليل حيث يتدافع الراقصون إلى حلبات الرقص ويشتد بهم الحماس كلما ارتفعت أصوات الآلات الموسيقية ودقات الطبول العنيفة . ويحمى وطيس الرقص حتى لا يستطيع الغريب أو الزائر أن يتتبعه لشدة سرعته .

وأبناء الجنوب يستعملون عدداً من الآلات الموسيقية التى تصنع محليا، بعضها من سن الفيل مثل الامباية وتستعمل فى الاحتفالات الرسمية والقرن ويصنع من قرن الوعل وله صوت عال قوى ثم النقارة والدلوكة والصفارة وعدد آخر من الآلات .

وإلى جانب ميول الجنوبيين للطرب والغناء واشتراكهم جميعا فى هذه

الظاهرة فانهم أيضاً يشتركون فى عادة وشم الجبهة كعلامة مميزة للقبيلة . والوشم عادة مايتم مرة كل أربع سنوات يتم فيها وشم الجيل الذى يبلغ سنا معينة . وهو يكون على شكل خطوط فوق الجبهة تصل مابين الأذنين وتختلف باختلاف القبائل . . وهناك أنواع أخرى من الوشم للتجميل أو لطرد الأرواح الشريرة ولغير ذلك من المعتقدات التى ستزول حتما بخروج المجتمع الجنوبى من الحدود الثقافية الضيقة التى يعيش فيها .

والمجتمع الجنوبى مجتمع اشتراكى لا يعيش فيه الفرد لنفسه ، بل يتم تكوين مراحله المختلفة فى السن على أساس المشاركة التامة بين أبناء الجيل الواحد فى كل شيء . ولهذا ينقسم المجتمع إلى درجات حسب السن ، فهناك مجتمع الصغار ومجتمع الصبية ثم الفتيان فالشباب فالرجال فالكهول فالشيوخ . ولكل طبقة وظيفتها فى الحياة ، وتؤديها مجتمعة . فوظيفة الصبيان جميعا فى القبيلة هى حلب البقر فى الصباح . . ومرحلة أخرى من العمر تخصص للصيد وثالثة للرعى ورابعة للزراعة وهكذا . وتعيش كل مجموعة مع بعضها البعض معيشة كاملة تشترك فى المأكل والتسلية وممارسة أنواع الرياضة وغير ذلك . هذه التربية المشتركة منذ الصغر والتى تستمر على مراحل الحياة جميعها . . جعلت المجتمع الجنوبى شديد الترابط عظيم التآخى لا يعرف أحد فيه معنى الوحدة أو العمل الفردى . فقد ولد فى الجماعة وعاش فيها واشترك فى كل مرحلة من مراحل عمرها منذ الطفولة وحتى الشيخوخة .

والمائدة فى قبائل الجنوب فرصة للحساب اليومى ، ففى المساء يلتقى رجال الحله فى الوجبة الرئيسية حيث يتسامرون فيما تم من أمور ، وما ينتظرهم من أعباء ثم يبدأون فى تناول العشاء الذى يتكون من الذرة كطعام رئيسى ومعه صيد اليوم من أسماك ولحوم . وأحيانا تطهى بعض الخضروات كاللوبيا أو الملوخية أو البامية فى آنية وقدور من الخزف والفخار

مصنوعة محليا وفى أشكال وصور جميلة ، ثم يضعونها فى أطباق خشبية .

وبنات الجنوب يعتنين عناية فائقة برشاقة أجسامهن بممارسة أنواع مختلفة من الرياضة واتباع نظم تغذية معينة قوامها لبن البقر الذى يكاد يكون غذاء رئيسيا فى كل الوجبات . وتصل البنت إلى سن الشيخوخة وما زال مظهرها يدل على أنها لم تتجاوز مرحلة الشباب .

وفى ذكر المجتمع فى جنوب السودان تقول أن أهم ملامح هذا المجتمع هو رعى الماشية . والماشية تعنى البقر الذى يشكل الثروة الرئيسية فى معظم القبائل . وهم يعنون به عناية شديدة ويخصصون لها أقوى شبان القبيلة ليتولى أمرها . ويبدأ الرعى من الصباح ويستمر حتى غروب الشمس لتعود الماشية إلى حظائرها والجميع فى انتظارها . فهى أملهم فى الحياة ، فبالبقر يتم دفع المهر والزواج .. وبه يكون الشراء والبيع .. وعلى أساسه تقدر ثروة كل شخص ومكانته فى المجتمع .

* * *

١ — لهجات الجنوب :

وصف علماء اللغات واللهجات الذين بحثوا موضوع لهجات الجنوب . وصفوا أصولها وأسسها بأنها تدخل جميعا فى مجموعة لغات تنتمى إلى أسرة واحدة وهى اللغات النيلية أو المجموعة النيلية . ويتكلم حاليا بهذه اللغات القبائل التى تعيش على النيل أو بالقرب منه ومن روافده فيما بين خطى عرض ٦ و١٢ شمالا .

واللغات النيلية بمثابة لهجات . . تختص كل قبيلة كبيرة بواحدة منها . لهجة الدنكا ولهجة الشلوك ولهجة النوير ولهجة الزاندى ولهجة الباريا إلى غير ذلك من باقى اللهجات التى تتحدث بها قبائل أخرى متفرقة أقل عددا

من المجموعات السابقة . ورغم أن هذه اللهجات كلها تنتمى إلى مجموعة واحدة إلا أنه من الصعب أحيانا على رجل من قبيلة الدنكا أن يفهم بسرعة حوارا يدور بين أشخاص يتحدثون بلهجة الشلوك . ولكنه بالطبع يستطيع أن يتتبع الحديث فى غير مشقة ؛ شأنه فى ذلك شأن شخص يتحدث اللغة العربية بلهجة أهل المغرب وآخر يتحدث بها فى لهجة أهل مصر . فكلاهما يتتبع الآخر رغم ما يتخلل كل منهما من اصطلاحات وكلمات خاصة بكل منهما . ولا بد من التعود على اللهجة ودراستها لو أمكن ؛ حتى يستطيع الفرد أن يجيد الحديث بها وتفهم كل معانيها وكلماتها .

ورغم هذا الاختلاف السطحى بين لهجات الجنوب المتعددة : فان حقيقة كونها لغة واحدة فى أصولها ونشأتها لا يؤثر هذا الاختلاف على صحة هذا الأمر .. وهى أن جميع لهجات الجنوب تنتمى إلى أصل واحد وبعض علماء اللغات أكد أن مابين هذه اللهجات من القرابة أكثر مابين اللغات الاسبانية والايطالية والفرنسية ذات الأصل اللاتينى الواحد وعلى قرب ما بينهم من تشابه .

وإذا أردنا أن نقرر أى لهجات الجنوب أكثر انتشارا وأعم استعمالا .. نقول إن لهجة الدنكا هى أوسعهم انتشارا وذلك راجع لسهولتها من جهة وكثرة تداولها من جهة أخرى . كما أنها هى اللهجة التى يعرفها أو يتخاطب بها عدد كبير من أبناء القبائل فى جنوب السودان .

وهذا الأمر الذى نراه فى السودان من وجود لهجات محلية متعددة إلى جانب اللغة الأولى فى البلاد وهى اللغة العربية يوجد شبيه له فى عدد من دول العالم الكبرى . ففى فرنسا مثلا يوجد ، إلى جانب اللغة الفرنسية التى يتحدث بها الشعب هناك؛ لهجات أخرى يتحدث بها بعض المواطنين الفرنسيين

فى مناطق الألزاس واللورين ، ولا تمت للفرنسية بأية صلة . وعلى هذا فان ظاهرة وجود لهجات محلية فى جنوب السودان بعيدة عن اللغة الأصلية لا ينتقص من وحدة الدولة واتصال أجزائها . وجماعاتها ولا يعنى أن الجنوب الذى يتحدث بهذه اللهجات جزء آخر يختلف عن الشمال الذى يتحدث العربية فالكل يجمعه رابطة النيل الواحد والوطن الواحد . وإن الذين حاولوا أن ينتهزوا فرصة التباين فى اللغات ليعمقوا الهوة بين أهل الشمال وأهل الجنوب قد غاب عنهم . أن هذا الذى يوجد فى السودان يوجد مثيل له فى أنحاء متعددة من الدنيا . فلم نسمع يوما عن أجزاء من فرنسا انفصلت عنها لأن لها لهجاتها أو لغاتها الخاصة . وكذلك الأمر فى المملكة المتحدة « وألمانيا » وغيرها .

وإن تعدد اللهجات فى جنوب السودان لا يعنى عدم وجود مجال للتحدث باللغة العربية فى هذه المناطق . فانه على الرغم من ظاهرة التعدد هذه فانه توجد جماعات كثيرة تتقن اللغة العربية إلى جانب لهجتها الأساسية . وقد وصلت مؤثرات اللغة العربية إلى جنوب السودان منذ مئات السنين .. حين بدأ التجار العرب يطرقون هذه الجهات ويؤسسون مراكز لتجارتهم؛ هذا فضلا عن الاتصال بين قبائل الجنوب وخاصة الشلوك الذين يقطنون فى وسط المجموعات العربية منذ أزمان بعيدة .

وقد حاول الاستعمار البريطانى أن يستبدل اللغة العربية بين أهل الجنوب باللغة الانجليزية فشجع قيام المدارس التى ألحقت بالكنائس التبشرية لتعليم هذه اللغة وتعميمها لتكون لغة ثانية موحدة فى المديريات الجنوبية الثلاث، وعمل جاهدا أكثر من خمسين عاما حتى تحصر اللغة العربية فى أضيق الحدود . وفى نفس الوقت الذى شجع فيه مدارس الإرساليات حارب المدارس الوطنية ومشاريع انشائها فى الجنوب ولم يسمح إلا بعدد قليل لا يغنى ولا يسمن من جوع .

ومع كل هذه المحاولات ، الظاهرة منها والمستترة ، فإن اللغة العربية ظلت قوية وتضاعف عدد الذين يتحدثون بها أيام الاستعمار، وزاد عددهم بعد ذلك منذ بداية العهد الوطني . ولا تزال الزيادة في تقدم واضطراد ؛ حتى أصبحت نسبة كبيرة من أبناء الجنوب تتحدث اليوم بها ، ومنهم أعداد لا بأس بها تكتب وتتخاطب باللغة العربية في طلاقة تامة .

* * *

٢ — الوثنية :

من الأمور الجديرة بالتسجيل بالنسبة لشعوب جنوب السودان ، والتي تستحق التقـــدير . . اعتقادهم في الله العظيم القادر الذي لا تراه عين . وهم يطلقون عليه أسماء تختلف من قبيلة إلى أخرى فهو جوك عند الشلوك . . وهو الذي خلق الأرض والسماء ويرسل المطر والصواعق والسحاب . . كما يرسل الويل والعذاب . . إذا شاء ومتى شاء . وهو جبار شديد البطش .. يثير في القلوب الرهبة والخوف . ولشدة إكبار الجنوبيين له وخوفهم منه فإنهم قلما يجرؤون على أن يخاطبوه مباشرة ؛ أو أن يتقدموا اليه بالدعوات والصلوات . أنه في نظرهم أجل من أن يقفوا هم بين يديه ؛ ولذلك لا بد لهم أن يبتغوا اليه الوسيلة في صورة من الصور .

وهذه الوسيلة تمثل العنصر الثاني الخطير في ديانة أهل الجنوب ، فهو الذي يلتمس منه أن يتوسط لدى الله العظيم لكي ينزل الخير بالناس ويرفع عنهم البلاء وهذا الوسيط هو حبيب الناس وناصرهم في الشدائد .

ولكل قبيلة من قبائل جنوب السودان زعيم روحي ، يرعاهم ويسهر على راحتهم ، ومن أجل ذلك تنصب له الهياكل في مختلف المراكز وتقدم له القرابين . وغالبا ما يكون الزعيم الروحي لكل قبيلة هو رئيسها في نفس

الوقت ، فنى قبيلة الشلوك مثلا . . يتولى الرث جميع شئون القيادة الروحية . والقيام بجميع الطقوس الدينية . وهو فى نفس الوقت قلما يتدخل فى شئون الحكم الصغيرة فى كل بلد من بلاد الشلوك . . فقـــد ترك هذه المهمة الرئيس المحلى الذى يفصل فى الأمور العادية ويقضى فيها .

وبعض قبائل الجنوب تعتقد أنه عندما تحل أرواح السماء فى رجل يصير نبيا ، ولكل روح من أرواح السماء اختصاص تقف عنده . فهذه تختص بالحرب ؛ وتلك بالأمراض وثالثة بالبرق والرعد . وقد ادعى النبوة بين القبائل أعداد من الناس على فترات التاريخ المختلفة . . وهؤلاء الأدعياء يخشاهم الأهالى ويحترمونهم إلى حدود التقدير . ولهم بالتالى نفوذ كبير فى السيطرة عليهم .

وأشهر من أدعى النبوة رجل من النوير اسمه وندنج . بدأ حياته عابدا ناسكا ثم ذاع صيته وسط القبائل نتيجة لبعض الكرامات التى نسبت اليه . وقد عظم شأنه عقب انتصار قاد لواوءه ضد الدنكا ، وقد طلب من شعب النوير أن يقيموا له هرما ليظل مدى الأيام رمزاً لهذا النصر الكبير . وقد تم تشييد هذا الهرم فى أواخر القرن الماضى فى منطقة لاو ويبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا وأحاط النوير حافته بسن الفيل . وظل قائما يزورونه ويقدمون له الهدايا إلى أن حطمته الإدارة البريطانية عام ١٩٢٩ عقب ثورة النوير على هذه الإدارة . وبذلك زال أثر هام يربط فكر النوير بالفراعنة على ما بينهما من آلاف السنين . وهو يرمز إلى تجاوب شعور أبناء جنوب السودان مع شعور قدماء المصريين عبر قرون التاريخ ونقلهم أحد معالم الطقوس الدينية عنـــدهم وهو بناء الاهرامات ليكون لها قدسيتها ومراسمها فى العبادة .

وأبناء جنوب السودان الذين يدينون بالوثنية يتغنون فى تأليف

القصائد وإنشاد الأغانى التى تمجد وسائلهم للتقرب من الإله العظيم القوى الجبار . وهـــذه الوسائل تتمثل فى مظاهر الطبيعة كالبرق والرعد والعواصف ؛ وفى بعض الحيوانات التى تدر الخير والبركة كالبقر وغير ذلك من الأشياء التى يعتقـدون فى قوتها وإمكانياتها فى تسيير حياتهم اليومية .

والكتابات التى تحدثت عن ديانة أبناء جنوب السودان الوثنية أظهرتهم بمظهر المتخلف الذى لا يفـكر . ولم تفطن إلى فلسـفتهم فى عباداتهم . والمعانى التى تـكمن فى هذه الفلسفة ، وهى الاقتناع الكامل بوجود الله رب هـــذا الكون العظيم الكبير : وخشيتهم من التطاول على قدسيته بمناداته أو عبادته مباشرة . ومن هنا كان تفـكيرهم فى اختيار وسيط يتمثل فى أحد مظاهر القوة على الأرض ليـكون سبيلهم إلى الله . وهم بهذا لا ينـكرون وجوده وإن كان تعبيرهم هـذا ينقصه التوجيه السليم والإرشاد إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الوساطة فى التقرب اليه . . وهذا واجب يجب تدبير أمر الدعوة اليه . حتى لا يكون هناك تفسير غير حقيقى فى عبادة الله عز وجل .

* * *

٣ — المسيحية :

دخلت المسيحية إلى شمـال السودان فى القرن الخامس الميلادى . واستطاع القائمون عليها أن يقيموا مملـكة فى القرن السادس ؛ عرفت بمملكة النوبة المسيحية ، والتى ظلت تنمو وتقوى إلى أن فتح العرب السودان . ومع هذا استمرت هذه الدولة حوالى ٧٠٠ سـنة تدفع الجزية للحكام المسلمين . . إلى أن زالت وقامت بدلا منها ممالك وسلطانات إسلامية نتيجة لانتشار الإسلام الهائل فى ربوع السودان .

ورغم قيام مملكة النوبة المسيحية لهذه الفترة الطويلة ، واستمرارها أكثر من سبعة قرون .. إلا أن جهـــدها فى نشر المسيحية فى جنوب السودان كان منعدما . وظل الجنوب على وثنيته اللهم إلا بعض النشاط الفردى الذى بذله الدعاة المسلمون وكان له أثره فى اعتناق عدد من أبناء الجنوب الإسلام . أما المسيحية فلم تشهد انطلاقا ونشاطا بين قبائل الجنوب إلا فى القرن المـاضى . . منذ أن بدأت العناصر الأجنبية تسيطر على مقاليـد الأمور فيه طوال السنوات التى سبقت الاحتلال البريطانى لوادى النيل .

وهذا العهد كان بداية لعهد جديد للمسيحية فى جنوب السودان تضافر على نشره وتوسيع رقعته المبشرون الأجانب ورجال الإدارة الانجليز . وبذل فى سبيل تحقيق هـذا الهدف الجهد المـادى والأدبى بلا حدود . وأنفقت الأموال الطائلة التى كان يدفعها الشعب السودانى من جهده وعرقه ليحولها رجال الإدارة الانجليز إلى مشروعات النهوض بالكنيسة فى الجنوب ونشر الدين المسيحى واللغة الانجليزية بين أبناء القبائل هناك . وكانت هذه الواجهة المزيفة للسياسة التى كانت ترمى أساساً إلى تنفيذ مخطط الاستعمار فى فصل جنوب السودان عن شماله .

وقد عرفت مراكز التبشير فى أنحاء جنوب السودان بالكنيسة . وكانت هـذه المراكز عبارة عن بناء يتكون من مسكن جميل شيد على الطراز الأوربى . وعلى بعد خطوات منه كنيسة بها قسمان الأول للعبادة والثـانى لتعليم اللغة الانجليزية . فقد كان أحد أهداف الاستعمار ورجال التبشير القضاء على الإسلام بين قبائل الجنوب وبالتالى القضاء على اللغة العربية . وكانت هذه المراكز تقام فى أماكن منفردة منعزلة عن القرى والأهـالى ممـا يؤكد الدور المريب الذى عهد اليها بتنفيذه .

وكان التبشير فى هـــذه المراكز يقوم على المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى . وهكذا رأى الاستعمار أن ينقل الخلاف المذهبى المسيحى من أوربا إلى منابع النيل ليرى أبناء الجنوب وقد اعتنق بعضهم المذهب الكاثوليكى وتحمس له . . بينما زميله يعتنق المذهب البروتستنتى ويدافع عنه .

ورغم الجهود الجبارة التى بذلتها هذه المراكز التبشيرية والأموال الضخمة التى أنفقت لأداء رسالتها والمساعدات الهائلة التى لقيها هؤلاء من الإدارة البريطانية التى كانت مسيطرة على السودان ، فإن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج إيجابية فى نشر المسيحية فى جنوب السودان . وأخفقت فى مهمتها الصورية كما فشلت فى مهمتها الحقيقية التى فطن اليها أحرار السودان فكانت حربهم الشعواء على مراكز التبشير ودور الكنيسة فى المجتمع السودانى والذى وصف به استعمار مقنع . . انكشف عنه القناع وافتضح أمره .

ومما يذكر أن بعض مراكز التبشير قد توفر له إمكانيات ضخمة رغم وجودها فى قلب الغابة حيث كانت للطائرات الخاصة تحمل اليه المهمات والعتاد والمال كما أن بعضها كان يوفر فى إقامة داخلية للمترددين عليه ويقدمون لهم الهدايا ويغدقون عليهم الأموال . . وكان المركز التبشيرى الأمريكى فى مركز الناصر ببلاد النوير يتفنن فى الإغراء لدرجة أنه اخترع طريقة يعلم بها النوير كتابة لهجتهم وكما هو معروف أنها لهجة للتفاهم لا للكتابة . واستعملوا كل وسائل الملاطفة والترغيب . وكان فشل هذه الكنيسة ذريعاً حينما أمرت مريديها بعدم الزواج بأكثر من واحدة كما ينص على ذلك الدين المسيحى . وانفض أبناء النوير عنها ليمارسوا حياتهم الاجتماعية بحرية كاملة وليتزوجوا ما طاب لهم من النساء .

وإذا كانت الدعوة للتبشير بالمسيحية فى جنوب السودان قد أحاطت

ظروف مريبة وأنها لم تكن لوجه الدين بقدر ما كانت لوجه المؤامرة على مصلحة الشعب السودانى فإن الله قد شاء بأن تفشل فى أداء دورها الظاهر منه والمستتر وانقلب تدبير المتآمرين على أعقابهم .

* * *

٤ — الإسلام :

منذ الفتح العربى للسودان فى القرن السابع الميلادى . : والإسلام واللغة العربية يشقان طريقهما فى جنوب الوادى . وعلى مدى سنوات عديدة انتصر الإسلام فى ربوع السودان واعتنقه أعداد كبيرة من أبنائه فى الوسط والشرق والغرب . وبدأت مؤثراته تشق طريقها إلى جنوب السودان على أيدى التجار العرب الذين وصلوا بتجارتهم إلى المناطق الاستوائية .

وكان أول من تأثر بالدعوة الإسلامية من أبناء الجنوب . . أفراد القبائل المتاخمة للقبائل العربية . فوجدنا أعداداً من الشلوك والدنكا يدخلون فى دين الله أفواجا ويتعلمون اللغة العربية ويستبدلون أسماءهم بأسماء عربية مسلمة .

والملاحظة الأولى عن إسلام أبناء جنوب السودان هى أنها لم تكن نتيجة لضغط أو إملاء . . كما أنه لم ينشأ عن الطرق الإجبارية ولا التبشيرية . بل لأن أبناء الجنوب استحسنوا الإسلام وأعجبتهم تعاليمه ؛ وصدق القائمين عليه . وكان منظر المسلمين وهم يؤدون صلاة الجماعة فى زيهم الأبيض وتكبيرهم وقيامهم وسجودهم من المناظر التى فتنت أبناء الجنوب فاعتنقوا هذا الدين عن اقتناع بسماحته وسهولته وطبيعته وتمشيه مع الفطرة الانسانية .

وعلى هذا النحو بدأ الإسلام يشق طريقه إلى جنوب السودان دون جهد منظم أو دعاية أو بذل . . . فقد كان سبيله الاتصال المباشر بين من

ينزل هذه الجهات من التجار العرب المسلمين أبناء السودان: وبين إخوانهم فى أقصى الجنوب من وادى النيل . وكان لقاؤهم وهم أبناء وطن واحد على شىء واحد أمراً طبيعياً خالياً من كل تكلف، فمن السهل على السودانى القادم من الشمال أن ينزل عند أخيه من أبناء الجنوب يتعلم لغته ويعلمه هو اللغة العربية

ووعم اعتناق عدد لا بأس به من أبناء الجنوب الإسلام فإنه لم تتم فى هذه الجهات سلطنة أو دولة إسلامية مثل تلك التى قامت فى سنار أو الفاشر أو جبال النوبا . ولم يسجل التاريخ قيام حكم إسلامى موحد فى جنوب السودان كما حدث فى سائر أنحائه اللهم إلا المملكة التى أسسها وحكمها الزبير رحمت الله العباسى فى بحر الغزال فى النصف الأخير من القرن الماضى.

وكان من الممكن أن يستمر الإسلام واللغة العربية فى الجنوب بهذه الصورة التى اتصفت بالبطء . ولم يكن هناك سبيل لتنشيطها نظراً لأن قوافل التجار كانت تبقى شهور الجفاف فقط فى أقاليم الجنوب . وهذه لا تتجاوز الأشهر الثلاثة ثم يرحلون بعدها إلى جهات أخرى مخلفين أثرا بسيطا بالنسبة للاتساع الهائل للجنوب ، ومن ثم لم يجد الإسلام واللغة العربية فرصة كبيرة للانتشار .

وفى القرن الماضى . . أضيف لهذا السبب أمر آخر أوقف انتشار الإسلام فى السودان الجنوبى وهو الاحتلال البريطانى لوادى النيل . فقد قامت به الإدارة البريطانية بمحاولات لفصل جنوب السودان عن شماله ، كان أهمها طرد أبناء الشمال من أقاليم الجنوب ، ومحاربة اللغة العربية والدين الإسلامى . وقد حرم المفتشون الانجليز على المسلمين صلاة الجماعة فى بلدان الجنوب ، هذا فى الوقت الذى شجعت فيه هذه الإدارة البعثات التبشيرية المسيحية القادمة من أوربا وأمريكا . ووضعت تحت تصرف الارساليات الامكانات والأموال الكثيرة لنشر المسيحية واللغة الانجليزية فكانت

هذه الإدارة تكيل بكيلين . مختلفين والعجيب فى هذا أن المال الذى كان يبذل لمساعدة المؤسسات الأجنبية كان يجى من سكان الشمال المسلمين ..

وقد بذلت جهود من وزارة الأوقاف المصرية أيام الحكم البريطانى لإنشاء مساجد وإيفاد مبعوثين من الأزهر إلى السودان الجنوبى . ورغم إصرار الإنجليز وعنادهم فى عدم السماح بمثل هذا العمل إلا أن الإرادة القوية أجبرتهم على الموافقة . ولعل من أهم معالم جوبا فى أقصى الجنوب هذا المسجد الجميل الذى تقف مئذنته شامخة تتحدى محاولات محو الإسلام من الجنوب وشيدتها وزارة الأوقاف فى الأربعينات من هذا القرن . . والذى قام فى جوبا عاصمة الاستوائية .. قام مثيل له فى مديريات الجنوب الثلاث . وقد أدت هذه المساجد دورا كبيرا فى خدمة رسالة الإسلام .

والحكومة السودانية تضع فى حسابها على الدوام دعم الإسلام فى الجنوب وتعويض السنين التى حورب فيها فى هذه الجهات على أيدى المبشرين من ناحية والإدارة الانجليزية من ناحية أخرى . وهذا الأسلوب فى تصحيح الأوضاع أمر جدير بالعناية والموالاة حتى يلحق الجنوب بركب الشمال فى إطار السودان المتحد .

. . .

٥ — الزواج :

أبناء جنوب السودان من أشد شعوب العالم محافظة على تقاليد الأسرة وبناء المجتمع .. وهم حريصون على التمسك بهذه التقاليد وتوارثها جيلا بعد جيل . ولولا هذا الحرص لما تكونت هذه القبائل الكبيرة والتى يبلغ تعداد بعضها أكثر من مليون نسمة يعيشون حياة الترابط والتضامن مهما كان البعد بين قراهم ومدنهم بعضها البعض .

ولعل الزواج أهم تقليد من تقاليد المجتمع الجنوبى .. وظاهرته الهامة التى استرعت انتباه علماء الأجناس والرحالة الذين زاروا جنوب السودان فكتبوا عنه كتابات متعددة . وقد صرفهم عنصر التشويق عن إبراز فلسفة موضوع الزواج عند الجنوبيين وما يصاحبه من عادات وتقاليد . وهى وإن اختلفت من قبيلة إلى أخرى من ناحية الشكل ، إلا أن المضمون ثابت وواضح وهو الحرص البالغ للحفاظ على المجتمع عن طريق ارتباط قائم بين الرجل والمرأة ينظمه العرف ويسير عليه المجتمع .

وأهم ما أبرزه الكتاب فى موضوع الزواج بين القبائل فى جنوب السودان هو أن الرجل يتزوج ماطاب له من النساء . . وأن بعضهم يرث زوجات أبيه ويتزوجهن فيما عدا أمه . وآخرون يقولون أن الجنوبى يهجر زوجته إذا حملت . . إلى غير ذلك مما ورد فى أغلب الكتب والذى يرضى فضول القراء ويشوقهم إلى تتبعها .

وإذا كان لنا أن نتناول موضوع الزواج فى جنوب السودان فإننا نبرز بعض الحقائق فى هذا الموضوع .

فعند قبيلة النوير ؛ توصل زعماؤهم منذ مئات السنين إلى أن زواج الأقارب يضعف النسل ولهذا يحرم النويرى زواج الأقارب من جهة الأم والأب ، ولا يتزوج الرجل من آقارب زوجته إلا إذا ماتت . وإذا رغب شاب فى الزواج ؛ فان أول شىء يفعله والده أو ولى أمره هو أن يفحص قرابة العروس من عائلة العريس .. فان لم يكن هناك قرابة تمت الخطبة ، ويدفع العريس المهر وعلى هذا الأساس دخل قبيلة النوير كثير من العناصر كالدنكا والشلوك والأنواك ، وتجددت دماؤهم باستمرار ولهذا تتميز أجسام النوير بالقوة وطول القامة وامتداد العمر .

وفى قبيلة الزاندى يتبع أفرادها فى زواجهم الطريقة المعروفة التى استنها سيدنا شعيب مع موسى عليه السلام حينما أراد أن يزوجه إحدى ابنتيه ، فاذا

أراد الشاب من قبيلة الزاندى الزواج فانه يذهب إلى والد الفتاة التى وقع عليها اختياره ويعمل عنده بعض الوقت . ويقدم خلال هذه الفترة التى يتراوح طولها من عائلة لأخرى ؛ عددا من السهام التى تستعمل فى الصيد ، ويستمر فى صنع السهام وتقديمها حتى يتم تجميع المهر ويستمر بعد الزواج فى تقديمه هـذه السهام دليلا على ارتباطه بعائلة زوجتـه حتى ولو ماتت أو طلقت ولا يشفع له عن الامتناع إلا كونها عاقرا .

ومجتمع الشلوك يتميز بأنه تعاونى فى موضوع الزواج . فالشاب الفقير الذى لا يملك مهرا .. وهو عدد من البقرات يقدمها لآل العروس ، يجمع له أخواته المهر الذى يمكن أن يتقدم به ليتم زفافه . ويلاحظ أن كل فرد عند الشلوك يدفع مهره بقرات حسب مركزه . فهناك من يدفع خمساً والبعض يدفع مائة . ورغم هذا التفاوت الكبير فان أحـدا فى المجتمع لا يتأثر فى كرامته أو إحساسه بهذا الأمر ، فكل يمضى فى طريقه حسب إمكانياته وظروفه .

وإذا أردنا تناول فلسفة وتقاليد كل قبيلة على حدة فى موضوع الزواج، فان هذا الموضوع يطول شرحه لاختلافه وتنوعه .. لـكن الشىء الوحيد الذى يتحدون فيه هو موضوع البقر المهر الذى يقدمه الشاب لآل العروس ويشترك فى هذا التقليد معظم قبائل جنوب السودان .

والزواج عند أبناء جنوب السـودان إلى جانب مايحتويه من معانى الحفاظ على المجتمع فانه مهرجان كبير للرقص والطرب .. وتعقد له الحلقات التى تستمر أياماً طويلة يحتفى خلالها زملاء العريس وإقرانه به ، كما تحتفل زميلات العروس بزفافها ، والـكل يسهم فى مظاهر الابتهاج بطريقته الخاصة التى تؤكد مدى حب أبناء الجنوب للمرح والسرور .

* * *

٦ — روح الجندية والقتال :

عرف أبناء جنوب السودان منذ الأزمنة السحيقة بجرأتهم وإقدامهم وعدم مبالاتهم بالموت وحسن استعدادهم لتلقى الأوامر وتنفيذها . وكل هذه المؤهلات جعلت منهم جنوداً أكفاء ومقاتلين أشداء . والروايات القديمة عن أبناء جنوب السودان وميولهم للجندية والقتال وصلتنا منذ عهود الفراعنة فقد ثبت أن الملك امنمحعت الأول اكتشف فيهم هذه الصفات وأوردها فى نقوش معابده كما وردت فى حصنى قنة وسمنة منذ أكثر من أربعة آلاف عام ، كذلك استعان بهم ملك النوبة يعنخى فى الأسرة الخامسة والعشرين فى حروبه . ووردت هذه الوقائع فى لوحات ونقوش تذكارية منذ تلك العهود . وورد فيها تقرير عن أبناء وادى النيل فى أقصى الجنوب يقول بأنهم أصلح البشر للجندية نتيجة لصفاتهم واستعدادهم الطبيعى .

وعلى مر العصور لم تتغير الصفات التى اكتسبها أبناء جنوب السودان والتى أكد المؤرخون بأنها صفات متوارثة تتلخص فى الشجاعة الفائقة البدنية العالية وعدم الرهبة أو الخوف من العدو مهما كان متفوقا فى سلاحه وعتاده ؛ والإقبال على الكر دون ترقب للنصر أو الهزيمة . وكثيرا مايدفعهم هذا إلى حب القتال وإظهار آيات الشجاعة والبطولة فى أكمل صورها .

والتاريخ الحديث يروى لنا وقائع مشرفة لأبناء جنوب السودان الذين ضمنهم الأورطة المصرية السودانية التى سافرت إلى المكسيك عام ١٨٦٣ لتؤيد حكم الامبراطور نابليون الثالث صديق خديو مصر السابق إسماعيل . وقد استمرت القوات السودانية المصرية قرابة الأعوام الأربعة أبدى خلالها رجالها ضروب الشجاعة والإقدام قدراها لا يصوره وصف ولمع من أبناء جنوب السودان عدد غير قليل نالوا الرتب والأوسمة لشجاعتهم وبطولتهم النادرة أمثال فرج

الزبى ومرجان الدناصورى وكوكو وحديد فرحات وكوكو آدم ومرسال عبد الله وغيرهم كثير . وهؤلاء وردت بيانات عنهم وعن الأدوار التى قاموا بها فى سجلات وزارة الحربية الفرنسية ووثائق دار المحفوظات التاريخية بالقاهرة .

وقد دخل عدد كبير من أبناء الجنوب صفوف الجيش المصرى ، وكانت منهم اورط بأكلها كالأورطة التاسعة مثلا ، وكان أمامهم فرص الترقى وحتى وصل بعضهم إلى رتبة فريق ، كما كان لبعضهم نصيب كبير فى قيادة العمليات الحربية مثل البكباشى (أى مقدم) على جفون الشلكاوى ؛ وكان ذلك فى أواخر القرن الماضى .

وفى القرن العشرين لمع عدد آخر من أبناء جنوب السودان فى صفوف الجيش وظلوا يواصلون عملهم فى قواته حتى قيام العهد الوطنى عام ١٩٥٤ .. والذى شهد اهتمام كبير بأبناء الجنوب بين رجال القوات المسلحة ودخلت أعداد كبيرة من أبناء الدنكا والشلوك والنوير وغيرها من القبائل الكلية الحربية وتخرجوا ضباطاً يعملون حالياً بالقوات المسلحة السودانية .

هذا بالنسبة للجندى النظامى من أبناء الجنوب ، وهذه لمحة عن ماضيه فى المجال العسكرى ؛ وحاضره فى صفوف القوات المسلحة السوانية والذى يلقى من المسئولين كل رعاية واهتمام . كما أنهم يفتحون السبيل أمام إخوانهم فى جنوب البلاد لنيل فرصتهم فى الترقى والوصول إلى المراكز الرئيسية .

أما أبناء الجنوب غير المجندين ؛ فهؤلاء أيضاً من ذوى الميول القتالية . ويتجلى هذا فى حياتهم اليومية ، فهم لا يخرجون من بيوتهم إلا وقد حملوا السلاح سواء فى السلم أو الحرب . وسلاحهم الحراب والرماح والسكاكين والقسى والدروع . وهم إذا احتفلوا بمناسبة معينة أو ابتهجوا بحدث ما ، كانت رقصة الحرب بطبولها المعروفة فى صدر هذا الاحتفال . وقد استغل

الاستعمار هذا الاتجاه الطبيعي فى حياة أبناء الجنوب فنجح فى تكوين عناصر منهم تناوىء الحكومة وتتمرد على أوامرها . وكان هذا بداية لمرحلة من القلاقل والاضطرابات شهدها السودان منذ قرر مصيره وحصل على الحكم الذاتى ؛ وتألفت فيه أول وزارة وطنية فى عام ١٩٥٤ . وما زالت هذه الاضطرابات تجد من يغذيها من العناصر الاستعمارية أو الضالعة معها منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم .

الفصل الثاني

الاستعمار وجنوب السودان

- سياسة فصل الجنوب
- الإدارة البريطانية الجنوب

اولا : سياسة فصل الجنوب

شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر فصول المهزلة التى دبرها الاستعمار الغربى لابتلاع أفريقيا ؛ وتقسيمها فيما بينه إلى مناطق نفوذ بالتراضى ودون قتال بقدر الإمكان . كما شهدت موائد المفاوضات والمؤتمرات فى لندن وباريس وجنيف وبرلين وفينا اجتماعات لهذه الدول الاستعمارية حول الطبق المفضل الذى حرص كل منهم على افتراس أكبر جزء منه .

ويمثل حوض النيل جزءاً هاما فى القارة الأفريقية يميزه فى ذلك وضعه الاستراتيجى وثروته وإمكانياته وحضارته القديمة العريقة . ومن الطبيعى أن يكون مطمعاً للطامعين الأوربيين الذين انتهزوا فرصة ضعفه السياسى الذى تسبب فيه خديو مصر السابق إسماعيل ليحدقوا به ولكن من نصيبهم بعد هذا الصراع الذى لم يستمر طويلا . لقد استطاعت بريطانيا أن تقنع زميلاتها الدول الاستعمارية بترك حوض النيل لها ؛ تتصرف فى مقدراته وتتحكم فى مستقبله .

وقد دخل النفوذ البريطانى إلى وادى النيل قبل أن تحتله قواته العسكرية وكان ذلك فى الوقت الذى جرف فيه الخديو إسماعيل البلاد إلى هاوية سحيقة حين أغرقها فى الديون وحكم فيها الأجنبى وجعلها ملاذاً للمغامرين والأفاقين الأجانب . وقد شهد السودان جزءاً رئيسياً من هذه المأساة ، وذلك حين أمر الخديو بتعيين عدد من المغامرين الأجانب فى أهم وظائف الإدارة . كذلك سمح لرحلات التجسس أن تجول فى السودان وتصول .. مرة بحجة الكشف عن منابع النيل وأخرى بدافع الكشف الجغرافى وثالثة للبحث عن المناجم والمعادن وغير ذلك من الأسباب التى كانت ترمى فى النهاية إلى السيطرة على السودان .. وخاصة الجزء الجنوبى منه والذى يعد مفتاحاً إلى القارة الأفريقية كلها .

بدأ النفوذ الأجنبي يتسلل إلى جنوب السودان منذ عين الخديو إسماعيل الجنرال بيكر ليكون حاكما على المديرية الاستوائية عام ١٨٦٤ وأجزل له الأجر وأغدق عليه الألقاب والرتب. ثم استجابته للإرادة البريطانية يوم عين غوردون خلفاً لبيكر . . وليصبح الحكم فى جنوب السودان يتوارثه الإنجليز منذ ذلك العهد . وكان غوردون هذا أول من جاهر بفصل جنوب السودان عن شماله فى مذكرة رسمية بعث بها إلى الخديو فى ذلك الحين .

كان عهد غوردون ومن قبله بيكر فى جنوب السودان عهداً جديداً ظاهرته اضطهاد العناصر الوطنية ؛ وخلق جو من التباعد بين المصريين والسودانيين ؛ وبين السودانى من أبناء الشمال وأخيه فى الجنوب . وكانت النغمة التى يرددها الاستعماريون آنذاك هى أنهم يعملون على إلغاء التجارة المقيتة التى أوجدها العرب فى جنوب السودان وهى تجارة الرقيق . ونسى هؤلاء بأن منشأ هذه التجارة كان على يد القراصنة الأجانب .. ورواجها كان على أيدى المستعمرين الأوربيين . ولكنهم تجاهلوا كل هذه الحقيقة وأرادوا إلصاق هذه الوصمة بالعرب حتى يخلقوا جواً من النفور بين السودانيين من أبناء القبائل فى جنــوب السودان وإخوانهم العرب فى الشمال .

وكانت هذه هى البذور الأولى التى غرسها الاستعمار قبل أن تحتل قواته العسكرية أرض النيل وكانت مقدمات سياسته تدل على أنه يتحين الفرصة العاجلة لتنفيذ هذا المخطط ، وشهد عام ١٨٨٢ الاحتلال العسكرى الإنجليزى لمصر : وتطلع هذا الاحتلال إلى الشطر الجنوبى من وادى النيل لكى يجهز عليه وتتم له السيطرة على الوادى جميعه .

وفى هذه الأثناء قامت الثورة المهدية فى السودان ، وكان من أهدافها تخليص وادى النيل من السيطرة الأجنبية . وانتقلت الثورة من نجاح إلى نجاح ؛ ومن نصر إلى

مصر حتى كان النصر الكبير لقوات المهدى عام ١٨٨٥ على قوات الحكومة بقيادة غوردون الذى كان انذاك حكمداراً على السودان . وقتل غوردون نفسه ليكون كبش فداء للسياسة الإنجليزية والاستعمار البريطانى .. وليبدأ عهد جديد فى هذه السياسة يرمى إلى احتلال السودان ولتصبح مصر والسودان بعد ذلك تحت طائلة النفوذ الاستعمارى ينفذ فيها السياسة التى يراها . وكان على رأسها فصل جنوب السودان عن وادى النيل وضمه المستعمرات البريطانية فى وسط أفريقيا وشرقها .

فى أعقاب الثورة المهدية :

كان أمل الإنجليز بعد احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ أن يحتلوا السودان على الفور ليجعلوا من وادى النيل بأجمعه نقطة لارتكازهم فى القارة الأفريقية لكن انتصار الثورة المهدية فى السودان وقضاء قواتها على القوات الحكومية فى الخرطوم وأم درمان عام ١٨٨٥ .. ومقتل حكمدار السودان غوردون على أيدى الدراويش .. هدد المصالح البريطانية التى بدأت تتطلع إلى المنطقة. ورأت أن انتصارات المهدى لابد أن تقف عند نهاية حاسمة .. ولابد من القضاء على هذه الثورة حتى لا تكون سبباً فى إفساد المخططات التى تم وضعها. وكانت غايتها السيطرة على وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، والتحكم فى موارده لتسد حاجة المصانع البريطانية وتدعم الاقتصاد البريطانى الذى وضع آماله فى الاستئثار بالمواد الأولية التى تصله من مناطق النفوذ بأجور زهيدة جداً .

ورأت الحكومة الإنجليزية أن انتصار قوات المهدى وإفساده لخططها فى السيطرة على وادى النيل يعنى فشلها أمام الدول الاستعمارية الأخرى التى تركت لها هذه المنطقة لتعبث بها . وكان الإنجليز يريدون مواجهة التحركات الألمانية داخل القارة واحتلال ألمانيا لعدد من مناطقها الغنية . أما فرنسا الخصم

الصديق للانجليز فإنها بدأت كذلك تتحرك فى غرب أفريقيا وتحتل عدداً من دولها .. وكان لها أطماع فى وادى النيل نفسه والدليل على ذلك الحادث المعروف فى التاريخ بحادثة فاشودة ؛ وهى مدينة فى مديرية أعالى النيل قدم إليها الجنرال الفرنسى مارشان على رأس قوات فرنسية أفريقية ورفع عليها علم فرنسا ، وروعت بريطانيا لهذا الحادث الذى انتهى لحسن حظها دون قتال بين الفريقين .

كان لابد للاستعمار البريطانى أن يقوم بعمل سريع حاسم على الثورة المهدية يرد به هيبة الإمبراطورية أمام الدول الاستعمارية الأخرى المنافسة لها . وتحقيقاً لهذا الغرض تحركت القوات البريطانية من مصر لغزو السودان بقيادة اللورد كتشنر ورأت السياسة البريطانية أن تشارك قوات مصرية فى هذه الحملة . وأرادت بذلك أن تحقق هدفين .. الأول أمام الدول فى العالم وهى أنها تفتح السودان لتعيده إلى المصريين أصحاب السلطة الشرعية فيه آنذاك .. وهى لهذا تشرك معها قوات مصرية .. والهدف الثانى هو خلق جو من التوتر والعداوة بين السودانيين والمصريين على أساس أن أبناء مصر قد قبلوا قتال إخوانهم السودانيين وهم فى صفوف الجيش الإنجليزى .

وحينما لجأ الاستعمار البريطانى إلى هذه الخطة ، خانه التوفيق فى اختيار وقتها فنى تلك السنين كان الوعى والنمو السياسى قد بلغ شأواً بعيداً بين أبناء مصر والسودان ففطنوا إلى ما هدفت إليه السياسة الاستعمارية . . فلم تحدث عملية اشتراك المصريين مع القوات الانجليزية فى غزو السودان أثرها الذى هدف إليه الاستعمار ، وخرج الشعبان من هذه المحنة وهما أصلب عوداً وأقوى قدرة على الكفاح ضد المستعمر .

دخلت القوات المشتركة اسماً الإنجليزية فعلا إلى السودان فى عام ١٨٩٨ .

وبدأعهدجديد رأت فيه بريطانياً أحكام السيطرة على السودان عامة والجزء الجنوبى منه خاصة . فقدفكرت كثيراً فى الأيام الأولى لسيطرتها على السودان فى فصل الجنوب عن جسم الوطن وجعله إقليما مستقلا تابعاً لها .

لقد أدركت بريطانيا أن احتلالها لوادى النيل لن يطول أمده .. وأن وعى أبنائه وماضيهم الحضارى العريق؛وانتفاضاتهم المتعددة ضد من احتل أراضيهم سوف يجعل استمرار الاحتلال الانجليزى أمراً مستحيلا.وهى لهذا أيضاً رأت أن تفصل جنوب السودان ليكون حاجزاً بين الانتفاضات الوطنية فى وادى النيل ومستعمراتها فى وسط شرق أفريقيا . ولعل هذا المخطط كان من الأسباب الرئيسية لغزو السودان والقضاء على المقاومة الوطنية عام ١٨٩٨ إلى حين .

* * *

الحكم الثنائى :

حينما استتب الأمر للانجليز فى وادى النيل عام ١٨٩٨ باحتلالهم السودان وكانوا قد احتلوا مصر من قبل .. أدخلوا على نظام الحكم نظاماً جديداً مارسوه فى حكمهم للسودان وهو الذى عرف بنظام الحكم الثنائى . لقد أرادوا أن يحكموا السودان عن طريق اسم مصر صاحبة السلطة الشرعية عليه آنذاك . ورأوا أن انفرادهم بحكمه قد يجر عليهم المشاكل .. ومن ثم اهتدوا إلى هذه الطريقة العجيبة التى استظلوا فيها باسم مصر ليمارسوا تحكمهم على السودان .

وكان استيلاء الإنجليز على مقاليد الأمور فى السودان يعنى مبادرتهم بتنفيذ سياستهم فى فصل جنوبه نهائياً عنه ؛ وجعله إقليما خاصاً لا صلة له بوادى النيل . غير أنهم أجلوا تنفيذ الفصل فى صورته الحادة ؛ ورأوا أن يكون الفصل على مراحل ذراً للرماد فى العيون .

ومرت الأعوام الأولى دون أن يحدثوا هذا التغيير الذى هدتهم إليه سياستهم وماضيهم العريق فى الاستعمار . لكن ما لبث أن بدأوا يتجهون إلى تنفيذ هذا المخطط وكان ذلك فى عام ١٩٠٢ حينما رأت الإدارة البريطانية التى تسيطر على السودان أن تدير شمال السودان وجنوبه كلا فى صورة منفصلة لا اتصال بينهما . واستعانت فى ذلك بما سبق واهتدى إليه غوردون وهو مدير الاستوائية بضرورة فصل النظم الإدارية فى جنوب السودان عنها فى شماله نظراً لأن الجنوب فى نظره يختلف تماماً عن الشمال . وتجاهل فى مشروعه المعروف أنها لا تعدو كونها خلافات سطحية لا دخل لها فى أن تكون سبباً فى فصل الوطن إلى قسمين . وكان الانجليز أنفسهم على يقين من ان هذه الحجج واهية . . فإن عدداً كبيراً من دول العالم يتكون من جنسيات ولغات وعادات لا صلة بينها وبين الأخرى ومع ذلك تجتمع كلها فى إطار الوطن الواحد

إن هذه الحقيقة أدركتها بريطانيا واعترفت بها فى غير السودان ؛ تجاهلتها فى السودان لغرض فى نفسها ، وبدأت تمارس فيه سياسة ، فرق تسد ، فيما بينه وبين مصر وفيما بين شماله وجنوبه .

ووضعت الإدارة البريطانية نظاماً لإدارة الجنوب يختلف عنه فى الشمال وهو ما عرف بنظام الحكم غير المباشر . وجعلته منطقة حراماً تفصل بين قسمى الوطن لا يتعداها أى من أبناء الجنوب ولا يتجاورها أحد من أبناء الشمال ، ورأت أن يكون الجنوب إقليما منفصلا فى كل شىء عن الشمال .

وتحقيقاً لهذا المبدأ ؛ بدأت الإدارة البريطانية اتجاهاً لمعاونة الإرساليات التبشيرية باعتبارها ظل الاستعمار ورسوله فى هذه المناطق ، حتى تلعب دورها فى هذه الخطة الانفصالية . . وشجعت الإدارة البريطانية هذه الإرساليات

بالأموال الضخمة والإمكانيات لبث الفرقة بين المواطنين ، كما أرغمت هذه الإدارة أبناء الجنوب على البعد عن كل مظهر يقربهم من إخوانهم فى الشمال، سواء فى المأكل أو الملبس أو العادات . كما أنها واصلت هذا الإرغام على كل ما هو عربى ؛ فحرمت على الجنوبيين استعمال اللغة العربية وأدخلت بدلا منها عن طريق الإرساليات اللغة الإنجليزية لتكون لغة التخاطب فى الجنوب ولغة التعليم كذلك . . كما أنها حرمت التسمية بأسماء عربية واستبدلتها بأسماء أجنبية .

وتمشياً مع سياسة البعد عن كل ما هو عربى ، ألغيت الأجازة الأسبوعية يوم الجمعة وأصبحت يوم الأحد ومنعت المسلمين من الصلاة جماعة بحجة احترام الشعور الدينى عند الجنوبيين الذين لا يدينون بالإسلام.

وقصارى القول . . بدأت السنوات الأولى للإدارة البريطانية فى السودان بوضع النواة التى تثمر الانفصال بين شقى الوطن فى النهاية وفى سبيل تحقيق هذا الهدف عاشت الإدارة البريطانية عمرها كله فى السودان وهى تسعى إلى تحقيقه . ولكن العناصر الوطنية كانت لها بالمرصاد مما أدى إلى فشل تلك الخطة فخرجت من السودان دون أن تحقق من أحلامها الاستعمارية شيئاً .

* * *

نظام الحكم غير المباشر :

بعد أن سيطر الإنجليز على السودان فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى . . رأوا أن يقيموا فى جنوبه نظاماً من الحكم يعتمدون فيه على زعماء القبائل ليديروا نيابة عنهم الأمور فيه بعد أن يتلقوا كافة التعليمات من المفتش الإنجليزى فى الإقليم . وهذا ما عرف بنظام الحكم غير المباشر . . وبمقتضاه حكم الإنجليز جنوب السودان عن طريق زعمائه ورؤسائه .

وأول من أقام هذا الطراز من الحكم المستعمر البريطانى المعروف كابتن لوجارد وكانت تجربته فى المناطق الإسلامية فى شمال نيجيريا حيث عهد إلى الشيوخ والزعماء الوطنيين بحكم أقاليمهم فى الظاهر ، وهم فى حقيقة الأمر ينفذون بدقة كل ما يأمر به السادة المستعمرون وكل مايضعونه من خطط ومشروعات . وهذا ما كان يريده المستعمر الإنجليزى . وهو السيطرة الحقيقية على الشعوب والمناطق من وراء ستار الحكام المحليين الذين يتلقون الرغبات وينفذون التعليمات .

ولم يكن نشر هذا الأسلوب من نظم الحكم فى جنوب السودان بالشىء الهين . بل صادف الإنجليز عقبات عديدة فى سبيل تنفيذه . ولم يتم لهم هذا الأمر فى صورة كاملة ، إلا بعد أن قضوا على روح المقاومة بين رجال القبائل الذين وقفوا ضدهم فى العشرينات من هذا القرن والتى اختتمت بإخمادهم لثورة النوير عام ١٩٣٠ . وكذلك ضغطهم المتزايد على مشايخ القبائل وزعماء العشائر ؛ ومحاولاتهم العديدة لإذلال كبريائهم وإخضاعهم للإرادة الاستعمارية بمختلف وسائل القهر والاستبداد وتمكنوا فى النهاية من خلق أشخاص يخشون بأسهم ويتقون شرهم ، وهؤلاء هم الذين أسندوا إليهم السلطة والإدارة الظاهرة لجنوب السودان .

وعن طريق الإدارة غير المباشرة ؛ غير الانجليز مفهوم الديموقراطية الفعلية بين قبائل جنوب السودان ، والذى كان يعتمد على الاستعانة بخبرة أهل الرأى وتجربة كبار السن فى تسيير أمور الناس . والذى كان يستمد منه زعماء القبائل مايوضح الرؤية أمامهم . وجاء الإنجليز ليلغوا هذا النظام . وليجعلوا إدارتهم هى القوة التى يستمد منها الزعماء قوتهم ونفوذهم ولم تعد للقبيلة ولا لذوى المكانة فيها أى أثر فى هذا المجال .

وعن طريق نظام الحكم غير المباشر الذى اتبعه الإنجليز فى حكم جنوب السودان ،

أصبح زعماء الجنوب أداة فى أيديهم ، وجهازاً يفهم الشعب ماتريده هذه الإدارة ، على عكس ماجرى العرف عليه ، وهو أن هؤلاء الزعماء كانوا دائماً المركز الذى يوصل آراء الشعب ومطالبه إلى الحكومة . هذا هو الوضع الصحيح الذى قلبه الإنجليز رأساً على عقب .

وكان طبيعياً والإدارة البريطانية هى المسيطر الحقيقى على مقاليد الأمور فى جنوب السودان أن تعطى لنفسها الحق فى تعيين الزعماء والمشايخ وفصلهم ؛ ليقضوا بذلك على ما كان متعارفاً عليه ، وهو أن نصيب هؤلاء الشيوخ والزعماء أمر يخص مواطنيهم الذين لهم هذا الحق وفق رغباتهم ومصالحهم .

ولم يقتصر أمر الضغوط التى فرضتها الإدارة البريطانية خلال تطبيقها نظام الحكم غير المباشر فى جنوب السودان عند هذه الحدود ، بل اتبعوا أسلوباً آخر مع زعماء ومشايخ القبائل ؛ وهو إخضاعهم لسلطان المفتش الإنجليزى أو من ينوب عنه . هذا الأسلوب اتبعوه أيضاً بالنسبة لكافة مستعمراتهم فى أفريقيا .. ليجعلوا للحاكم العام هيبة وهيلماناً لا يستطيع أحد أن يتطاول على وجوده .. فهو الذى يرأس هؤلاء المفتشين . . يعينهم ويعزلهم . وكان المفتش الإنجليزى أو الإله الأبيض يمعن فى التدخل فى صغار الأمور حتى لايترك للحكام فرصة للتصرف . كما كان يجيد لهجة الإقليم أو القبيلة التى تدخل فى نطاق إدارته ، وهذا الأسلوب مكنهم من السيطرة المطلقة على جنوب السودان مدى أربعة وخمسين عاما ، ولم يحسم هذا الأمر إلا بتوقيع اتفاقية السودان بين مصر وبريطانيا فى ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ والتى تقضى بمنح السودان حق تقرير المصير والحكم الذاتى ؛ ولتضع حداً للمهازل الاستعمارية التى كانت تجرى فى جزء عزيز من السودان ..والذى كان نظام الحكم غير المباشر أحد أسبابها .

* * *

قانون المناطق المقفلة :

لم يكن من المعقول والانجليز يهدفون إلى فصل جنوب السودان عن شماله، أن تظل هذه العملية قائمة على الصور المستترة غير الواضحة، والتى مارسوها أكثر من عشرين عاماً وأوضحنا طرفاً منها فيما سبق . . بل كان لا بد لهم أن يقوموا بعمل سافر يفضح حقيقة نواياهم وخاصة بعد خروجهم منتصرين من الحرب العظمى الأولى عام ١٩١٤ .

وكان مبدأ هذه السياسة السافرة لفصل جنوب السودان عن شماله المذكرة التى تقدمت بها الإدارة الانجليزية فى السودان للجنة ملنر عقب انتهاء تلك الحرب . وقد أوضح فيها ضرورة ابعاد السودان الجنوبى عن السودان الشمالى وعن أى أثر إسلامى حفاظاً على طبيعته ووجوده؛ وضمه للمستعمرات الانجليزية فى شرق أو وسط أفريقيا . وللأسف الشديد استجابت لجنة ملنر لمشروع الادارة البريطانية فى السودان وأوصت بما جاء فى مذكرتها فى شأن الفصل . وعلى هذا كان صدور قانون المناطق المقفلة فى عام ١٩٢٢ . وانتصر الانجليز فى جولتهم الأولى فى السودان ..وكانوا قد خرجوا منذ أعوام قليلة منتصرين على ألمانيا أكبر قوة عسكرية فى العالم فى ذلك الحين .

وينص قانون المناطق المقفلة التى أعلنته الادارة البريطانية فى السودان على ما يأتى : يحرم على غير السودانيين باستثناء موظفى الحكومة فى أثناء أدائهم للعمل والمسافرين العابرين يحرم عليهم الدخول إلى مناطق معينة أو التجارة فيها ما لم يكن لديهم ترخيص من وزارة الداخليـة أو محافظ المديرية المختصة . ويمنع السودانيون أيضا فى حالات معينة من الدخول إلى هذه المناطق للتجارة بها . والمناطق المعينة بهذا المرسوم هى الاستوائية ومديرية بحر الغزال ومديرية أعالى النيل وبعض مناطق أخرى مثل جبال النوبا وجنوبى مديرية النيل الأزرق .

ويلاحظ أن أغلب المناطق التى يشملها قانون المناطق المقفلة هذه تقع فى جنوب السودان ، كما وضع الانجليز فقرة تمنع أبناء السودان أنفسهم من دخول هذه المناطق إلا بتصريح . . يوضح فيه سبب الزيارة والمدة والجهة المقصودة وغير ذلك من البيانات التى تجعل دخول أى شخص ، حتى ولو كان سودانياً ، إلى الجنوب أمرا مستحيلا ..إلا إذا كانت الإدارة البريطانية لها رغبة فى ذلك .

وكان تفسير الادارة البريطانية لهذا القانون بأنه شرع لحماية أبناء الجنوب والشمال على السواء ، حتى لا يقع صدام بينهما . والذى يتتبع تاريخ السودان لا يجد أى نوع من هذا الصدام المزعوم فى يوم من الأيام ، بل إن الصدام بدأ حينما دخل الاستعمار أرض السودان ؛وكان طرفاه أبناء السودان من ناحية وهذا الدخيل من ناحية أخرى واشترك أبناء الشمال مع أبناء الجنوب فى الثورة على الانجليز عام ١٨٨٥ فى جنوب السودان ثم فى الحركة الوطنية الكبرى عام ١٩٢٤ .

وكان واضحا تماما أن قانون المناطق المقفلة هو محاولة استعمارية لتقسيم البلاد وتفتيت وحدتها الوطنية ، ومن هنا ثارت ثائرة الرأى العام السودانى عليه . واتخذت هذه الثورة صوراً شتى كان أبرزها استنكار مؤتمر الخريجين له ومقاومته لهذا القانون فى الأعوام من ١٩٤٠ وحتى ١٩٤٤ ثم فى المؤتمر الإدارى لممثلى كافة الأحزاب السودانية عام ١٩٤٧. وارتفعت أصوات السودانيين فى وجه المستعمر مطالبة بسحب هذا القانون. وظل الهجوم عليه قائما حتى عام ١٩٥٢ وفيه قامت ثورة ٢٣ يوليو وبدأت مرحلة جديدة فى قضية وادى النيل لتصحيح الأوضاع التى كانت عليها مصر والسودان أيام الاحتلال البريطانى .

* * *

ثورة ١٩٢٤ :

شهد السودان عام ١٩٢٤ حركة سياسية وعسكرية ضد الوجود الاستعمارى فى البلاد واعلانا عن تضامن شعب السودان مع شقيقه شعب مصر فى المطالبة بحقوق أبناء وادى النيل فى الحريه والاستقلال . وقد تولى زعامة هده الحركة عدد من أبناء جنوب السودان الشجعان الذين سجلوا صفحات من البطولة النادرة والضحية فى سبيل نصرة القضية الوطنية ، وتعاونوا مع اخوانهم المناضلين من أبناء السودان الشمالى فى اعلان سخطهم على الاستعمار مؤكدين بذلك حقيقة هامة وهى وحدة الوطن السودانى ، وانعدام الفوارق والفواصل التى حاول الانجليز خلقها ليجعلوا من الشعب الواحد شعبين والبلد قسمين

هذه الحركة السياسية العسكرية الهامة فى تاريخ السودان الحديث تولى زعامتها عدد من الوطنيين الأوفياء الدين ينحدرون من قبائل جنوب مسودان ، أمثال البطل على عبد اللطيف زعيم جمعية اللواء الأبيض ومن أبناء قبيلة الدنكا والبطل عبد الفضيل الماظ وكذلك الأبطال حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعبد الرحمن عبد الرضى وادريس عبد الحى ، وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكر شخصياتهم ، وما اسهموا به فى هذه الانتفاضة الكبرى التى تعدمهد لحرية أبناء وادى النيل فيما بعد .

وإذا كانت ثورة السودان عام ١٩٢٤ قدبدات قبل هذه السنة بأعوام إلا إن أمجد صفحاتها كانت فى أواخر تلك السنة، وفى شهر نوفمبر بالذات ، فنى ١٩ نوفمبر قتل فى القاهرة السردار لى ستاك. وأراد الاستعمار البريطانى أن يستغل حادثة قتله فى إخراج قوات الجيش المصرى من السودان. والقضاء على ما كان يسمى بالحكم الثنائى لينفردوا هم بالسيطرة على جنوب الوادى .

وصدرت أوامر القيادة البريطانيــة فى الخرطوم للقوات المصرية

المعسكره فى الخرطوم بجرى بأن تخلى ثكناتها وتستعد الرحيل إلى مصر تنفيذاً لأوامر وتعليمات الحكومة المصرية ، ورفضت القوات المصرية الانصياع لهذا الأمر ، وفى نفس الوقت استقبل الضباط والطلبة السودانيون والعسكريون هذا الإجراء بالتمرد والعصيان ، وأعلنوا تضامنهم مع القوات المصرية وقرروا القيام إلى معسكرات الجيش المصرى والانضمام لهم .

وكان الملازم عبد الفضيل الماظ يرأس قوة وضعها الانجليز لتحمى ظهرهم وهم يواجهون القوات المصرية ويسلطون عليها مدافعهم . ورأى الضابط السودانى الشجاع أن يخلى مواقعـــه لينضم إلى الجيش المصرى وليعرض قوات الانجليز التى كانت معتمدة عليه للخطر الشديد ، وسار فى شوارع الخرطوم على رأس قوته الصغيرة إلى مدرسة ضرب النار ليحصل منها على الذخيرة والسلاح . وهناك إنضم إليها حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وغيرهما حينما علموا بغايتهم فى محاربة الاستعمار والانضمام لصفوف الجيش الجيش المصرى . وانضم اليهم الجنود فى هذه المدرسة وانطلقوا جميعا إلى المستشفى العسكرى حيث عسكروا بها ، وأحدقت بهم القوات البريطانية لتقوم معركة قاسية قتل فيها عدد كبير من الانجليز . واستشهد عـــدد من المقاتلين السودانيين وعلى رأسهم الشهيد البطل عبد الفضيل الماظ .

وانتهت المعركة بانتصار الإنجليز وقتيا ؛ لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع بين الاستعمار وبين العناصر الوطنية المكافحة التى لم تيأس لهذه الهزيمة بل زادت من إصرارها وعنادها فى سبيل تحقيق مبادئها الوطنية وأهدافها التحررية .

وقد كانت الأحداث الوطنية الكبيرة التى قامت فى وادى النيل مصره وسودانه فى الفترة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٢٤ بمثابة ناقوس الخطر الذى نبه الوجود الاستعمارى إلى أن استمرار سيطرته لن تدوم ما دمت هناك مثل هذه الانتفاضات التحررية . وأن الخطر الذى تشكله فى ايقاظ الشعور

وإلهاب عواطف ومشاعر الشعب ضد الاستعمار سوف يؤدى عاجلا أو آجلا إلى انهيار مركزه على أيدى المكافحين المناضلين .

رأى الاستعمار البريطانى أن يمارس سياسة جديدة تحول دون قيام حركات وطنية فى المستقبل قد يكتب لإحداها النجاح فتكون القاضية على أحلامه فى هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم ؛ وهو بعد لم يهنأ بالاستقرار المنشود بها وعلى هذا كان قراره بطرد القوات المصرية من السودان وسحب الموظفين المصريين منه ليخلو الجو للادارة البريطانية ولتنفرد هى بحكم السودان ضاربة بموضوع الحكم الثنائى الذى ابتدعته عرض الحائط .

ورضخت مصر لقرار سحب قواتها من السودان ولم يحرك الشعب فى وادى النيل ساكنا آنذاك فقد كانت ظروف هزيمته أمام المستعمر فى ثورتى ١٩١٩ و ١٩٢٤ وما أعقبها من بطش وتشريد للعناصر الوطنية التى لاتزال قائمة . وأصبح السودان لقمة سائغة فى فم الأسد البريطانى ، كما أضحت مصر سواء بسواء .

ولم تمض أيام على انفراد الإدارة البريطانية بالحكم فى السودان ، حتى بدأت تنفذ مخططا جديدا يرمى إلى فصل جنوب السودان عن شماله ، وتفتيت وحدة البلاد باقتطاع ما يعادل ثلث مساحتها . وبذلت الإدارة البريطانية فى سبيل تحقيق هذا الإجراء التعسفى الجائر كل أسباب البطش والتلفيق وتزييف الإرادة والضغط على العناصر المعارضة . واستغلت سلاحا رخيصا لتحقيق عملها الإجرامى وهو وجود فوارق لا دخل للمواطنين السودانيين فى نشأتها وتكوينها لتكون ذريعة وحجة بأن جنوب السودان يختلف عن شماله ، ومن ثم يجب الفصل بينهما .

وكانت رغبة الإدارة البريطانية فى الاستئثار بجنوب السودان وعزله عن شماله هو خلق منطقة حرام بين البلاد الواقعة تحت النفوذ البريطانى فى شمال أفريقيا ممثلة فى مصر والسودان وبين المستعمرات الانجليزية فى وسط وشرق

القارة . . وبذلك تحول دون انتشار عدوى الحركات الوطنية، وانتفاضات التحرر التي تقوم في الشمال من أن تنتقل إلى هذه المناطق فيكون في هذا قضاء على الوجود الاستعماري .

وتمشيا مع سياسة إحاطة جنوب السودان بعزلة كاملة عن شماله ، قرر الاستعمار البريطاني أن يحوله إلى شخصية جديدة ، تدين له بالطاعة الكاملة، وينسى أي ارتباط يجمعه بالشمال . وكان أول شيء نشط في تعميقه هو استبدال الثقافة العربية الإسلامية التي كان لها المكان الأول في الجنوب بثقافة غربية مسيحية أوربية ، ووضع بذور التعصب الديني بين الجنوبيين والشماليين وإثارة النعرة القبلية بينهما .

واستكمالا لهذا الاجراء ، قررت الادارة البريطانيـــة في جنوب السودان نقل جميع الموظفي الشماليين ، سواء إداريين أو فنيين ، الذين يعملون في أقاليم الجنوب الثلاثة إلى جهات أخرى ، كما أصدرت أوامرها بعدم إعطاء تراخيص عمل للتجار من أبناء السودان الشمالي لممارسة عملهم في الجنوب كما عملت على ترحيل جميع المسلمين بلا استثناء لدرجة أنها أغلقت المحاكم الشرعية في المديريات الجنوبية .

وعلى هذا لم يكن الأمر إذن ثورة ١٩١٩ أو ثورة ١٩٢٤ أو حركة طلبة المدرسة الحربية السودانية أو مقتل السردار في القاهرة فقط ، بل إن كل هذه كانت حججاً وأسباباً تمسك الاستعمار بها لجعل منها مدخلا إلى أغراضه ونواياه المبيتة ، في فصل السودان عن مصر أولا ثم فصل جنوب السودان عن شماله ثانيا ،ويعقب هذا إقامة دولة خاضعة له تماما في مديريات الجنوب تكون ملكا خاصا وتتبع مستعمراتها الأفريقية مباشرة ولتتبع نظاما جديدا في حكم هذه المديريات يكفل لها البقاء فيها إلى الأبد .

* * *

ماذا بعد ١٩٢٤ ؟

وكانت أهم علامات الفترة التى أعقبت ثورة ١٩١٩ فى مصر و ١٩٢٤ فى السودان ذلك الالتحام الفكرى بين أبناء وادى النيل ، والذى تمثل فى الامتزاج الثقافى الذى أخذ مجاله فى إقبال أبناء السودان تلقى تعليمهم فى مصر : فى مدارسها وجامعاتها ، وإقبال أبناء الشعب السودانى على الكتب والمؤلفات المصرية لدرجة أن مدارس الكتاب المصريين انتشرت فى كل أنحاء السودان . فهذه مدرسة العقاد ، وتلك مدرسة طه حسين وثالثة للمازنى . . وهكذا .

وقد أزعجت هذه الثورة الثقافية السلطات الانجليزية التى حاولت عمل شىء بالنسبة لنظم التعليم فى السودان . ولكن محاولاتها لم تقف فى سبيل هذا السيل الجارف من تطلعات أبناء جنوب الوادى إلى الثقافة التى يرتوى منها أبناء مصر ، وكانت هذه الظاهرة العلامة المميزة للسيرة الوطنية حتى قيام الحرب العظمى الثانية عام ١٩٣٩ .

وعقب قيام هذه الحرب فكر المثقفون من أبناء السودان فى تشكيل مؤتمر يجمع شملهم أطلقوا عليه اسم مؤتمر الخريجين ، كان هدفه الأساسى استخلاص حقوق أبناء وادى النيل من الاستعمار البريطانى ، واستغلال فرصة الحرب لمطالبة الانجليز بحقوق بلادهم ، وتم تكوين مؤتمر الخريجين عام ١٩٤٠ .

وفى تلك السنة ، زار السودان رئيس وزراء مصر آنذاك المرحوم على ماهر يصحبه عدد من رجالاتها . وكان لقاؤه مع أعضاء المؤتمر الذين أطلعوه على وجهة نظر المثقفين السودانيين فى مستقبل البلاد ، حيث قدموا له مذكرة تاريخية حول بعض المطالب وكان للجنوب نصيب فيها حيث جاء فى المذكرة فيما يختص بجنوب السودان ما يأتى :

« إن من واجب مصر أن تخصهم بنصيب من العناية فتلفت نظر الجمعيات الخيرية والمعاهد الدينية المصرية للعمل فى الجنوب من حيث التبشير بالدين الإسلامى ونشر اللغة العربية حتى يتسنى للجزء الجنوبى أن يتمشى فى ثقافته مع الجزء الشمالى » .

وهكذا أكد أبناء شمال السودان حرصهم على مستقبل إخوانهم فى الجنوب ، ولم يتجاهلوا الأوضاع التى كانوا يعيشونها والتى فرضها عليهم الاستعمار البريطانى وأرادوا القيام بجهد فى سبيل تخليصهم من التخلف الظلام .

وفى ١٨ يونيو ١٩٤٧ عقد مؤتمر جوبا المعروف لبحث عدد من المسائل الهامة وكان على رأسها موضوع الوحدة بين الجنوب والشمال ، وقد بدت فى المؤتمر روح طيبة تؤكد ارتباط الطرفين وتعاونهما التام ، لدرجة أن أحد زعماء الشمال قال إن السودان أصبح دولة واحدة من جديد على أساس المباحثات التى جرت بين وفدى الشماليين والجنوبيين .. كما أن المباحثات وصفت بأنها عامل هام للوحدة بين الشمال والجنوب .

وفى أعقاب الحرب العظمى الثانية رأت الإدارة البريطانية أن تدعم وجودها فى السودان بإنشاء مجلس استشارى تعتمد عليه فى تسيير سياستها . وكان المجلس خاص بشمال السودان وحده ، أما الجنوب فلم يكن له ذكر حتى فى هذه التكئة التى يستند إليها الاستعمار والتى قاطعتها كافة العناصر الوطنية بقيادة مؤتمر الخريجين

وفى ٢٣ ديسمبر ١٩٤٨ تم افتتاح الجمعية التشريعية ، وكانت تضم بين أعضائها ثلاثة عشر عضوا جنوبيا ، وكانت الإدارة تحاول اقناع الجماهير بأن هذه الجمعية هى أول تجربة سياسية لهم . ولكن الشعب السودانى كان يدرك أبعاد هذه التجربة التى تحرسها الحراب البريطانية فقاطع انتخاباتها ،

وكان من بين الموضوعات الهامة التى أوعز الانجليز ببحثها فى هذه الجمعية موضوع الجنوب ومستقبله بالنسبة للارتباط بالشمال أو الإنفصال عنه وكذلك توفير ضمانات دستورية للجنوب .

ومهما قيل عن الجمعية التشريعية وما تم فى عهدها من مهازل لصالح الاستعمار البريطانى إلا أن هناك عملا جليلا قد تم فى ذلك العهد ، وذلك حينما قرر وزير المعارف آنذاك إعادة تدريس اللغة العربية فى مدارس الجنوب ، وجعلها اللغة الرئيسية فيه ونقل تبعية المدارس إلى الوزارة ، الارساليات التبشيرية هى التى تشرف عليها ،كذلك وضع مشروعا لتوحيد المناهج بين الشمال والجنوب ليقضى على أثر هام من آثار التفرقة التى أجهد الاستعمار نفسه فى غرسها وترسيخ قاعدتها طوال السنين الماضية .

وكان موضوع المدارس فى الجنوب وما تم تقريره بخصوصها هو الحسنة الوحيدة التى فلتت من ذلك العهد الذى أجمع السودان على مقاطعته وإعلان سخطه عليه .

* * *

ثانيا : الادارة البريطانية فى الجنوب

كانت سياسة فصل جنوب السودان عن شماله أهم ما يشغل بال الادارة البريطانية وهى تمارس سيطرتها على وادى النيل بعد أن استتب لها الأمر فيه. ورأينا كيف عملت هذه الادارة بشتى الوسائل والأساليب لتنفيذ هذا المخطط ، وكيف جرؤت على إعلان قانون المناطق المقفلة ولجأت فى حكمها للجنوب لنظام الحكم غير المباشر . . وقضائها على الانتفاضات الوطنية ضد الوجود الاستعمارى وخاصة تلك التى تحالف فيها أبناء الجنوب والشمال مثل حركة ١٩٢٤ .

وحقيقة الأمر فى سياسة الفصل هذه . . هو إبعاد كل ما هو عربى أو مسلم عن جنوب السودان ؛ لأن ذلك فى نظر الإدارة البريطانية عقبة كئود فى سبيل انطلاقه فى ربوعه وسيطرته الكاملة عليه . ومن هنا كانت حربه الشعواء على اللغة العربية هناك لأنها تذكر الجنوبيين بإخوانهم الشماليين وأحلت بدلا منها اللغة الانجليزية لتكون لغة التخاطب والتفاهم، وبذلت الجهود الجبارة والأموال الطائلة لرجال الإرساليات المسيحية كى ينهضوا بهذا الدور ، واجتهدت هذه الارساليات من جانبها لمساعدة الإدارة البريطانية فى محو آثار كل ماهو عربى . . فألغت الأسماء العربية وحظرت على المواطنين إطلاق أسماء عربية على أبنائهم . وحاولت طمس العادات والتقاليد العربية من المجتمع فى جنوب السودان .

هذا من جهة .. ومن جهة أخرى أمر السكرتير الإدارى الإنجليزى لحكومة السودان — وكان هو الآخر من أصحاب الحول والصول فى البلاد — أمر بنقل جميع ضباط الإدارة والحكومة المحلية الشماليين من مديريات الجنوب .. وإقصاء التجار الشماليين عن هذه المناطق واستبدالهم بتجار من جنسيات أخرى .. وبالاختصار ، عملت الإدارة البريطانية

على ترحيل كل القوى التى تمثل الشمال عن الجزء الجنوبى من وطنهم .. وتركه نهباً للاستعمار وأعوانه لينفذوا فيه مخططهم الإجرامى الذى ظهرت آثاره ونتائجه بعد سنوات . . وخاصة فى عهد الاستقلال . . فقد وجد دعاة الانفصال هوة سحيقة وفوارق كبيرة خلفها المستعمر بين أبناء الوطن الواحد .. واستندوا إليها فى المطالبة بفصل جنوب السودان عن شماله .

هذا التباعد الكبير الذى أوجدته الإدارة البريطانية بين أبناء الجنوب وأبناء الشمال فى كافة المجالات، نفذته هذه الإدارة بإحكام فى ميادين الصحة والتعليم والزراعة والصناعة والمواصلات والتعمير وغيرها . وعملت على عدم النهوض بهذه المرافق وإهمالها إهمالا تاماً حتى يعيش أبناء الجنوب فريسة للفقر والجهل والمرض والعرى والتخلف ، حتى القانون لم يسلم من حيث المستعمرين واستخفافهم بمقدرات الشعوب . لقد لجأت هذه الإدارة إلى إبعاد ظل القوانين الوضعية المناسبة والتى تسير عليها دول العالم بما فى ذلك شمال السودان ورأت أن تطبق بدلا منها فى الجنوب التقاليد والعرف كمصدر للتحكيم والقضاء . وهى فى ذلك قد عمدت على تشجيع استمرار هذه التقاليد وذلك العرف الذى لم يعد يناسب المجتمع الحديث ولا يتمشى مع المدنية والتطور .

وما دامت الإدارة البريطانية تطبق العرف وتحكم وفق التقاليد فى الجنوب فلا بد لها إذن من أن تعمل على تثبيت الحياة القبلية بكل صورها وأشكالها ، وما يصاحبها من نعرات وتحزب وتعصب أعمى ، ولهذا شجعت الاختلاف والتنافر وخاصة فى موضوع اللهجات التى تتحدث بها هذه القبائل .. فى الوقت الذى منعت فيه اللغة العربية وشرعت فى تعليمهم الانجليزية، فكان

هذا سبيله من أسباب عدم التقائهم فكراً وحديثاً . ، وهذا ماكان يريده الاستعمار وما حرص على قيامه بينهم .

. . .

تشجيع العرى وتمكين الفقر .

والشيء الذى لا يصدقه عقل . . هو تلك السياسة التى اتبعها رجال الإدارة الإنجليزية فى جنوب السودان والتى كانت تعمل على تشجيع العرى وتعميمه بين القبائل كعادة لا بأس من وجودها ولا داعى لإبطالها . إنها ساعدت على ترك الرجال والنساء عرايا ليكونوا رمزاً للتخلف والهمجية وليكون مظهرهم أمام دول العالم أنهم شعب يعيش على القطرة ويحتاج إلى الرعاية والوصاية .

وفى خلال خمسين عاماً أو يزيد . . قضاها رجال الإدارة الإنجليزية فى ربوع الجنوب لم يحاول أحد منهم أن يقاوم هذا المظهر الذى يتنافى مع الانسانية ، أو يحاول ستر عورة إخوان له فى البشرية . لم يفكر أحدمنهم فى سن قانون بتحريم العرى ومعاقبة العراة حفاظاً على آدميتهم . . بل على العكس من ذلك شجعوا موضوع العرى هذا . وكانو يحاربون كل من حاول من أبناء الجنوب ارتداء الملابس . بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك حينما تجردوا هم أيضاً من ثيابهم . . وكانوا يظهرون فى بيوتهم ومكاتبهم كما ولدتهم أمهاتهم ليثبتوا لجنوبيين أن العرى أمر طبيعى لا انتقاد عليه .

وإذا قارنا مديريات جنوب السودان ببعض الأقاليم الأفريقية المجاورة . . نجد أنها هى المنطقة الوحيدة تقريباً التى كان العرى ينتشر بين ربوعها بحكم القانون ، ولا عجب فى ذلك ، فالمفتش الإنجليزى كان يهدد كل من يرتدى ثياباً — وخاصة فى مناطق بعينها — بوضعه فى السجن ليكون عبرة لغيره .

ومما يؤكد أن العرى كان سياسة مقصودة عمدت إليها الإدارة البريطانية لأعراض فى نفسها هو أن كميات الأقمشة التى كانت ترسل إلى أقاليم الجنوب الثلاثة كانت محدودة جدا .. لدرجة أنها لو وزعت بالتساوى على سكانها مما يكفى جلباباً لكل مواطن لظفر به ٢٠ ٪ فقط من مجموع السكان . ولهذا راعت الإدارة البريطانية العدالة فى التوزيع فأمرت به أن يخصص لكل فرد ربع متر فقط كل عام ، أى ما يصلح لعمل طاقية لرأسه ، وعليه بعد ذلك أن يتصرف فى كسوة باقى جسمه .. وكان طبيعياً أن يكون العرى نصيبه .

وقد صادفت سياسة العرى التى اتبعتها الإدارة البريطانية فى مديريات الجنوب استياء كثيرا من المثقفين السودانيين الذين انتقدوا هذه الأوضاع وطالبوا بإلغاء هذه العادة القبيحة .. وتشجيع أبناء الجنوب الذين يعيشون عراة على ستر أجسامهم ، لكن هذه النداءات وجدت أذناً صماء من تلك الإدارة .

أما عن سياسة الإنجليز فى جعل الجنوبيين فقراء فقد اتخذت أشكالا وصورا متعددة .. ففى الوقت الذى يذخر فيه الجنوب بثروة حيوانية ونباتية عظيمة .. فإن آخر المستفيدين بهذه الثروة كان أبناء الجنوب أنفسهم . لقد كانت الإدارة البريطانية تفرض ضرائب باهظة على المنتجات فى الجنوب لتحول دون انتشارها بين الأهالى . ومن ذلك العسل الذى توجد منه كميات خيالية وكان ثمن القنطار منه بعد الحرب الثانية حوالى ستين قرشاً مصرياً ، كانت الإدارة تفرض عليه ضريبة تتجاوز أحياناً ثلاثة جنيهات وكان قنطار الشطة بخمسين قرشاً والضريبة عليه ثلاثة جنيهات أيضاً .

وكانت الإدارة ترى فى بعض الأحيان أن تحرم على المواطنين أكل ثمار الفواكه التى تمتلىء بها الأشجار مثل الموز والباباظ .. فكانت تحضر قبل مواسم النضوج من يقوم بدفن هذا المحصول الهائل فى الأرض

أو إحراقه بحجة أنه مصدر للحشرات والأوبئة. وكانت ترصد فى ميزانيتها مبلغاً يزيد على العشرة آلاف جنيه لتنفيذ هذا المخطط الشيطانى سنوياً .

وبالإضافة إلى هذا الأسلوب فى معاملة أبناء الجنوب .. فإن الإدارة البريطانية قد أغفلت حقوقهم المادية كأيد عاملة وذلك حين حددت أجر العامل فى الجنوب بخمسة عشر مليماً فى اليوم كحد أقصى بحيث لا يتمكن إطلاقاً من الارتفاع بمستواه .. ويظل على حاله من العرى والفقر . ولم تقتصر ضآلة الأجور على العامل الجنوبى فحسب.. بل تعدته إلى الموظف الجنوبى الذى كان يختار للعمل فى الوظائف الكتابية . فقد وضع المستعمر له كادراً خاصاً يظل بمقتضاه ضئيل الأجر محدود المورد .. بحيث لا يتجاوز مرتبه أربعة جنيهات شهرياً بعد أن تصل مدة خدمته إلى عشرين عاما يقضيها كلها فى مديريات الجنوب ولا يسمح بأى حال من الأحوال بنقله إلى مديرية أخرى .

هكذا عاش أبناء جنوب السودان حياة البؤس والعرى أيام الحكم البريطانى . خمسون عاما من الشقاء والحرمان لم تسمح خلالها السياسة الصارمة أن تجد لهم متنفسا يحسون بآدميتهم ووجودهم الذى سلبهم الاستعمار إياه طول هذه السنين .

• • •

التعليم :

من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تخلف الجنوبيين من الناحية الثقافية، واتساع الهوة بينهم وبين أخواتهم فى الشمال فى هذا القطاع ، الأسلوب الذى اتبعته الإدارة البريطانية إزاء التعليم فى مديريات السودان الجنوبية . لقد حرصت فيه على أن يظل أبناء الجنوب على ما هم عليه من تخلف وفطرة . وحتى القدر اليسير الذى سمحت به فى تعليم بعض الصبية كان تحت وصاية الارساليات ورجال البعثات التبشيرية الذين عبثوا بعقول هؤلاء وجعلوا من

تعليمهم طريقا إلى إثارة النعرات الدينية والعصبية القبلية وكراهية المواطن لأخيه المواطن .

فى خلال فترة سيطرة الانجليز على جنوب السودان أوقفت كل نشاط تعليمى فيما عدا القدر الذى سمحت به لرجال الإرساليات المسيحية من أوربيين وأمريكان وشجعتهم على الانفراد بشئون التعليم من كافة وجوهه، فمهدت لهم السبيل للإقامة فى المناطق النائية ووفرت لهم الامكانيات للإنتقال والمعيشة وأمدتهم بالمئونات والأموال التى يطلبونها وزيادة . . . وجعلت لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من ميزانية السودان التى كانت تدبر من دافعى الضرائب وعرق المواطنين السودانيين وجهدهم هذا إلى جانب المعونات الثابتة التى كانت هذه الارساليات تتلقاها من مراكزها فى أوربا وأمريكا بغير حدود وبلا حساب .

ولغرض فى نفسها تركت الادارة البريطانية فى الجنوب لهذه الارساليات حق التصرف فى شئون التعليم بكل ما فى الكلمة من معان . فكانت هذه الارساليات تقوم بوضع المناهج حسب هواها وتختار المواد التى تراها متمشية مع الأهداف الاستعمارية والبعيدة كل البعد عن كل ما هو وطنى . وتخطيط السياسة العامة للنظم واللوائح التعليمية وعدد التلاميذ الذين يدخلون كل مرحلة . . وعدد المدارس الابتدائية والوسطى والثانوية فى أنحاء الجنوب . . وكل شىء يتصل بشئون التعليم من قريب أو بعيد :

كل هذه الأمور كانت تقوم بها الارساليات المسيحية تحت سمع وبصر مصلحة المعارف السودانية والتى لم تسمح لها بإقامة مدرسة واحدة أو التدخل فى أى أمر من أمور التعليم فى الجنوب طوال أربعين عاماً تقريباً مع أنها المسئول الرسمى عن تعليم السودان وكان كل مهمة هذه المصلحة هو اعتماد المبالغ لمساعدة الارساليات مما قيل عنه للنهوض بالتعليم فى الجنوب، ولم يكن لها

حق الاشراف أو المساءلة عن كيفية صرف هذه المبالغ والأغراض التى استخدمت فيها . هكذا وأراد الاستعمار المتسلط على وادى النيل، ولم تكن مصلحة المعارف أو غيرها قادرة على اعتراض مشيئته .

وإذا ماعرفنا أن الأهداف الرئيسية لرسالة البعثات التبشيرية المسيطرة على شئون التعليم فى الجنوب كان نشر اللغة الانجليزية والديانة المسيحية ، ومحاربة اللغة والدين الإسلامى لأدركنا خطورة النتائج المترتبة على هذه السياسة وما سوف تؤدى اليه من فصل كامل لجنوب السودان عن شماله.

وإمعانا فى عملية الفصل هذه . . . رأت الإدارة البريطانية أن تبعث بخريجى مدارس الجنوب التابعة للإرساليات إلى معاهد أوغندا لتلقى تعليمهم العالى هناك بدلا من الذهاب إلى الخرطوم حتى لا تكون هناك فرصة لالتقاء أبناء الجنوب مع أبناء الشمال وحتى يفصل فكريا وثقافيا بين أبناء البلد الواحد. وفى تقرير رسمى كتبه مدير المعارف السودانية مستر روز فير إبرازاً لهذه المعانى الغريبة . . وجاء فيه :

« من العبث الفصل بين التعليم والدين . . ولما كانت المسيحية أصلح للأهالى الجنوبيين من الإسلام فإنه ينبغى والحالة هذه أن تكون اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الجنوب كما أنه يتحتم إرسال النجباء من أبناء الجنوب إلى مدارس وكليات يوغندا حتى ترسخ عقيدتهم المسيحية » .

واستمرت أحوال التعليم فى جنوب السودان على هذا النحو حتى عام ١٩٤٨ . ولأول مرة يصدر قرار بضم مدارس الجنوب التابعة للإرساليات لوزارة المعارف صاحبة السلطة الشرعية فى هذا القطاع . وقابل رجال الإرساليات هذا القرار بالاستياء . . وماطلوا فى تنفيذه وساندهم فى ذلك رجال الادارة الانجليز . ولكن ضغط العناصر الوطنية فى وادى النيل أوجد مخرجا لهذه الأزمة ليكون

التعليم خاضعاً للوزارة والمدارس تابعة لها، وأسهمت مصر بقدر فى هذا النشاط حين حولت المدرسة الإولية التابعة لهـــا فى ملكال إلى مدرسة ابتدائية عام ١٩٥٠ .

هده صورة موجزة للحالة التى كان عليها التعليم فى الجنوب أيام عهد الإدارة البريطانية وهى فى أوضاعها المختلفة تدين الاستعمار على سياسته المنحرفة التى اتبعها فى مرفق هام يتصل بمستقبل البلاد ومصير الأجيال . . وعبثه بمقدرات الشعب السودانى ممثلا فيما يقرب من ثلث سكانه دون اكتراث لمصلحة الشعب وآماله وتطلعاته، والذى اتبعه فى قطاع التعليم من جرائم اتبع مثيل له فى مجالات أخرى ليؤكد انعدام ضميره وفقدانه لكل معانى الإنسانية .

• • •

المرافق الأخرى :

وما اتبعته الإدارة البريطانية فى جنوب السودان بالنسبة للتعليم . . اتبعت مثيلاله فى كل مرافق الحياة . فنى مجال الصحة تركت مديريات الجنوب الثلاث عشرات السنين بلا طبيب ولا دواء . . وانعدمت فيها الخدمات الصحية بصورة تكاد تكون شاملة . فمن منا يتصور أن مساحة شاسعة تبلغ أكثر من مساحة الجزر البريطانية كلها تعيش بلا مستشفى أو علاج هكذا كان الأمر فى الجنوب الذى ترك فريسة للأمراض والأوبئة . وعاش أهله على الأوصاف البدائية التى تنفع حينا وتضر أحيانا .

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للآدميين . . فما بال الحيوان المسكين الذى يشكل الثروة الرئيسية فى حياة المجتمع الجنوبى والذى تعد قطعانه بالملايين . لقد وجد الاستعمار فى الثروة الحيوانية خير ما يتلاعب به فى مصير الجنوبيين . فترك هذه الثروة بلا رعاية أو إشراف بيطرى ففتكت الأمراض بأعداد كبيرة

من الماشية . وانكمشت بالتالى ثروات الأهالى فاضطروا إلى تغيير نظام معيشتهم واحترف بعضهم الزراعة وهو قليل الخبرة بأصولها فلم تعوضه عن خسارته الكبيرة

ولما كانت الماشية هى عصب الحياة الاقتصادية فى الجنوب . . وهذا هو حالها . . فإن ذلك يعنى أن معالم الحياة الاقتصادية فى ظل الادارة البريطانية كانت مهددة فى كل وقت وتحت أى ظروف . كذلك لم تقم بإحياء أى مشروع اقتصادى فى مديريات الجنوب اللهم إلا مشروع الزاندى الزراعى وكان هو الآخر يشوبه الغرض وتحكمه مصلحة الاستعمار ولا شىء غير ذلك : . أمام قيام صناعات أو إدخال مشروعات .. فإن هذا كان آخر موضوع يدور فى ذهن تلك الإدارة .

وهكذا عاش الجنوب على ما هو عليه من فطرة وتخلف .. رغم احتوائه على مقومات الاقتصاد الناجح . . وامتلاء ربوعه بالخيرات والمعادن والغلات التى تعد مواد أولية تقوم عليها المشروعات الضخمة .

أما عن موضوع المواصلات فكان هو الآخر يعانى التعثر والانعدام ، فلم تكن هناك مواصلات نيلية أو برية فى أنحاء الجنوب . ولهذا عاش مدى سنوات الإدارة البريطانية فى تباعد وانفصال بين أجزائه ، تهطل الأمطار فتقطع الطرق التقليدية التى تربط القرى بعضها ببعض . ويأتى موسم الجفاف فتشق الأرض شقوقا ضخمة تحول بين اتصال الناس . ولم تقم هذه الإدارة بأى جهد فى تعبيد طريق واحد أو مد خط سكة حديدية أو تنظيم خطوط نيلية ، وكان كل همها أن تضمن وسيلة الانتقال لموظفيها واحتياجاتها

ولا يهمها شيء بعد ذلك . . وعلى رأس هؤلاء الموظفين . . يقف المفتش الانجليزى بهيلمانه وسطوته .

. . .

المفتش الانجليزى .

ومن أخطر الوظائف التى كانت قائمة أبان عهد الإدارة البريطانية فى جنوب السودان وظيفة المفتش ، وكانت هذه الوظيفة من الأهمية بمكان ولا تعادلها أية وظيفة أخرى . وقد جرت العادة أن تكون هذه الوظيفة الخطيرة الهامة من نصيب أحد الشبان الانجليز المغرورين وغالبا ما يكون هذا الشاب المفتون من سلالة غلاة المستعمرين البريطانيين .

كان الحاكم العام الإنجليزى يصدر أمره بتعيين أحد هؤلاء الشبان فى وظيفة مفتش النوير مثلا أو مفتش فاشودة أو غير ذلك ليذهب هذا الشاب إلى إقليم متسع الارجاء تجاوز مساحته واتساعه مساحة بلاده كلها . وليجد نفسه فيها صاحب الحول وصول . يتحكم فى البلاد والعباد ويكون صاحب السلطان المطلق الذى لا يرد له أمر ولا يخالف له قرار . . حتى بالنسبة لمن يكبرونه سنا من زعماء القبائل والعشائر ، الذين حنكتهم التجارب وعلمتهم السنون والويل لمن يخالف تعليماته .

وطبيعة عمل المفتش فى الإقليم هو أنه الحاكم الإدارى عليه، فهو الذى يتولى القضاء بسلطات غير محدودة .. ويقوم بالفصل فى المنازعات وإصدار الأحكام فى القضايا و مختلف الموضوعات. وفى إمكانه براءة المذنب وإعدام البرىء، دون أن يعترض على أحكامه أحد .. أو يسائله أحد، حتى الحاكم العام الانجليزى فى الخرطوم الذى فوضه تفويضا مطلقا فى إدارة قليمه. ويقوم إلى جانب هذا

المفتش بمجلس آخر من رؤساء العشائر يساعده فى الفصل فى بعض القضايا متبعا العرف والتقاليد . . وهذا المجلس يأتمر بأمر المفتش ويرضخ لرغباته.

ومن المفارقات العجيبة أنه فى عام ١٩٢٤ وبعد قيام الثورة الوطنية فى الخرطوم وقضاء سلطات الاحتلال عليها . . صدرت الأوامر باغلاق المحاكم الشرعية بالمديريات الجنوبية . . وكانت عشر محاكم . . . وآلت مقاليد الأمور فيها إلى المفتش الانجليزى فى الجهة التى تتبعها المحكمة . وقد تولى هؤلاء ممارسة عمل القاضى الشرعى فكانوا يصدقون على عقود زواج المسلمين وتتم أمامهم عمليات الطلاق ويفصلون فى الميراث ويتدخلون فى أحكام الشرع والدين الحنيف . . الأمر الذى ثارت له ثائرة المسلمين الذين اعتبروا هذا التصرف عدوانا سافرا على حرمة الشريعة الإسلامية ومقدسات الدين الحنيف ، ولكنه الاستعمار الذى لا يعرف حدودا ولا يرعى قدسية ولا يرعوى لوازع الضمير .

وكثيرا ما كان المفتش الانجليزى الشاب المغرور سببا فى كوارث تحيق بالمواطنين الجنوبيين نتيجة تصرف أرعن يقدم عليه أو نزوات طائشة يرى تحقيقها . ومن ذلك حادثة المفتش الذى أحرق قرية كاملة فى إحدى مناطق الدنكا عام ١٩٤٥ لأن الأهالى أقاموا فى غير المكان الذى صرح لهم بالإقامة فيه مع أن الفارق بين المكانين لا يتجاوز كيلومترا فى منطقة خلاء شاسعة . وهذا المفتش فى منطقة الزاندى الذى ربط شابين مقيدين بالحبال فى ذيل جواد جامح وأطلق العنان له وهو يجر الشابين إلى حتفهما . . وذلك لأنهما لم يبلغا عن بيع قدر ضئيل من المحصول الزراعى الذى ينتجه حقلهما . . وهذا المفتش الانجليزى المجنون الذى رمى بسهام مسمومة ثلاثة من المواطنين فى إقليم الزاندى أيضا استبد بهم الجوع وهم يعملون فى المشروع فأكلوا بعض إنتاجه فكان نصيبهم الموت العاجل . وغير

ذلك من القصص الدامية التى كان أبطالها هؤلاء المفتونون الذين لم يجدوا من يردهم عن غيهم أو يسائلهم عن جرائمهم . ولعل أهم هذه القصص . . قصة المفتش الانجليزى الداعر فرجسون فى إقليم النوير والذى كانت سببا فى هلاك منطقة بأكملها على النحو الذى سنرويه فى حادثة دنشواى النوير .

إن المفتش الانجليزى فى جنوب السودان . . أو الإله الأبيض كما كان يسميه البعض ظل يمارس هيمنته على المديريات الثلاث أكثر من خمسين عاما . ثم كان مصرع هذا السلطان والنفوذ عقب قيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر .. ورأيت المفتش نايتنجال المفترس وأنيابه تنزع من فمه على يد ثائر من ثوار مصر هو صلاح سالم الذى ذل كبرياءه وحطم الهالة التى كان يحيط نفسه بها أمام أبناء الجنوب . كان ذلك أثناء زيارة له فى أعقاب عقد اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ بشأن الحكم الذاتى وتقرير المصير السودانى . لقد استدعاه أمام الزعماء والسلاطين وأنبه أمامهم على إهماله فى عمله . . وهدده بالفصل فورا إن لم يعتدل فى سيرته ، ورأى الحاضرون المفتش الجبار وهو يستمع إلى هذا الدرس بكل خضوع ومذلة .

* * *

دنشواى الجنوب :

ومن الأحداث المروعة التى سجلها التاريخ على الاستعمار البريطانى أثناء وجوده فى مصر حادثة دنشواى الذى ذهب ضحيتها مجموعة من المصريين الأبرياء . . . ظلمهم التعسف والجبروت الانجليزى . . والصق بهم تهمة قتل أبناء التيمس الذين كانوا يصطادون الحمام فى قرية دنشواى .

ولم يكد يمر على هذا الحادث البشع أعوام قليلة .. حتى قام مثيل له فى أقصى جنوب السودان . . وفى بلدة أودك Odok فى مديرية بحر الغزال

حيث تعيش قبيلة النوير . . وذهب ضحيته المئات من أبناء هذه القبيلة على أيدى السفاحين الانجليز الذين أرادوا أن ينتقموا لمصرع مفتش مستهتر لوث شرف هذه القبيلة حين اعتدى على عفاف إحدى بناتها .

تفاصيل هذه الجريمة الوحشية تبدأ منذ أن عين أحد الانجليز، واسمه فرجسون Fergson ، مفتشا من قبل الإدارة البريطانية على إقليم النوير عام١٩٢٨ . وكان مشهورا بدهائه وصرامته الذين استطاع بهما أن يسيطر على مقاليد الأمور ويكسب ثقة النوير واحترامهم . وبينما هو يمر بباخرته النيلية ذات يوم عند بلدة أودك . . استرعى انتباهه فتاة نويرية جريحة على الشاطىء أتت إليه لعلاجها من جراحها . وراعه جمالها الســـاحر وقوامها البديع وتقاطيعها التى افتتن بها ، فدعاها إلى باخرته ليستكمل معها أسباب العلاج وهناك أغراها بالهدايا من عقود الخرز والأساور الزجاجية والألومنيوم ، وامضت معه بعض الوقت لتعود إلى أهلها وتخبرهم بقصة المفتش الانجليزى . . وكيف أنه راودها عن نفسها حتى نال منها شرفا غاليا .

ثار أخوة هذه الفتاة وصمموا على غسل العار الذى ألحقه بهم المفتش الانجليزى. وقرروا تأديبه ليكون عبرة لمن يعتبر . وجاءت الفرصة للانتقام يوم زار فرجسون القرية مرة أخرى ومعه بعض رفاقه . ونظرت الفتاة إليه ، وهنا قذفه شقيق هذه الفتاة واسمه جركيك بحربة فى قلبه نفذت من ظهره فخر صريعا ، وتقدم منه جركيك فأجهز عليه ، بينما بقية الإخوة يعملون الطعن فى بقية عصابة فرجسون ، وفر المنتقمون من قريتهم إلى الغابات وتركوها قاعا صفصفا .

جن جنون الإدارة البريطانية لهذا الحادث . . ورأت أن تبعث إلى بلاد النوير بحملة تؤدب بها من ثأروا لشرفهم ودافعوا عن عفتهم. وكانت

الحملة قوامها طائرات ومدافع رشاشة وعدد من القنابل . . وتوجهت إلى أودك فأحرقتها تماما . وأخذت الطائرات تحلق على ارتفاع منخفض وهى تطلق مدافعها الرشاشة لتثير الرعب فى نفوس الفارين .

لم يكف الحملة البريطانية هذا الانتقام الوحشى بل رأت أن تحيط المنطقة كلها بالأسلاك الشائكة بحثاً عن الذى صرع المفتش الانجليزى الجبان . واستمر الحصار سبعة أيام شهدت خلاله القوة المحاصرة مختلف ضروب الشجاعة من أبناء النوير الذين أقضوا مضجعهم بهجماتهم المتواصلة عليهم غير هيابين الموت أو مبالين برصاص الاستعمار . وكان الأسرى الذين يقعون فى أيدى القوة يفضلون الموت على أن يفيدوا خصمهم بأية معلومات قد تعود عليه بالفائدة .

بعد هذه الأيام السبعة . حضر جركيك إلى معسكر القوة الانجليزية وتقدم إلى قائدها وهو يقول له : لقد أفزعنى أيها الرجل ما تقومون به من حوادث الإبادة والقتل للماشية التى نفقت منها أعداد هائلة . . وهذا الأرهاب الذى فرضتموه على أبناء قبيلتى وعلى قرية أودك بالذات . ورأيت حسما لهذا الموقف المتدهور أى أقدم نفسى إليك لتنتقم منى ما وسعك الانتقام .

فسأله القائد الانجليزى .. ومن أنت ؟

فأجاب المواطن النويرى . . أنا جركيك قاتل فرجسون . . والثائر لشرف أسرتى من الشخص الذى أراد أن يلحق بها العار . . جئت أسلم نفسى حتى أحمى جماعتى من عملية الإبادة التى تقومون بها دفاعا عن الرذيلة .

ولم تنته قصة جركيك عند هـذا اللقاء المثير . بل كانت حلقتها الأخيرة أكثر جرأة وإثارة وذلك حين سأله الضابط الانجليزى قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه عما يطلب .

فقال أريد الزواج لأنجب ولدا يأخذ بثأرى من الانجليز . .

وانتهت بمقتل جركيك مهزلة من مهازل الاستعمار فى وادى النيل لتبقى بعد ذلك دليلا على جبروته وانعدام إنسانيته . ولبصمه فى كل مناسبة بالعنف والاجرام فى حق المواطنين الشرفاء .

* * *

ثورة الجنوب على الاستعمار :

قليل من أبناء وادى النيل من يعرف شيئا عن الثورة العارمة التى قامت بها قبائل جنوب السودان ضـــد الاستعمار البريطانى فى أعقاب حركة ١٩٢٤ . ففى خلال الفترة من قضاء الانجليز على هذه الانتفاضة الوطنية السودانية وحتى عام ١٩٣٠ . . وجنوب السودان يشتعل بالثورة التى أخفى الاستعمار معالمها . . وحرص كله على ألا تصل أنباءها إلى الخارج .

وكانت هناك أسباب عديدة دفعت قبيلتى النوير والدنكا على الثورة ضد الوجود الاستعمارى بعضها يرجع إلى عوامل وطنية . والبعض الآخر مرده إلى التصرفات التى لجأ اليها الانجليز ومن ورائهم أعضاء الارساليات التبشيرية فى أقاليم الجنوب المختلفة والتى أثارت الأهالى هناك .

ففى أعقاب صدور قانون المناطق المقفلة عام ١٩٢٢ أمرت السلطات الانجليزية أبناء السودان الشمالى بمغادرة المدن والقرى التى يعيشون فيها فى جنوب السودان واستعملوا معهم أساليب العنف والبطش . . وكان هذا الاجراء مبعثا على الاستياء الكبير من إخوانهم وقرروا الثورة ضد المستعمر فى أول فرصة تتاح لهم .

ثم كان انتصار الانجليز على الثورة الوطنية عام ١٩٢٤ ونفيهم لزعمائها

ومعظمهم من أبناء جنوب السودان بما فيهم رئيس هذه الثورة وزعيمها على عبد اللطيف أحد أبناء قبيلة الدنكا . والذى ارتكبه الانجليز مع الثوار الوطنيين ، الذين قاموا يطالبون بحقوق بلادهم ، اتسم بالمغالاة فى البطش والقسوة . وقد استقبل أبناء جنوب السودان هذه الأعمال بالامتعاض والنفور من هذه الادارة البغيضة .. فكان هذا الموقف عنصرا ثانيا من أسباب ثورة الجنوبيين على الادارة البريطانية .

وبالإضافة إلى ذلك . . كان ممارسة الانجليز لأسلوب الحكم غير المباشر بالنسبة لجنوب السودان . وإذلالهم لكبرياء زعماء الجنوب ، ومحاولة قضائهم على التقاليد الديمقراطية العريقة التى كانوا يسيرون عليها فى طرق التعامل فيما بينهم .. من أسباب حقد الجنوبيين أيضا على الوجود البريطانى والصلف الذى اشتهر به .

وثمة سبب آخر وهو أن الإرساليات حرمت عليهم الزواج بأكثر من واحدة تمشيا مع التقاليد المسيحية وهذا يعنى فى نظرهم القضاء على سلالاتهم وانقراض عددهم فكان نتيجة ذلك رفضهم اعتقاق المسيحية وثورتهم على الداعين إلى هذا الاتجاه .

هذه العوامل وغيرها تفاعلت فى نفوس أبناء جنوب السودان ، فكانت ثورة الدنكا عليهم ثم ثورة النوير وربما ثورات فى مناطق أخرى استطاعت الإدارة البريطانية إخفاء أخبارها ، لكن من المقطوع به أنه قد صاحب إخمادها إرهاب شديد لم تر هذه البلاد له مثيلا .. فقد استعمل الانجليز ما بقى من مخلفات الحرب العظمى الأولى من طائرات ومدافع أخذت تقصف بها مواقع الثوار وتحرق الغابات التى يختبئون فيها .. فقتلت وحرقت

منهم الألوف وأمعنت فى البطش بهم إلى درجة أنها دمرت أماكن عبادتهم وكان من هذه الأماكن هرم أقامه النوير فى بلدة لاو . وزجت بأعداد كبيرة فى معتقلات وسجون أقيمت فى العراء مات فيها أعداد كبيرة من الجنوبيين.

هذه المجازر وغيرها لم تجد من يكشف أمرها لأن الانجليز نجحوا فى إخفاء كل معالم جريمتهم . . ولم يجد الكتاب من الوثائق ما يستطيعون به إثبات هذا الأمر الذى تناقلته الألسن ورددته السير والحكايات .

نهاية عهد :

كان أبرز ملامح الفترة التى سبقت اتفاقية السودان المعقودة عام ١٩٥٣ فى القاهرة . هو مؤتمر جوبا فى يونيو عام ١٩٤٧ والذى حشدت له الإدارة البريطانية كل إمكانياتها لاقناع الجنوبيين بتأييد فكرة إنشاء مجلس استشارى للجنوب . وقد حقق ذلك المؤتمر عدة إيجابيات منها اعتراف غالبية زعماء الجنوب بمبدأ الوحدة بين الشمال والجنوب . . ونبذ فكرة ضمه إلى أوغندا . . ومحاربة فكرة فصل الجنوب عن الشمال لما فى ذلك من تهديد مباشر لمصالح الطرفين . وفى نفس الوقت الذى لم يخف فيه زعماء الجنوب مخاوفهم من سيطرة الشماليين عليهم .

ورأت الإدارة البريطانية أن يتضمن قانون الجمعية التشريعية . التى تضم السودان الموحد، سلطات استثنائية للحاكم العام فى الجنوب يمكنه بمقتضاها حماية ما أسماه الانجليز بالذاتية الجنوبية ثقافيا واجتماعيا من أى تغول من جانب أى حكومة غالبيتها من الشماليين . وعارض المثقفون هـذا الاتجاه . . وصرف النظر عن هذا الموضوع وخاصة أن سلطات الحاكم العام تكفى لعلاج أى أمر طارىء .

وقد ساد السودان خلال تلك الفترة تيار وطنى جارف ينادى بوحدة

السودان وسقوط المشاريع الاستعمارية البريطانية فيه وعلى رأسها الجمعية التشريعية . . ومقاومة نشاط الارساليات التبشيرية فى الجنوب والتى أخذت على عاتقها تعميق فكرة فصل الجنوب عن الشمال . ونشطت العناصر الوطنية فى المطالبة بمشاريع لتنمية الجنوب اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا . . وتقارب أبناء الجنوب مع اتجاهات أبناء الشمال الوطنية الهادفة ، الأمر الذى شهده السودان على تلك الصورة المشرقة لأول مرة فى تاريخه الحديث .

الفصل الثالث

٢٣ يوليو وتقرير المصير

٢٣ يوليو وتقرير المصير

شهد وادى النيل فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ مولد ثورة وطنية قامت لتصحيح الأوضاع التى كان يعانى منها شعب الوادى. وكان على رأس الأهداف التى أعلنت عنها الثورة تطهير مصر والسودان من أى أثر من آثار الاستعمار. ورأى ثوار مصر أن يبدأوا كفاحهم بقضية السودان مؤثرين إياها على قضية مصر .. وانجاز خطوة رئيسية بالنسبة لها وخاصة إذا ماعرف أن موضوع جنوب الوادى كان الصخرة التى تتحطم عليها كل المفاوضات والمباحثات بين الجانبين المصرى والانجليزى منذ عرفت هذه المفاوضات فى التاريخ الحديث

بدأت ثورة مصر بخطوة جادة فى هذا السبيل .. قبل أن يمضى ثلاثة أشهر على قيامها. وكان ذلك حين قدمت للحكومة البريطانية مذكرة بشأن الشروع فى مفاوضات معها بشأن الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان.. إيمانا من ثورة مصر بحق السودانيين فى هذا الموضوع الحيوى . وقد اقترحت مصر فى مذكرتها أنه لبلوغ هذا الهدف تبدأ فترة انتقال لا تتجاوز السنوات الثلاث يمكن السودانيين خلالها من ممارسة الحكم الذاتى الكامل ، كما نصت المذكرة المصرية على تهيئة الجو الحر المحايد ليقرر الشعب السودانى مصيره بعيدا عن مجالات التدخل والاكراه .

ونصت المذكرة المصرية أيضاً على أنه خلال فترة الانتقال . . يصفى الحكم الثنائى الذى كان قائما فى السودان وينهى أنهاء فعلياً. وتصفى الادارة التى كانت تمارس أعمالها مستندة إلى وجود ذلك الحكم . والطبع كانت هذه الإدارة ثنائية بين مصر وانجلتر أسماً ، ويتوافر عليها الانجليز فعلا. فقد كان لهم منصب الحاكم العام وعدد كبير من مناصب الإدارة وخاصة فى جنوب السودان الذى أستأثروا به خلال نصف قرن من الزمان .

ومن الايضاحات التى تضمنتها المذكرة المصرية للحكومة البريطانية اقتراح بألا يمارس الحاكم العام السلطات الدستورية وحده خلال فترة تقرير المصير . بل يعاونه لجنة من خمسة أشخاص تتكون من سودانيين أحدهما من أبناء الجنوب ، ومصرى وبريطانى وباكستانى . كما اقترحت تشكيل لجنة من سبعة أشخاص تشرف على التمهيد لاجراء الانتخابات لأول برلمان سودانى وأعضاء هذه اللجنة مصرى وبريطانى وأمريكى وهندى وثلاثة من السودانيين من بينهم أحد أبناء الجنوب .

وإلى جانب لجنة الحاكم العام ولجنة الانتخابات .. اقترحت مصر قيام لجنة للسودنة . تقوم بنقل الوظائف التى يشغلها الأجانب إلى السودانيين خلال فترة تقرير المصير أى فى مدى لا يتجاوز السنوات الثلاث . على أن تبدأ سودنة وظائف الإدارة والبوليس والجيش بصفة عاجلة وذلك لضمان عدم وجود قوى أجنبية فى هذه الأجهزة تؤثر على سير الانتخابات .

هذا موجز لما جاء فى المذكرة التى بعث بها ثوار مصر فى ٢ نوفمبر ١٩٥٢ إلى الحكومة البريطانية والتى أعقبها نشاط دبلوماسى واسع فى مصر والسودان. أما الدوائر الانجليزية فقد وافقت على أن تبدأ المفاوضات مع مصر بشأن الحكم الذاتى للسودان وتقرير مصيره . معتقدة فى صميمها أن الرغبة المصرية زوبعة فى فنجان . وأن مصير هذه المفاوضات لا شك بأنه سيكون مصير المفاوضات العديدة التى سبقتها على مراحل تاريخ وادى النيل المعاصر وهو الفشل .

وفى ٢٠ نوفمبر من نفس السنة . . أى فى مدى يقل عن ثلاثة أسابيع . . وصل الرد على المشروع المصرى من بريطانيا ، وكان الاجتماع الأول بين الجانب المصرى والجانب الانجليزى فى سلسلة الاجتماعات الخاصة بهذه المفاوضات . وكان قوامها روحا ثورية جديدة انطلقت من ثوار مصر . . قامت تتحدى الوجود الاستعمارى بجدية ورجولة . أما الجانب البريطانى

الذى تمرس على هذه الألوان من المفاوضات فقد دخل أولى مراحلها وهو واثق بأنه هو الكفة الراجحة وإرداته ستكون الغالبة . وأثبت سير جلساتها أن ثورة مصر وثوارها هم شىء آخر يختلف فى نوعية الرجال وإصرارهم وعزيمتهم عن غيرهم من الزعماء محترفى السياسة والمفاوضات .

وكان أول الموضوعات التى أثيرت فى المفاوضات . موضوع جنوب السودان . حيث تجاذبه تيارين .. تيار وطنى تدافع عنه مصر .. ويهدف إلى عدم التفرقة بين شمال السودان وجنوبه إيماناً منها بأن السودان كل لا يتجزأ . والتيار الثانى هدف الاستعمار البريطانى من ورائه فصل الجنوب عن الشمال .. وبدأت قصة صراع بين التيارين المتضادين .

* * *

الجنوب فى المفاوضات .

وأصبحت القاهرة فى نهاية عام ١٩٥٢ ومطلع عام ١٩٥٣ مجال نشاط سياسى واسع النطاق قادته ثورة مصر فى المحاولة الجريئة التى تصدت لها .. وهى مفاوضة الانجليز بشأن تقرير مصير السودان . وتحمس ثوار ٢٣ يوليو لهذه القضية المصيرية التى كانت طوال العهود السابقة حجر العثرة فى سبيل جلاء المستعمر عن أرض وادى النيل المطهرة . وجلس المفاوض المصرى أمام المفروض البريطانى ، وقد وضع فى حسابه حقيقة هامة بالنسبة لجنوب السودان ، وهى أن البريطانيين قد بيتوا النية السيئة منذ عام ١٩٢٢ على فصل جنوب السودان عن شماله . لقد كان قانون المناطق المقفلة الذى أعلنه الحاكم العام البريطانى على السودان فى تلك السنة يرمى لجعل الجنوب مرتعاً للإدارة الاستعمارية بعد أن تفرض عليه ستاراً حديدياً .. حيث لا يدخله أحد ، حتى ولو كان من أبناء السودان الشمالى إلا بتصريح خاص . وقد وضح هـذا الموقف أمام ثوار مصر وهم يفاوضون الانجليز الذين

بذلوا الجهد والمحاولات المستميتة اثناء هذه المفاوضات لاعطاء الحاكم العام الانجليزى للسودان سلطات خاصة على الجنوب . وبذلك يتم مشروع الفصل الذى كان حلمهم وأملهم فى أن يتحقق ليصبح مصير الجنوب بعد ذلك مستعمرة بريطانية فى أية صورة من صور المستعمرات .

وقد شهدت الجلسة الثانية ، التى عقدت بين المفاوض المصرى والمفاوض الانجليزى ، بشأن قضية جنوب السودان ، شهدت صراعاً عنيفاً بين القوى الوطنية المتحررة الراغبة فى تحقيق حلم الأجيال فى وادى النيل ، وبين قوى الشر والتآمر عليه . وسوف يسجل التاريخ يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٥٢ كيوم يرمز إلى إنتصار الكفاح المخلص الذى حملت لواءه ثورة مصر وهى تجاهد لاستخلاص حقوق أبناء جنوب السودان من بين براثن الأسد البريطانى .

فقد كان اصرار الجانب البريطانى على أن يمنح الحاكم العام للسودان، وهو بريطانى، سلطات استثنائية خاصة بالنسبة للجنوب .. حتى يمكنه النهوض به على حد زعمهم . ويستمر يمارس هذه السلطات حتى يؤدى مهمته بنجاح .. كأن الخمسين عاما الماضية لم تكن لتسمح بأداء هذا الواجب الهام الذى اكتشفه أخيرا المفاوض الانجليزى ؟ .

وكان رد الجانب المصرى على هذا الطلب حاسماً مدعماً بالحجج ويتلخص فى التالى :

أولا : أن موضوع منح الحاكم العام سلطات استثنائية فى الجنوب قد بحثه ثوار مصر مع قادة ورؤساء كافة الأحزاب السودانية التى أجمعت على رفض هذا الأمر . . وهددت بمقاطعة الانتخابات لو تم تسليم الحاكم العام مقاليد الأمور فى الجنوب أثناء فترة تقرير المصير .

ثانيا : لم يتضمن دستور الجمعية التشريعية الذى وضع فى ظل الانجليز منح الحاكم العام هذه السلطات . فهل يعقل أن يتم منحها له والبلاد فى سبيل تحقيق خطوة هامة فى مستقبلها ومصيرها .

ثالثا : أوضح الجانب المصرى فى أكثر من مناسبة أثناء جلسات المفاوضات موضوع التفرقة بين شمال السودان وجنوبه . وأصر إصراراً قاطعا على ألا يذكر من العبارات أو الأساليب أو التصرفات مايؤيد فكرة الفصل هذه . فالسودان جزء لا يتجزأ ووحدة لاتنفصم عراها.. وإن مصر حريصة الحرص كله على وحدة السودان .

رابعا : أن الموافقة على طلب الجانب البريطانى سوف يفهم منه أبناء جنوب السودان أنهم فى وضع يغاير أبناء الشمال ، مما سيولد عندهم شعوراً بالفوارق بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا مالا تقبله مصر .

خامسا : أن ادعاء الانجليز بأن عليهم للجنوبيين واجب حمايتهم وتأمين مصالحهم لكى يجدوا ما يقيم حياتهم اليومية أمر غير صحيح .. وإلا لسعوا إلى النهوض بالجنوب طوال نصف قرن تحكموا خلاله فى موارده وسكانه وأكرهوهم على حياة الفقر والجهل والمرض .

وكان منطق المفاوض المصرى قويا لدرجة أن المفاوض البريطانى اضطر قبل أن تنتهى هذه الجلسة من المباحثات على الاعتراف بوجهة النظر المصرية . وأعلن رالف ستيفنسون رئيس الوفد بأنه لا يرحب بتقسيم السودان. وكان هذا الاعتراف ذرا للرماد فى العيون ، فربما انتصرت الفكرة البريطانية بمنح الحاكم العام سلطات خاصة فى جولة قادمة . ولكن ثوار مصر كانوا ضد هذه الفكرة وضد الإشارة بأن فى السودان شمالا وجنوبا . واستمروا على هذا الموقف العظيم حتى انتهت المباحثات ووقع الاتفاق بين الجانبين المصرى والبريطانى بشأن الحكم الذاتى وتقرير مصير

السودان . وقد نصت المادة الخامسة منه على الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليما واحدا كبدأ أساسى للسياسة المشتركة للحكومتين المتعاقدتين .

° ° °

ماذا بعد توقيع الاتفاقية:

كان لتوقيع الاتفاقية بين مصر وبريطانيا بخصوص تقرير مصير السودان والحكم الذاتى له وقع سىء وأليم فى نفس رجال الإدارة الإنجليز وعلى رأسهم الحاكم العام روبرت هاو . فقد كان هذا يعنى زوال عهدهم وضياع المكاسب الشخصية التى حصلوا عليها وتوارثوها أكثر من نصف قرن . وتوقع الجميع أن يقوم هؤلاء الموتورون بعمل ضدها قبل مرور السنوات الثلاث التى حددتها الاتفاقية لسودنة وظائفهم . وعلى هذا فإنه كان من المتوقع فى أية لحظة أن يقوموا بمناورة أو مؤامرة لعرقلة تنفيذها وخاصة بالنسبة للجنوب. فقد تركزت فيه أطماعهم ومشاريعهم لاستقلاله إلى الأبد بعد ضمه إلى مستعمراتهم الافريقية . وهذا الأمر لم يكن قد تم تدبيره بصفة قاطعة وحاسمة لصالحهم حتى يوم توقيع الاتفاقية .

وحدث ما كان متوقعا . . فنى يوم ١٤ فبراير ١٩٥٣ ، أى بعد توقيع الاتفاقية بيومين . صرح الحاكم العام وهو قمة المسئولية فى السودان . . فى نداء وجهه إلى أبناء الجنوب أن تلك الاتفاقية قد أغفلت حقوقهم التى ينبغى أن يطالبوا بها على الفور متبعين فى ذلك الطرق الدستورية . وكان هذا التصرف الغريب من الحاكم العام سبباً فى ثورة عارمة عليه من كافة العناصر الوطنية .فقد استغل مركزه ليرجح كفة على كفة وينتقد فى صراحة اتفاقية وقعتها الدولتان اللتان عينتاه فى منصبه وأصبحت سارية المفعول منذ تلك اللحظة وكان عليه وهو موظف مسئول أمامها أن ينفذ

موظف مسئول أمامها أن ينفذ بنودها لا أن يعرضها للهجوم والانتقاد ويحرض المواطنين على الثورة ضدها

ومن وراء الحاكم العام . . انطلق الإداريون البريطانيون فى مديريات الجنوب ينفذون مخططاً مرسوماً وهو جمع توقيعات أكبر عدد من المواطنين الجنوبيين على مذكرات احتجاج . . كتبها الإداريون أنفسهم وتحمل السخط على الاتفاقية والاعتراض على نصوصها والتحلل من تنفيذها وإلى غير ذلك من أوجه الاعتراض التى تصورها خيال الانجليز السقيم وهم فى محنة نفسية كبيرة . وطافوا بالقرى والأكواخ ، يرغمون المواطنين للتوقيع عليها مستعملين فى ذلك كل أساليب البطش والإكراه .

ولم تتضمن العرائض انتقاد الاتفاقيـــة فحسب . . بل حملت رغبة مزيفة وهى أن أبناء الجنوب يطالبون ببقاء رجال الإدارة الانجليز فى مناصبهم حرصا على مستقبلهم الذى لم تكفله لهم الاتفاقية ، وقام الاداريون بحملة واسعة بين الزعماء والرؤساء فى المديريات الجنوبية لإكراههم على تصدير هذه العرائض بتوقيعهم . وبلغت هذه الأخبار المواطنين الأحرار فى السودان ومصر . . فانبروا لكشف الحقيقة ورفع الظلم والقسر الذى أوقعه رجال الإدارة الانجليز بالجنوبيين . وترجموا شعور وأحاسيس إخوانهم للعالم كله وأوضحوا له حقيقة أمر هذه العرائض وكيف أنها مزيفة لإرادة أبناء الجنوب . . ولا تمثل إلا رأى ومصلحة الانجليز وحدهم .

وكشف أمر الخطة التى دبرها رجال الإدارة ضد الاتفاقية وضد حقيقة شعور أبناء الجنوب نحوها والذى كان يتمثل فى التأييد المطلق لكل ما جاء فيها . وسارع رجال الأحزاب بتقديم مذكرة إلى الحاكم العام يوضحون فيها أن الإداريين قد انحرفوا — كما هى العادة — فى أداء رسالتهم وطالبوه بأن يأمر على الفور بوقف هذا التدخل السافر من جانبهم ضد الاتفاقية وضد إرادة الجنوبيين .

وذهب الحماس ببعض الوطنيين في مصر والسودان إلى المناداة بطرد هؤلاء المتلاعبين بمستقبل وادى النيل من وظائفهم ضمانا لتنفيذ الاتفاقية. وتعرض الحاكم العام نفسه لهجوم عنيف . . ارتفعت فيه الأصوات مطالبة بتنحيته عن منصبه الذى استغله أسوأ الاستغلال حين حرض أبناء الجنوب فى بيانه على الثورة ضد الاتفاقية . ثم سكوته على تصرفات رجال إدارته وهم يزيفون إرادة الشعب لمصلحتهم .

وكان هذا الذى حدث بالنسبة للاتفاقية التى لم يجف مدادها بعد ، يدل على حقيقة اتجاه الحاكم العام ورجاله منها . . والمصير الذى ينتظرها على ايديهم ، الأمر الذى أدى إلى مزيد من الحرص واليقظة من جانب العناصر الوطنية لحراستها وتفنيد بنودها ، وفى هذا المجال وقف ثوار مصر للانجليز وقفة صلبة . . تحطمت أمامها فعلا كل المناورات والخطط التى دبرت بإحكام ضدها . . وساروا بالاتفاقية إلى بر الأمان . . وقد التف من حولهم كل مخلص غيور فى وادى النيل يبارك كفاحهم ويؤيد مسيرتهم لطرد الغاصب من أرضنا المطهرة .

* * *

أزمة المحامين المصريين :

ووسط هذا الجو المشحون بالترقب والتربص . . وبعد أقل من شهر على توقيع اتفاقية السودان . . شهد المواطنون مهزلة استعمارية جديدة . بطلها الحاكم العام الذى وقف يتحدى القضاء والقانون ويعتدى على حق المتهمين فى الدفاع عن أنفسهم . فقد أصدر أوامره بمنع ثلاثة من المحامين المصريين أوفدتهم نقابة المحامين فى القاهرة للدفاع عن عدد من رجال جنوب السودان . كانوا ضحية للدسائس التى دبرها ضدهم رجال الإدارة الإنجليز .

وتفاصيل هذه المهزلة تبدأ منذ بدأ هؤلاء في جمع توقيعات من المواطنين الجنوبيين يؤيدون فيها زوراً الاتجاه الاستعماري للذي يعارض قيام الاتفاقية ويستنكر إبرامها . ورفض عدد كبير من أبناء الجنوب الاستجابة لهذه الإرادة وامتنعوا عن التوقيع على هذه الاحتجاجات ، فما كان من رجال الإدارة البريطانيين إلا أن لفقوا عدداً من التهم الباطلة ضد الزعماء المعترضين على الرغبة الاستعمارية ، وكان من بينهم جوزدون بولى العضو الجنوبى فى لجنة الحاكم العام . وبمقتضى هذه التهم الباطلة ظنوا أنهم سيستطيعون إصدار أحكام رادعة عليهم تكون عبرة لمن يعتبر ، ووسيلة لإرهاب باقى المواطنين .

ثار الرأى العام فى وادى النيل ضد هذه المناورة المفضوحة .. وخرجت الصحف والإذاعة تهاجم هذا الاتجاه المنحرف . ورأت نقابة المحامين فى مصر أن تشارك فى رفع الغبن عن المواطنين الأبرياء فأوفدت د . محمد صلاح الدين ود . أحمد صفوت والأستاذ أحمد فؤاد عبد الله للسفر إلى جنوب السودان للدفاع عن هؤلاء المتهمين .

وصلت بعثة المحامين المصريين إلى الخرطوم . . وبينما هى تتأهب للسفر إلى الجنوب صدر أمر من الحاكم العام بمنع سفرها ، مستندا فى قراره إلى قانون المناطق المقفلة الصادر عام ٩٢٢ والذى يحرم السفر إلى تلك الجهات إلا بتصريح خاص . وقد فسر الحاكم العام هذا التصرف بأن قصد به حماية أرواح المحامين المصريين من أن تتعرض للخطر نتيجة لسوء الحالة واضطرابها فى المديريات الجنوبية .

وقد استقبل قرار الحاكم العام هذا بالاستياء البالغ . . وسارعت مصر تفند حججه التى أوردها .. موضحة أن استناده إلى قانون المناطق المقفلة أمر

باطل لأن هذا القانون لم يعد له وجود بعد توقيع الاتفاقية التى نصت على وحدة السودان . . وأنه لا شمال ولا جنوب . أما ما قيل عن عاقبته على أرواح المحامين من الخطر بسبب اضطراب الحالة . فإن رجاله هم أصحاب المسئولية عن هذا الاضطراب . وفى نفس الوقت فإن هذا دليلا قاطعا على فشل الإدارة الانجليزية فى القيام بمهامها فى حفظ الأمن والنظام ؛ ولهذا يتحتم عليها أن تترك هذه المهمة فورا لمن يستطيع النهوض بها .

والحقيقة فى هذه القصة ليست قانون المناطق المقفلة أو خفظ أرواح المحامين . بل إن الإداريين البريطانيين وعلى رأسهم الحاكم العام للسودان خشوا من وجود المحامين المصريين بين أبناء الجنوب فى تلك الظروف ، فيقفوا على الأساليب الإجرامية التى يمارسها هؤلاء فى الضغط على المواطنين لإعلان السخط على اتفاقية السودان . . وإرهابهم ليوقعوا على عرائض ومذكرات كتبها هؤلاء الإداريون للاحتجاج عليها .

ومر الحاكم العام بأزمة خطيرة بسبب هذا الموقف الذى تردى فيه . . وأصبح أحد أمرين ، أما السماح للمحامين بالسفر إلى الجنوب فيقفوا على أسرار الكبت والإرهاب والبطش الذى فرضه الاستعمار على أبناء الجنوب أو عدم السماح لهم بالسفر . . وفى هذه الحالة يزيد العواطف والمشاعر الوطنية التهابا وثورة ضد تصرفات رجال إدارته .

وخروجا من هذا المأزق . . لجأ الحاكم العام إلى أسلوب عجيب لم يتبع من قبل فى تاريخ القضاء فى السودان . . وذلك حين أمر بشطب القضايا التى من أجلها حضر المحامون المصريون . وحجته فى ذلك أن التحقيق

لم يؤيد تهمة منها . وهكذا شهد القضاء السودانى لأول مرة فى تاريخه حادثة شطب قضية الجنوب السياسية من سجله .

وظن الحاكم العام أنه بشطب هذه القضايا السياسية قد حل إشكالا عويصا وحسم الغرض الذى من أجله طلب المحامون السفر للجنوب . ولكن الموضوع فتح أبوابا على روبرت هاو ورجاله . وكشف الستار عن نواياهم جميعا حيال اتفاقية السودان وخاصة بالنسبة للجنوب عدد من الاتجاهات هى :

١ — إظهار سوء نية الاستعمار فى تنفيذ الاتفاقية ورغبته فى استمرار سيطرته على جنوب السودان . . ومواصلة ممارسة سياسة فصله عن جسم الوطن السودان . . ثم ذلك الستار الحديدى الذى فرضه على الجنوب وتعهده بالحراسة لرجال الإدارة الانجليز الذين تفننوا فى تنفيذه .

٢ — ألوان العنف والتنكيل والاضطهاد التى يمارسها هؤلاء الإداريون فى سبيل توقيعات على عرائض مزيفة تستنكر اتفاقية السودان ،. والتى تنص على خروجهم فى مدى ثلاث سنوات يتم خلالها سودنة وظائفهم .

٣ — تنبيه الأذهان إلى أسلوب رجال الإدارة والحاكم العام بالنسبة لتنفيذ الاتفاقية ، وهذا دفع المسئولين إلى مزيد من الحرص لحراستها وحمايتها من التلاعب . . وخاصة أن أول بند من بنودها ، هو إجراء انتخابات البرلمان السودانى ، كان وشيك التنفيذ .

٤ — مزيد من الجرأة فى انتقاد تصرفات الحاكم العام ورجاله إلى درجة أن ارتفعت الأصوات علانية مطالبة بإخراجهم من عملهم . . الأمر الذى لم يحدث من قبل على هذه الصورة فى تاريخ السودان .

٥ — إثارة حماس أبناء الجنوب للحكم الوطنيّ المقبل الذى وجدوا فيه خلاصا من هذا الطغيان الذى فرضه رجال الإدارة ومارسوه حتى بعد توقيع الاتفاقية . . مما أكد نواياهم العدوانية ورغبتهم فى فرض المزيد من السيطرة والسيادة .

وتنتهى مأساة الحكم الانجليزى فى السودان بالنسبة لموضوع بعثة المحامين المصريين لتبدأ بعده فصول أخرى منها .. ظلت تتوالى حتى كان خلاص البلاد من وجوده .

* * *

رحلة صلاح سالم :

تلاحقت الأحداث بسرعة فى جنوب السودان منذ توقيع الاتفاقية.. وكان بيان الحاكم العام الذى حرض فيه أبناء الجنوب للتمرد عليها . . ثم الخطة التى اتبعها رجال الإدارة الإنجليز فى المديريات الجنوبية لإرغام المواطنين على الثورة عليهم وإعلان سخطهم وتذمرهم منها . . وبعد ذلك هذه القضايا السياسية المتعددة التى اتهم فيها عدد من أبناء الجنوب . . ومنع بعثة نقابة المحامين السودانيين من السفر إليهم للدفاع عنهم ؛ كل هذا وغيره كان دافعا لثورة مصر أن تبعث بأحد رجالها وهو صلاح سالم إلى جنوب السودان لشرح الاتفاقية وتوضيح وجهة النظر السليمة للجنوبيين وكشف مادار من لغط حولها .

وصل صلاح سالم إلى جنوب السودان .. فى رحلة تاريخية؛ كشفت حقيقة الإدارة البريطانية وأرغمتها أن تقف عند حدها . . وأشعرت المواطنين الجنوبيين بأن هذا المدير أو المفتش الإنجليزى لم يعد إلها أبيض ، بل هو مجرد موظف يمتثل لأوامر رؤسائه . وهذا ماعمد الثائر المصرى إلى إظهاره حين كان يستدعى هذا المدير أو ذلك المفتش أمام جمع غفير وعاء وأبناء

الجنوب ويصدر إليه تعليمات ويعنفه على بعض التصرفات ولا يأذن له بالجلوس فى حضرته ، بل يتركه واقفاً ليتلقى الأوامر .

وخلال رحلة صلاح سالم التاريخية إلى جنوب السودان . . اتصل بعدد كبير من الزعماء والرؤساء من شتى القبائل .. وعاش مع أبناء الشعب حياتهم اليومية العادية وأمضى معهم أمسياتهم المرحة الراقصة .. بل شارك أبناء الدنكا فى رقصة الحرب المعروفة عندهم . . وقصارى الكلام ، عمل كل ما من شأنه تدعيم أواصر الصلة مع هؤلاء الذين لم يألفوا مثل هذا الاتصال .. ولم يروا فى حياتهم مسئولا كبيراً يحل بأراضيهم .

وكانت اجتماعات صلاح سالم بأبناء جنوب السودان فرصة لتدارس قضية وادى النيل وموقف الأحرار من الاستعمار البريطانى .. وشرح الشوط الذى قطعه ثوار مصر مع المفاوض الانجليزى والذى انتهى بتوقيع اتفاقية السودان ، ومكاسب أبناء الجنوب وأبناء الشمال على السواء بجلاء القوات المستعمرة فى مدى ثلاث سنوات . . وسودنة الوظائف وإجراء انتخابات تقرر مصير البلاد .

وقد وقع جميع سلاطين الجنوب وزعمائه وأهل الرأى فيهم على على وثيقتهم المشهورة التى قدموها لصلاح سالم قبل عودته إلى القاهرة والتى أيدوا فيها وحدة البلاد .. وأكدوا فيها رضاءهم الكامل عن الاتفاقية . . وإصرارهم الأكيد على رحيل الاحتلال الأجنبى والإدارة الدخيلة عن أرضهم . . والتزامهم بانتهاج سياسة وطنية خالصة ، لا تؤثر فيها المؤثرات السياسية أو الضغط الخارجى أياً كانت أساليبه ومهما كانت قوته .

وعاد صلاح سالم إلى القاهرة قبل نهاية شهر مارس ١٩٥٣ . وفى يده الوثيقة التى لوح بها لسلوين لويد وزير الدولة البريطانى وصانع المؤامرات فى جنوب السودان وضد الاتفاقية . . ولغيره من الذين أثاروا الفتنة

والتمرد على الاتفاقية بين أبناء الجنوب . . وأصبحت هذه الحجة الساطعة دليلا قوياً على وقوف أبناء الجنوب مع قوى التحرر الوطنى فى وادى النيل والتى انبثقت بقيام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر . . ثم مع إخوانهم أبناء السودان الشمالى الذين أيدوا هم الآخرين وقفة ثوار مصر ضد المفاوض البريطانى ، وكان ذلك حين وقع زعماء الأحزاب السياسية جميعاً على وثيقة تدعيم الاتفاقية فى شهر يناير من نفس السنة ليؤيدوا بها موقف المفاوض المصرى وهو يروض الأسد البريطانى العجوز على مائدة المباحثات . كما سبق أن أيد هؤلاء الزعماء موقف مصر فيما يختص بموضوع جنوب السودان الذى كان فى مقدمة جدول أعمال المفاوضات ودعموا وجهة نظرها التى أبدتها فى هذا الشأن .

لقد كان تحرك ثوار مصر فى وقت مناسب تماما لمجريات الأمور . . وكان لهم فى تحمسهم وشبابهم وثوريتهم حافزاً على ملاحقة الأحداث والتصرف فيها بذكاء وواقعية . ولم يكن فى هذا إلا المصلحة الوطنية التى لم يقبلوا فيها مساومة ، ولم يخشوا فيها ضياع منصب أو فقد مركز . . ولهذا كتب لهم النجاح وخرجوا من معركة الاتفاقية وقد حققوا النصر ، وليخوضوا بعد ذلك معركة الانتخابات وهم أصلب عوداً وأقوى مركزاً .

* * *

محاكمة السلطان جامبو :

لم يكد صلاح سالم يعود إلى القاهرة ومعه دليل رضاء زعماء الجنوب على اتفاقية السودان ممثلا فى توقيعاتهم على بيانات تؤيد هذه الاتفاقية وتباركها . . حتى نشطت الإدارة البريطانية للانتقام من هؤلاء الزعماء الذين تمردوا على وجودها . . وشقوا عليها عصا الطاعة حين قالوا الحقيقة وأيدوا الواقع .

وشهد جنوب السودان مؤامرة جديدة من مؤامرات هذه الإدارة ضد العناصر الوطنية وذلك حين أوعزت لبعض أفراد قبيلة المورو بمحاكمة زعيمهم السلطان جامبو بتهمة أنه وقع على العريضة التى تسلمها صلاح سالم من زعماء الجنوب وذلك دون أن يستشير السلطان رجال قبيلته .. ووقع هؤلاء الذين نصبتهم الإدارة البريطانية لمحاكمة السلطان قرارهم الذى يقضى بعزله من رئاسة محكمة القبيلة .. وهذا يعنى زوال القدر الأكبر من نفوذه ورفعوا هذا الحكم للمفتش الإنجليزى للتصديق عليه .

وقد كانت فترة محاكمة السلطان جامبو زعيم قبيلة المورو التى استغرقت حوالى أسبوعين حافلة بالنشاط السياسى فى السودان كله والذى كان يرقب هذه المحاكمة وكله تحفز ضد تصرفات رجال الإدارة الإنجليز . ووسط هذا الجو السياسى المتوتر ، رفضت الإدارة البريطانيـــة الطلب الذى تقدم به عدد من رجالات السياسة الشماليين لشهود هذه المهزلة التى دبرها الاستعمار وأعوانه لخنق الشعور الوطنى فى الجنوب وإصراره على مواصلة سياسته فى فصل جنوب السودان عن شماله . وظهر من ذلك التاريخ موضوع الانفصال فى صورة جديدة .. قوامها تشجيع الإدارة لكل متمرد على وحدة السودان ، وكل مؤيد لفصل الجنوب عن الشمال ولكل مطالب بمزيد من السلطات الحاكم العام ورجاله الإنجليز فى المديريات الثلاث الجنوبية .

وفى الوقت الذى شجعت فيه الإدارة البريطانية هذه الحفنة من المواطنين الذين ضللتهم الدعاية المغرضة وانساقوا وراء بريق المادة وسطوة الحاكم وإرهابه .. نرى هذه الإدارة تمارس سياسة الضغط والإرهاب على زعماء ورؤساء وأهالى جنوب السودان الذين يؤمنون بوحدة الجنوب والشمال ويوافقون على الاتفاقية

التى عقدت بين مصر وبريطانيا بشأن تقرير المصير والحكم الذاتى أو يبدى شعوراً وطنياً يخالف توجيهات وأوامر هؤلاء الاداريين الذين استبدت بهم العصبية .

وكان أبرز ملامح هذه السياسة الجديدة محاكمة الادارة البريطانية ومن أوعزت إليهم من الجنوبيين لزعيم قبيلة المورو السلطان جامبو الذى وقف موقفاً وطنياً كريماً .. ووجهت إليه تهمة عدم استشارة قبيلته قبل توقيعه على المذكرة التى سلمت لصلاح سالم . والاداريون البريطانيون يعرفون تماماً أنه من تقاليد الجنوب أن يمثل الزعيم أو السلطان أو الملك قبيلته .. وله الحق الكامل فى الكلام باسمها . وأنهم لمسوا هذه الحقيقة طوال خمسين عاماً ، وحين رأوا أن من مصلحتهم إلغاء هذا التقليد أنكروا ذلك .. وطبعاً كان المقصود بذلك تخويف السلاطين والزعماء والملوك من الخروج على تعليمات الادارة الانجليزية وسياستها فى الاعتراض على الاتفاقية وقيام وحدة جنوب السودان وشماله ، ونبذ كل تصرف وطنى يتجاوب مع الانتفاضة الوطنية التى قامت فى وادى النيل مؤيدة لثورة ٢٣ يوليو

ووضح لدى الجميع أن الادارة البريطانية فى الجنوب تزن الأمور بميزانين مختلفين ، ترجح فى الأول كفة العناصر المتواطئة معها ؛ المتعاونة فى صفوفها ، المنفذة لسياستها وتعليماتها وتبخس فى الثانى قدر الأحرار الوطنيين . وتجعل محاكمة السلطان جامبو وسلب قدر كبير من سلطاته فى محاكمة وهمية هزلية عبرة لمن يعتبر . . ودرساً لكل من يريد من الزعماء والسلاطين أن يقتفى أثره ويقدم على مثل تصرفه الوطنى الشجاع .

ورأت العناصر الوطنية فى الخرطوم والقاهرة أن تحتفى بالسلطان جامبو ، وتحيى فى موقفه الرائع شجاعة أبناء الجنوب فدعته لزيارة الخرطوم والقاهرة ، حيث لقى فيهما العديد من ألوان التكريم والتحية ..

واستقبل استقبال الأبطال المناضلين . وهكذا رد الثوار الأحرار على تهديد الادارة البريطانية للجنوبيين ، وأوضحوا لهم أنهم إذا كان هناك من يحارب تجاوبهم وانطلاقهم إلى آفاق الحرية فى إطار الوطن الموحد.. فإن هناك من يساندهم ويشد أزرهم ويقدر مواقفهم النبيلة فى سبيل الحق والوطن والواجب . .

* * *

الانتخابات :

ورغم محاولات الادارة البريطانية عرقلة تنفيذ الاتفاقية فى السودان عامة.. وفى جنوبه خاصة والجهود المستميتة التى بذلتها فى هذا السبيل .. إلا أن التيار الوطنى كان جارفاً وحراس الاتفاقية كانوا أقوى من أن ينهاروا أمام هذه المحاولات . . بل خرجوا منها أصلب عوداً وأقوى شكيمة وإصرارا على تنفيذها فى كل صورها وبنودها. وكان فى مقدمة هذه البنود إجراء انتخابات لأول برلمان سودانى المكون من مجلسى الشيوخ والنواب .

وأسقط فى يد الادارة البريطانية وفى قمتها الحاكم العام، ورأوا أن هذه الانتخابات سوف تجرى لا محالة، وأنه مادام الأمر كذلك فلا مانع من تعويقها ووضع العراقيل أمامها، ومن هنا كان قرار الحاكم العام بتجديد قانون المناطق المقفلة.. متحدياً بذلك بنداً هاماً من بنود الاتفاقية والذى قال بوحدة السودان وأنه لا شمال ولا جنوب .

وقد قصد الحاكم العام بإحياء هذا القانون الغريب مرة أخرى. وتجديد سريانه ، إلى تحقيق عدة أهداف . تخدم كلها المصالح الاستعمارية وتؤيد السياسة البريطانية القديمة فى فصل الجنوب عن الشمال، وهذه الأهداف هى:

أولا: منع سفر السودانيين من أبناء الشمال إلى مناطق الجنوب للتفاهم مع

مع إخوانهم هناك على أسلوب العمل أثناء هذه المرحلة الحاسمة فى تاريخ السودان المعاصر .

ثانيا : الحيلولة دون ذهاب رجال الأحزاب والسياسيين إلى الجنوب للدعاية الانتخابية وتحذير المواطنين مغبة الانسياق وراء الدعاية المضللة التى نشطت العناصر المعادية فى بثها ونشرها بين الصفوف .

ثالثا إعطاء مزيد من السلطات الدكتاتورية لحكام الأقاليم وهم من الإنجليز لنشر روح الخوف والفزع بين المواطنين الذين ينشدون الانطلاق إلى آفاق التحرر ، والتجاوب مع العناصر الوطنية ؛ وممارسة أسلوب جديد فى التحكم والبطش بهؤلاء الأحرار .

رابعا : عزل الجنوب عن الشمال بستار حديدى يحول دون التقاء الشمال والجنوب فى مرحلة حاسمة من تاريخ البلاد .

وتساءل الناس .. كيف يجرؤ الحاكم العام على إحياء قانون المناطق المقفلة ؟! وكيف يختار هذا الوقت الدقيق بالذات ليقيم لونا من ألوان الفرقة والانقسام وتمزيق أوصال الوطن الواحد ؟ ! وأين الاتفاقية التى تقضى بوحدة السودان وجعله وحدة إقليمية متكاملة ؟ . وإذا كان قانون المناطق المقفلة قد صدر فى يوم من الأيام حتى لا يقف أبناء السودان صفا واحدا أمام الاستعمار وليعمل على عرقلة النمو السياسى والاقتصادى للسودان .. فان الوقت لا يسمح إطلاقا بتجديد هذا الأمر .

وارتفعت الأصوات فى كل مكان تهاجم هذا التصرف الذى أقدم عليه الحاكم العام . وبعث المواطنون إلى رئيس لجنة الانتخابات الدكتور سوكومارسن وهو من أبناء الهند يشرحون له أبعاد هذه الجريمة ، ويقارنون بينها وبين ما كانت يفعله الإستعمار فى بلاده .. وأنه لا يرضيه أن تجرى

انتخابات فى ظل قانون يحظر اتصال أبناء السودان الشمالى بأبناء جنوب السودان .

ورغم هذه الإجراءات التى اتخذها الحاكم العام . . والمؤامرات التى دبرها رجاله حتى يؤثروا على سير الانتخابات .. فان كل هذا لم يقف حائلا دون قيام نشاط ضخم من جانب الأحزاب والشعب السودانى لخوض تلك المعركة التى كان يتنازعها اتجاهان .. أحدهما اتحادي والآخر استقلالى . وكان الوضع فى جنوب السودان جزءاً من هذه الصورة الكبيرة للمعركة .. وإن كان مغايراً بعض الشيء فى طريقة إجراء الانتخابات ،

فقد نصت الاتفاقية على الطريقة التى ستجرى بها الانتخابات فى الجنوب والتى عرفت بطريقة الانتخابات غير المباشرة وهى على الوجه التالى :

تجرب انتخاب غير مباشرة على درجتين — أنتخاب أولى وانتخاب ثانوى ... توجد فى كل دائرة من دوائر الجنوب وحدة انتخاب تتكون من الأعضاء المذكورين بعد :

١ — من واحد إلى عشرين مندوبا من كل عمودية أو وحدة انتخاب إدارية عائلة حسب عدد سكانها فينتخبهم الناخبون من ذوى الأهلية فى تلك العمودية أو الوحدة الإدارية ، أما بإعطاء أصواتهم أو بالموافقة العلنية .

٢ — مندوب أو أكثر من أية مدينة تقع داخل الدائرة التى أذن لها مدير المديرية بإجراء الاقتراع السرى فى انتخابات الحكومة المحلية حسب عدد سكانها بالنسبة لسكان بقية الدائرة على أن ينتخب المندوبون بالاقتراع السرى بواسطة الناخبين ذوى الأهلية الذين يسكنون تلك المدينة .

ب ٣ – تتكون انتخابات الدرجة الأولى لانتخاب المندوبين لتكوين الوحدة الانتخابية .

٤ – تكون انتخابات الدرجة الثانية عبارة عن انتخاب العضو الذى يمثل الدائرة بطريقة الاقتراع السرى بواسطة الوحدة الانتخابية على أن يحدث ذلك فى اليوم المعين أو الأيام المعينة للانتخاب فى تلك الدائرة .

٥ – لا يجوز للشخص تمثيل هذه الدوائر إلا إذا أقام مدة لا تقل عن سنتين خلال السنوات العشر الأخيرة بالمديرية التى تقع داخلها الدائرة .

٦ – يستمر انتخاب الوحدة الانتخابية إلى حين انتهاء مدة مجلس النواب أو حله ، أى بمعنى أن الانتخاب الفرعى يستلزم إجراء انتخاب جديد فى الدرجة الثانية فقط بواسطة نفس الوحدة الانتخابية كما حدث فى الانتخاب السابق . . وإذا أريد إجراء انتخاب فرعى يشغل أى مكان شاغر عرض على الوحدة الانتخابية بانتخاب وفق أحكام الفقرة الملائمة .

٧ – يجوز للجنة الانتخابات بمحض تصرفها فى تلك الدوائر – إذا رأى ذلك مناسبا – أن يعلن بأمر منه عدم إجراء انتخاب الدرجة الأولى وأن تتكون الوحدة الانتخابية من هيئة حكومية محلية أو فى حالة عدم وجود هيئة حكومية محلية واحدة تشمل تلك الدائرة أن تتكون الوحدة الانتخابية من ممثلى الحكومة المحلية الذى يعينهم مدير المديرية بمحض اختياره لذلك الغرض .

• • •

وبدأت معركة الانتخابات للبرلمان السودانى بمجلسيه ، الشيوخ والنواب . وشهدت مديريات الجنوب صراعا مريرا فى اثنتين وعشرين دائرة

للشيوخ دخلها أعداد يمثلون القوى المتصارعة . . ووضح منذ الوهلة الأولى أن الغلبة والانتصار سيكونان من نصيب القوى الوطنية المتحررة . . وأسفر هذا الصراع العنيف عن هزيمة ساحقة للاستعمار الانجليزى والإدارة البريطانية ، ونصر مؤزر لدعاة الوحدة الذين خاضوا المعركة وهم أصلب عوداً وأشد تماسكا .

وانتهت معركة البرلمان إلى ما انتهت إليه . . وأعقبها تشكيل أول وزارة وطنية فى تاريخ السودان فى شهر يناير ١٩٥٤ وكان من وزرائها ثلاثة من أبناء الجنوب . . اختيروا لمشاركة إخوانهم أبناء الشمال فى رسم مستقبل البلاد وتحديد مسيرتها . . وليبدأوا عهدا جديد يقررون فيه مصير السودان .

* * *

الفصل الرابع

العهد الوطني وأحداث جنوب السودان

قام العهد الوطنى فى السودان فى صورته الكاملة بعد الانتهاء من تشكيل أول وزارة وطنية برئاسة إسماعيل الأزهرى فى شهر يناير عام ١٩٥٤ .. وكان قد سبق هذه الخطوة ، سودنة الوظائف ثم إجراء الانتخابات للبرلمان السودانى الجديد . . والتى فاز فى دوائره عدد من أبناء جنوب السودان كان بعضهم ينتمى إلى حزب الأحرار الجنوبى .. والبعض الآخر كان من أنصار الأحزاب القائمة آنذاك . والمعروف أن عدد مقاعد الجنوب فى مجلس النواب كان ٢٢ دائرة .. وفى مجلس الشيوخ ثمان دوائر .

وقد دخل نواب الجنوب إلى البرلمان ، وهم يحملون مطالب ناخبيهم الذين هدفوا إلى تحقيقها فى مستهل هذا العهد الجديد . ووجد بعضهم أن أسلم وسيلة إلى ذلك هو أن تتعهدها أحد الأحزاب القوية وتواصل مساعيها لدى الحكومة حتى يتحقق كلها أو بعضها ، والجناح الآخر من النواب رأى أن يقفوا بعيدا عن مشاكل الحزبية والأحزاب أولا إلى أن يتضح أيها أقوى وأقدر على إجابة مطالب الجنوبيين . . وفى هذه الحالة فقط يتم التضامن معه . واستقرار رأى غالبيتهم على هذا الحل الأخير . وكان الحزب الوطنى الاتحادى هو صاحب الغلبة والإمكانيات وتنطبق عليه الشروط التى وضعها نواب الجنوب للتضامن والتعاون معه . وبالإضافة إلى ذلك فان زعيم ذلك الحزب ورئيس الوزارة القائمة آنذاك ، السيد إسماعيل الأزهرى كان قد تعهد فى بيانه الانتخابى على أن يترك الجنوب يدير شئونه بنفسه . . ومن ثم أصبح لزاما عليه الوفاء بوعده .

ووسط هذه الظروف .. كان الاستعمار قد رسم مخططا سياسيا لمستقبل جنوب السودان ، يرمى إلى إيجاد أى نوع من البلبلة أو الاضطراب فى ربوعه خلال تلك الفترة . هذا الاضطراب يهدد بانهيار دستورى أو يشكل خطرا على الأمن العام تمكن بمقتضاه لبريطانيا أن تتحلل من تنفيذ الاتفاقية

أو الالتزام بها. وكان تركيز الاستعمار على الجنوب بوصفه المجال الطبيعى لتلاعبه بعد أن ظل فى قبضته أكثر من خمسين عاما . . فإذا ما نجح فى عرضه سيكون هذا سبباً فى استمرار وجوده، وعلى هذا أصبح من المتوقع حدوث تطورات فى أى وقت . . وعلى أرض الجنوب بصفة خاصة .

وكان أول صيد فى الماء العكر .. موضوع سودنة الوظائف . . فقد انتهز الاستعمار والعناصر الضالة معه فرصة تشكيل لجنة السودنة وبدايتها لأعمالها حتى استغلوا مواطن الضعف فى تصرفاتها والأخطاء التى وقعت فيها، ولم تكد تمر أيام قليلة على قيام اللجنة بأعبائها . . حتى كانت الشائعات تملأ أنحاء المديريات الجنوبية الثلاث بأن أبناء الشمال هم الذين يستأثرون بكافة الوظائف وهم فى سبيل استعمار أبناء الجنوب لمائة سنة أخرى . . ومن المعروف أن الجنوبيين لم يكونوا ممثلين فى تلك اللجنة كما كانوا ممثلين فى لجنتى الحاكم العام والانتخابات .

وانتشرت هذه المسألة بين أبناء الجنوب انتشاراً سريعاً شعر به الرجل فى الغابة وعضو البرلمان سواء بسواء . وعمق الاستعمار الذى كان لا يزال يباشر نشاطه عن طريق الارساليات ـ هذا المفهوم فى عقول الجنوبيين . ومن هنا كان مبدأ تدهور العلاقات بين أبناء الوطن الواحد فى الشمال والجنوب ولم تستطع الحكومة أن تبعث من العاصمة من يشرح لأبناء الجنوب حقيقة الأمور . . وينفى مزاعم الاستعمار ، الأمر الذى أصبح يشكل خطراً على مستقبل العلاقات بين الطرفين .

وفى أوائل عام ١٩٥٥ قرر رئيس الوزراء أن يزور الجنوب حتى يقرر بنفسه حقيقة الموقف هناك ، واقترح فى خطابه الذى ألقاه فى مدينة جوبا عاصمة المديرية الاستوائية زيادة مرتبات الجنوبيين، كما أعلن السيد إسماعيل الأزهرى للجنوبيين أن حكومته حكومة انتقالية ، عليها أن تنفذ الاتفاقية المصرية الانجليزية بشأن الحكم الذاتى للسودان وتقرير مصيره . وأنها

ـحرص كل الحرص على عدم مخالفة نصوصها التى جاء فيها أن السودان كل لا يتجزأ، وأن الحكومة لن تتهاون فى هذا الصدد، وأن لديها الجيش والبوليس وكافة أنواع القوة التى تساند موقفها . وقد اعتبر زعماء الجنوب هـذا الموقف من الحكومة ومن رئيسها تهديداً صارخاً ضدهم باستعمال القوة وتراجعا عن الوفاء بالعهد ، وتخليا عن موقف المساندة والتأييد لمطالبهم . فـكان هذا التصرف مبادرة سيئة فى العلاقات بين الطرفين .

وفى شهر يوليو عام ١٩٥٥ قرر حزب الأحرار الجنوبى عقد اجتماع فى جوبا ليبحث أمر اتحاد الجنوب مع الشمال فى ظل حكومة اتحادية. وقدم النواب طلباً بالتصريح لهم بعقد ذلك الاجتماع. ورأت الحكومة أن الموافقة عليه وسط تلك الظروف سوف يؤثر على مستقبل العهد الوطنى كله تأثيراً سيئاً .. وعلى هذا الأساس قررت تأجيل عقده. واستغل الاستعمار فرصة التأجيل ليطل برأسه من جديد وينشر الشائعات بأن الحكومة رفضت عقد الاجتماع لأنها غير مؤمنة بمطالب الجنوبيين .

وعاش جنوب السودان كله تلك الأيام وسط دوامة هائلة من الاشاعات المغرضة عن موقف الحكومة وأبناء الشمال من قضية الجنوب . والأقاويل غير الصحيحة عن نواياهم نحوهم . وأحكم الاستعمار وأعوانه سبك هذه الشائعات ونشرها على نطاق واسع لدرجة أن الأذهان كلها أصبحت مهيأة لتأويل أى تصرف وتفسير أى أمر بأ كثر مما يحتمل . فـكان هذا الاستعداد النفسى عند أبناء الجنوب هو الركيزة التى انطلقت منها فتنة الجنوب المشهورة. يوم رفع التمرد . . وواجه السودان مشكلة خطيرة وهو لا يزال يخطو خطواته الأولى فى طريق الاستقلال . . وأصبحت هذه المشكلة تهدد مسيرته نحو التقدم والرفاهية .

* * *

وقوع التمرد :

وفى منتصف شهر أغسطس من عام ١٩٥٥ وقع التمرد فى الجنوب والسودان يستعد لتنفيذ مرحلة جديدة من المراحل التى نصت عليها اتفاقية السودان ، ويحصل على مكسب آخر من المكاسب التى حققتها له . ففى ذلك التاريخ حدثت بداية المأساة التى استمر السودان يعانى من آثارها الشىء الكثير حتى اليوم . . وذلك حين تمردت الفرقة الجنوبية من الجيش السودانى وانضم إليها أبناء الجنوب ضد الحكومة عامة وأبناء الشمال بصفة خاصة .

وتفاصيل هذه القصة .. بدأت والسودان يتخذ الترتيبات للاحتفال بجلاء آخر جندى أجنبى عن أرضه . . ورفع العلم السودانى على المعسكرات والثكنات التى كانت تشغلها القوات الأجنبية . ورؤى أن تشارك قوات من مختلف الوحدات من كل أنحاء السودان فى العرض العسكرى الذى سيقام لهذا الغرض فى الخرطوم . وكان من بينها عدد من أفراد القوة الموجودة فى الجنوب . والمعروفة باسم الفرقة الجنوبية ومركزها جوبا . وصدرت التعليمات إلى القوة الموجودة فى توريت أحد مراكز المديرية الاستوائية للتوجه إلى جوبا بالسيارات ليتم نقلها بعد ذلك إلى العاصمة للمشاركة فى هذا الغرض حتى يتخذ الاحتفال صورة المشاركة الجماعية من قوات الجيش .

وهنا يلعب الاستعمار دورة الخطير لينفذ ما كان يهدف إليه من بعثرة وحدة الوطن السودانى وتحقيق أمله فى فصل السوادان الجنوبى عن الشمالى . أطلق شائعات كاذبة عن أسباب استدعاء الفرقة الجنوبية إلى الخرطوم .. مدعياومؤكدا أنها منقولة للقصاص منها هناك ..وتنفيذ إجراءات انتقامية ضدهاوربما كان الإعدام إحدى وسائلها . وانتشرت هذه الشائعات الكاذبة انتشارا هائلا على أيدى القساوسة ورحال الارساليات

وهم أدوات الاستعمار الباقية فى الجنوب . واشترك معهم عدد من رجال الإدارة الانجليز ممن سودنت وظائفهم وانتهت مدة خدمتهم . . والذين عادوا مرة أخرى إلى جنوب السـودان فى أزياء القساوسة والمبشرين .

ووجدت هذه الشائعات المغرضة سبيلها إلى صفوف قوات الجيش فى الجنوب وانتشرت على أنها حقيقة أكيدة صدقها الجنود بما عرف عنهم من الفطرة الطبيعية . وتكهرب الجو . . وأصبح برميل البارود الممتلىء ينتظر الشرارة التى تفجره وبادر الجنود إلى إعلان رغبتهم فى عدم المشاركة فى احتفال الخرطوم ، ولكن القيادة أصدرت تعليماتها بضرورة تنفيذ الأوامر ، فكان لزاما على قوات توريت البالغ عددها حوالى ١٧٠٠ ضابط وجندى أن تتوجه إلى جوبا . . وتم صرف السلاح الذى سيظهرون به فى العرض العسكرى .

ولما كان الجنود فى حالة شك فظيعة من حقيقة مهمتهم . . فقد رأى بعضهم أن يحتاط للأمر فطلب من الضباط صرف الذخيرة لما يحمل من سلاح . وانتشر هذا الطلب بسرعة البرق بين صفوف الجنود الذين هددوا مرة أخرى بعدم السفر مالم يصرف لهم ذخيرة . . وكان رفض الضباط داعيا لزيادة شكهم فى الأمر وتصديقهم لما قيل فى أمر هذا السفر .

ووسط هذه الدوامة من سوء التفاهم . أشيع بين صفوف الجنود أن ضابطا شماليا أطلق الرصاص على جندى جنوبى فقتله . فزاد هياج الجنود وتدافعوا إلى مخزن الذخيرة واستولوا على ما كان فيه من أسلحة وعتاد . وانطلقت الشرارة تفجر برميل البارود ليكون هذا التصرف مفتاح حركة التمرد التى بدأت بالتحام شديد بين الجنود وضباطهم سقط فيها عشرات القتلى والجرحى .

وما هى إلا برهة يسيرة . . حتى عرف جنوب السودان كله ماذا حدث فى

توريت بصورة مضخمة . وصادف الخبر وقعه السيء فى نفوس الجنود بصفة خاصة وهم يستعدون للسفر إلى الخرطوم . وسرعان ما امتد العصيان والتمرد من صفوف الجيش فى الجنوب إلى صفوف الأهالى فخرجوا فى ثورة عارمة .. هاجموا فيها مراكز الإدارة ومساكن أبناء شمال السودان ومتاجرهم . وأعمل فيها المتظاهرون المسلحون القتل والحرق ، الذى ذهب ضحيته عدد من الضحايا الأبرياء وفقد الكثير من الممتلكات والمنقولات والبضائع .

هذا موجز سريع لمقدمة أحداث التمرد التى أخذت مشاهدها على مسرح الأحداث فى جنوب السودان منذ شهر أغسطس ١٩٥٥ . واستمرت تخبو تارة وتشتعل تارة أخرى تغذيها الصهيونية والامبريالية والاستعمار . وتدميها الجمعيات ذات النشاط المشبوه ، ويدعمها كل من آل على نفسه تعميق الهوة بين الجنوب والشمال وخلق جو من الاكفهرار والقتال بين أبناء الوطن الواحد .. وهم يستقبلون عهد التحرر والانطلاق إلى آفاق التقدم .

صدى أحداث الجنوب :

وكان للحوادث الدامية التى وقعت فى مدينة توريت بالمديرية الاستوائية والتى أدت إلى ثورة الجنود الجنوبيين .. واقتحامهم مخازن الذخيرة واستيلاؤهم عليها وهجومهم على مراكز قيادتهم ، كان لها وقع سيء على المسئولين فى العاصمة السودانية الذين كانوا يعدون العده للاحتفال بأعياد جلاء القوات الأجنبية عن البلاد . وروعت الحكومة بأمر تمرد الجنود فى الجنوب وما تبعه من انضمام الأهالى إلى الثوار .. والالتحام الدموى مع الشماليين والذى سقط فيه عدد من الضحايا .

ورأت الحكومة أن استفحال هذه الثورة دون علاج سيؤدى إلى عواقب وخيمة وسيعكر الصفو على السودان وهو يستعد للاحتفال بعيد كبير من أعياد تحرره وهو خروج القوات الأجنبية عن أرضه ورفع العلم

السودانى . ورأت الحكومة أن تعمل على تهدئة الجو حتى تتاح الفرصة لحسم النزاع .. وأصدرت بالفعل أوامرها إلى قوادها فى الجنوب بعدم استعمال العنف حتى لا تزداد الحالة سوءاً .

. فى هذا الوقت .. كان الجنوبيون قد أعدوا العدة للاستيلاء على مدينة جوبا ، مركز رئاسة القوات ليواصلوا قتالهم ضد الشماليين. وحشدوا لهذا الغرض قواتهم لاقتحام المدينة من جميع المداخل المؤدية إليها .. والتى جمعوها من أنحاء المديريات الثلاث . ووضح للقيادة أنه ليس من المقدور كبح جماح الثوار. وأصبح أمام هذه القيادة إما الرضوخ للجنوبيين فيكون تنفيذ خطتهم فى الاستيلاء على جوبا قد تحقق .. وإما أن يقاوموا هذه الخطة ويحتفظوا بجوبا بكل الوسائل . وكان أن أرسلت امدادات قوية من كافة المديريات القريبة من الجنوب وتوجهت إلى مسرح القتال لتدعم القوات الحكومية المتمركزة فى العاصمة الاستوائية ، وحضرت هذه القوات على وجه السرعة ؛ لتتم بذلك المحافظة على هيبة الحكومة ومركزها .

وشاءت الظروف أن تخدم موقف المتمردين . وذلك حين انحازت الطبيعة إلى جانبهم فاشتد سقوط الأمطار نظراً لأن موسم الخريف كان قد بلغ ذروته . ولقد قطعت الأمطار الشديدة الطريق ولم يعد من المتيسر سير العربات وتحرك القوات العسكرية التى اكتفت بالبقاء فى مركز القيادة بجوبا دون أن تتمكن من أداء واجبها . وكان نتيجة لذلك نشاط هائل للمتمردين فى كل أنحاء الجنوب ، وتعزيز موقفهم بالسلاح والذخيرة التى وصلتهم من بعض الجهات عبر الحدود . وكانت قوات الحكومة فى هذه الأثناء تقف مكتوفة الأيدى تنتظر انتهاء الأمطار لتبدأ هى أخرى فى تحركها .. ولتنفذ المخطط المرسوم للقضاء على هذه الفتنة .

وإلى أن تتمكن الحكومة من وضع الأمور فى نصابها .. بدأت عملية ترحيل

أبناء الشمال عن الميدان حتى لا يكون فى وجودهم مايساعد على عمليات الاستفزاز والتربص التى سادت العلاقات بين الطرفين . وقام المسئولون بمحاولات لترحيل هؤلاء إلى جوبا وإلى أماكن أخرى أكثر أمناوسلاما . وكان هذا الإجراء الحكيم سبباً فى الحفاظ على أرواح الكثيرين كما ساعد على وقف الإحقاد عند حدها . . وكانت فرصة أمام الطرفين ؛ الحكومة من جهة والمتمردين من جهة أخرى لتدبر موقفهما . فالحكومة مصرة على إخماد الفتنة وتدعيم مركز قيادتها فى جوبا . . والمتمردون يوسعون دائرة نشاطهم وينتشرون فى أنحاء المديريات الثلاث . . يساعدهم ويشد أزرهم المتربصون باستقلال السودان . المتآمرون على وحدته ، العاملون على فصله إلى جنوب وشمال .

وانتهى الخريف .. وبدأت قوات الحكومة تنشط وتتحرك بسرعة.. فى محاولة إنهاء التمرد والقبض على المتمردين . وقد قامت هذه القوات بعدة حملات على المناطق التى يتمركزون فيها وتمكنت هذه القوات من تتبعهم وتشتيت تجمعاتهم وإرغامهم على الفرار . وكان هذا الإجراء إخمادا وقتياً للتمرد . . فلم يتم حسم الأمر مما أدى إلى عودة المتمردين إلى التجمع مرة أخرى فى الغابات والأماكن التى لا تصلها قوات الحكومة وذلك لإعادة تنظيم صفوفهم من جديد .

* * *

لجنـــة للتحقيق فى الحوادث :

وأعلنت الحكومة فى الخرطوم بعد إحراز هذا الكسب المؤقت على المتمردين ، أنها بصدد إرسال لجنة للتحقيق فى الحوادث الدامية التى وقعت فى الجنوب، وذلك كإجراء لمعاقبة المتسببين فى هذا الأمر المؤسف، وكان اعلان الحكومة هذا قد قصد من ورائه تهدئة الخواطر ، وإيجاد جو يحسن معه التفاهم

مع أبناء الجنوب . وتم تشكيل هذه اللجنة فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٦ ، وكان الجيش آنذاك قد استولى على مقاليد الأمور فى المديريات الثلاث بعد جهد كبير بذله الفريقان المتصارعان .

وبدأت لجنة التحقيق أعمالها فى الخرطوم حيث استمعت لشهادة الذين قدموا من مناطق الجنوب أثناء التمرد . ثم رأت أن تنتقل بعد ذلك إلى جوبا ؛ ومنها تدخل جميع المدن الرئيسية فى المديريات الجنوبية الثلاث لأخذ صورة كاملة عن الأحداث ، وكيف وقعت ؟ . ولماذا وقعت ؟ . ومن المتسبب فى وقوعها ؟ . وأمضت اللجنة فى الجنوب أكثر من نصف عام تتقصى الحقائق وتحاول تحديد المسئولية ؛ وتفكر فى اقتراح الطريقة المثلى لإنهاء التمرد .

وبعد أن انتهت اللجنة من مهمتها ؛ ظهرت الحقائق الهامة الآتية :

١ — كان الجنوبيون يعتقدون أن خروج الانجليز من المديريات الجنوبية يعنى توليهم الوظائف التى كان يتولاها هؤلاء . ولما كانوا غير مؤهلين فعلا لتولى هذه الوظائف . فإن الحكومة قد اضطرت إلى تعيين عدد من أبناء الشمال فيها . ولكن الشائعات صورت هذا التصرف لأبناء الجنوب تصويراً خاطئاً . . وأفهمتهم أن العهد الوطنى ليس إلا استبدال سيد بسيد .

٢ — استياء أبناء الجنوب من سياسة الحكومة فى سودنة الوظائف جعلهم على استعداد لتصديق الدعايات والشائعات التى روجها رجال الإرساليات من أن الحكومة السودانية قد استبدلت الاستعمار الانجليزى للجنوب . باستعمار من أبناء الشمال له ، وقد صدق هذا الزعم عدد كبير من الجنوبيين

١ — طموح الجنوبيين للحصول على ما يعوضهم عن ماض حافل بالظلم والاضطهاد من حاضر يتولى زمامه أبناء السودان نفسهم . وكانوا

يعتقدون أن هذا التعويض سيتم فور خروج الانجليز ، وبالطبع كان هذا مستحيلا . . وكان أحد عوامل تذمرهم .

٤ — انسياقهم وراء تصديق الدعايات والاشاعات المغرضة التى رسمها ونفذها الاستعمار والتى انطلقت من خبراء درسوا الجنوب وعرفوا طباع أهله .

٥ — اتساع الحدود الجنوبية واتصالها بعدد من الدول . مما جعلها عرضة لفرار المتمردين إليها والتجائهم فيها . وفى نفس الوقت . ساعد هذا الوضع على وصول الأدوات والأسلحة والذخيرة إليهم لمواصلة تمردهم .

٦ — رأت اللجنة أن تسارع الحكومة فى تعيين أبناء الجنوب فى عدد من الوظائف التى تتفق مع خبرتهم أو مؤهلاتهم وذلك تداركا للموقف ،

والدور الذى قامت به لجنة التحقيق لم يقتنع به من أبناء الجنوب ، وبات من المنتظر حدوث تطورات جديدة فى هذا النزاع .

كما أسفرت محاكمة المتمردين ، سواء من العسكريين والمدنيين ، عن ظهور عدد من الحقائق والاعتقادات كانت أسباباً حقيقية فى وقوع التمرد . وفى إحدى المذكرات التى نشرت فى الخرطوم عن مبررات هذا التمرد جاء عن أسبابه ما يأتى :

١ — أن التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى الجنوب خلق هوة سحيقة بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب لا يمكن تجاوزها عن طريق التكامل.. وإنما يمكن حسمها عن طريق الانفصال .

٢ — أن مباحثات القاهرة التى جرت قبل الاتفاقية والتى حققت استقلال السودان لم يشارك فيها أحد من الجنوبيين بأية صورة

٣ — أن الفروق العنصرية والدينية والثقافية بين الشمال والجنوب تشكل

عوائق صحمه تحول دون تعايش القوميات فى الجنوب والشمال فى إطار سودان موحد .

وقد فسرت المذكرة هذه الأسباب بأنها رغم موضوعيتها من وجهة نظر الانفصاليين الجنوبيين ، فانه لايمكن أن ترقى لمستوى مبررات مقبولة لتفجير التمرد أو تحقيق الانفصال .

فالتخلف الذى يعيش فيه الجنوب يعانى منه الكثير من مناطق الشمال والشرق والغرب فى السودان . وكان هذا التحلف بفعل السياسة البريطانية أكثر من نصف قرن . كما أن الاستعمار نفسه من خلال أسلوبه فى فصل الجنوب عن الشمال .. حال دون اشتراك أبناء جنوب السودان فى الحادثات التى جرت بخصوص تقرير مصير السودان ، مستفيدا من حقيقة انعزالهم عن المعترك السياسى ضده . كذلك فإن الفروق العنصرية بين الجنوبيين والشماليين تبدو فى مجموعها أقل بكثير من الفروق المحلية بين القبائل المختلفة فى جنوب السودان .

وأوضحت المذكرة أن وراء هذه المبررات جميعها يقف التعصب الدينى ومعاداه الإسلام والمسلمين ، والمخطط الذى نجح الاستعمار بمعاونة رجال الارساليات فى فرضه على الجنوبين وخاصة بين الطبقات المثقفة منهم . هذا بالإضافة إلى أن حالة التخلف الفظيع الذى خلفه الاستعمار فى الجنوب .. قد أدى إلى انعدام أية صورة من صور النشاط الاقتصادى أو أية مقومات أخرى يمكن أن تكون مصدرا لدخل قومى ، يكفل كياناً مستقلا فى الجنوب . هذا الأمر الذى يشير بجلاء إلى أن قادة الانفصال مدفوعون أساسا فى حركتهم بمؤثرات خارجية أعمتهم عن إدراك الظروف الموضوعية المحيطة بهم .

ومن هنا فإن بعض المتمردين الذين لجأوا إلى الغابات أو هاجروا خارج الحدود هرباً من المحاكات .. تمكنوا من استقطاب بعض العناصر الانفصالية

من الجنوبيين مشكلين بذلك النواة الأولى لحركة الخوارج المنظمة والتى بدأت فى التطور على أساس أرضية سياسية انفصالية .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر والترقب .. تردد فى مديريات الجنوب خبر جاء فيه إن رئيس الوزراء انذاك السيد عبد الله خليل قد بعث ببرقية إلى المديرين ، يطالبهم فيها بالحزم والشدة ضد الجنوبيين. وكان هذا الأمر داعيا إياهم إلى المزيد من الحرص والخوف . واستغل رجال الارساليات هذا الأمر ليكونوا عوناً لهم على تعميق الهوة بين أبناء الجنوب وأبناء الشمال .. وليواصلوا سياستهم فى تشجيع التمرد وتغذية العصيان . وإتاحة الفرصة لتمرد جديد قد يؤدى فى نظرهم إلى تحقيق أملهم فى فصل جنوب السودان عن شماله .

فى أعقاب التمرد :

وعقب الإخماد الوقتى لحركة التمرد وهدوء الحالة فى الجنوب بعض الشىء تقدم بعض نوابه بمذكرة إلى الحكومة ومجلس النواب فى عام ١٩٥٥ يطالبون فيها بالموافقة على إجراء استفتاء فى الجنوب لتقرير مصيره . . على أن يجرى هذا الاستفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة .. أو أن تقوم به هيئة الصليب الأحمر بدراسة الموقف هناك وتقديم تقرير عنه إلى الأمم المتحدة .

غير أن هذا الطلب قد رفض تماما لأنه يتنافى مع وحدة الوطن السودانى وما نصت عليه اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ من أن السودان لا تتجزأ. وأن موافقة البرلمان أو الحكومة على مذكرة الجنوبيين معناه الخروج على روح الاتفاقية ونصها . . كما أنه يوسع الهوة بين المواطنين فى البلد الواحد.

ومرت بالسودان بعد ذلك فترة دقيقة . فقد كانت البلاد تستعد للاحتفال بيوم الاستقلال. ولم يكن من المستطاع أن يشارك الجنوب فى هذه الاحتفالات

ولم يمض على الأحداث الدامية التي وقعت فيه أثناء التمرد سوى شهور قليلة . ورأت الحكومة ونوابها في البرلمان أن يسحوا دموع الجنوبيين بعمل يتمشى مع مطالبهم ليكون احتفال السودان بالاستقلال احتفالا جماعيا . ومن هنا كان مبدأ احتضان المذكرة التي تقدم بها نواب حزب الأحرار الجنوبي والتي اقترحوا فيها قيام شكل من أشكال الحكم الاتحادي بين الشمال والجنوب . ورأى الجميع تهدئة خواطر الجنوبيين بإيجاد صيغة براقة للرد على هذه المذكرة . وبعد مداولات تمت الموافقة على النص التالي « إن قيام حكومة اتحادية بين الجنوب والشمال سيكون موضع بحث شامل » .

وفي الجلسة التي عقدها مجلس النواب السوداني يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٥، تمت الموافقة بالاجماع على هذه الصيغة . وابتهج أبناء للجنوب بهذا الحل الذي اعتبره المسئولون مسكنا وقتيا لمطالبهم . ومر الاحتفال بيوم الاستقلال في أنحاء الجنوب دون أن يحدث فيه ما يعكر الصفو .

واستقبل الجنوب عهد الاستقلال وهو يرقب الساعة التي تمتد فيها يد العون إليه .. سواء على صعيد مطالبه الاجتماعية أو أوضاعه السياسية . وكان أمل زعمائه كبيراً في تحقيق بعض ما يصبون إليه وخاصة الجناح المعتدل منهم . فهؤلاء رأوا في اهتمام الحكومة بأمر المديريات الجنوبية ما سوف يساعد على إنهاء نعرة الانفصال . . واختفاء نغمة الجنوب والشمال .

وأول نشاط لأبناء الجنوب في المشاركة في تخطيط مستقبل السودان .. كان في سبتمبر عام ١٩٥٦ . . حين دعت الحكومة لجنة وطنية لوضع مشروع دستور السودان يقدم بعد ذلك إلى البرلمان لأجازته . وتم تشكيل لجنة لهذا الغرض من العاملين في شتى المجالات من الجامعيين والنقابيين ومن يمثل الأحزاب والطوائف ..وقد بلغ عددهم ٤٦ عضواً من بينهم ثلاثة من أبناء الجنوب الذين اعترضوا في مبدأ الأمر على ضعف نسبة تمثيل

الجنوبيين فى تلك اللجنة . واستهلوا عملهم فيها بالامتعاض وعدم الرضا . ورؤى أن تنبثق لجنة من لجنة الدستور لدراسة الأوضاع فى الجنوب ومطالب أهله وخاصة فيما يتعلق بالحكم الاتحادى . وبعد أكثر من عام استغرقته الأبحاث والمداولات . . رأت أغلبية اللجنة الفرعية عدم الموافقة على فكرة قيام نوع من الحكم الاتحادى بين الجنوب والشمال . . الأمر الذى أغضب ممثلى الجنوب وقرروا الانسحاب منها . . بل ومن لجنة الدستور ذاتها .

واختفت قصة الجنوب من على مسرح السياسة السودانية خلال تلك الفترة وحتى قيام الانقلاب العسكرى فى نوفمبر عام ١٩٥٨ ، فقد كانت الأحزاب التقليدية مشغولة بالسلطة وتولى الحكم وتوزيع المناصب . وكانت الحكومة مشغولة هى الأخرى بالبقاء فى رئاسة الوزارة والحفاظ على مركزها ، وكان أبناء الجنوب فى واد والسلطة الحاكمة فى واد آخر .

وآخر محاولة قاموا بها فى البرلمان قبل أن يسلم هذا العهد مقاليد الأمور للسلطات العسكرية ؛ هو تقديم طلب جديد إلى مجلس النواب عن رغبة الجنوبيين فى إدارة شئونهم بأنفسهم . وأعلن المتحدث العسكرى الرسمى باسمهم فى جلسة المجلس يوم ١٩ يونيو ١٩٥٨ برغبتهم فى أن يتولوا الإدارة الداخلية فى مديرياتهم ويمارسوا الحكم من خلال السودان المتحد . كما أكد ذلك المتحدث بأنه ليس لديهم أية نوايا انفصالية عن الشمال . وكل مطالب الجنوب تتلخص إلى جانب الطلب السابق هو أن يقوم اتحاد فيدرالى مع الشمال لأن هذا المطلب فى نظر الجنوبيين أمر لا يمكن أن يتطرق إليه الشك . . لأنه يقوم على مبدأ حق تقرير المصير

ولم يصادف مطلب الجنوبيين استجابة لدى مجلس النواب أو مجلس الوزراء وإنما وضع على الرف إلى جانب المطالب التى سبق تقديمها . ولكون الجنوب قد

وصل إلى مرحلة متقدمة من مراحل غضبه ورغبة زعمائه فى اتخاذ موقف.. وما لبث أن وقع فى السودان ما صرف أنظار الناس جميعا فى الشمال والجنوب إليه .

الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٨ :

فى ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ شهد السودان مولد انقلاب عسكرى برئاسة الفريق ابراهيم عبود تسلم الحكم من الأحزاب التى كانت مسئولة عنه حتى ذلك التاريخ . ومع بداية هذا العهد فى السودان بدأت مرحلة جديدة من مراحل قضية جنوب السودان وارتباط مصيره بوحدة البلاد . .

فى مطلع الحكم العسكرى .. أصدرت الحكومة قرارا بإلغاء البرلمان السودانى ، وذلك تمشيا مع سياستها فى وقف النشاط الحزبى والقضاء على كل صور العمل السياسى . وكان نتيجة لهذا القرار أن سافر النواب والشيوخ إلى بلادهم وقراهم ، ومن بينهم أبناء الجنوب الذى استقر بعضهم فى مديرياتهم .، وفضل البعض الآخر ممارسة نشاطه خارج البلاد . . فهاجر إلى الدول المتاخمة لحدود إقليمه حيث انضم إلى معسكرات الانفصاليين . وهكذا خدمت الحكومة العسكرية حركة الانفصال والتمرد من حيث لا تدرى .

وفور وصول هؤلاء النواب والسياسيين إلى مناطق إقامتهم .. بدأوا يمارسون ألواناً من النشاط السياسى فى طليعته بحث مستقبل الجنوب . وبدأت مشكلة الجنوب التى كانت قد هدأت نوعا ما فى سنى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ تظهر مرة أخرى على مسرح الأحداث .

ومن المعروف أن مشكلة الجنوب كانت تخبو كلما ولى الحكم فى السودان حكومة تجاهر بعدائها للمبادىء الوطنية وعلاقاتها غير الطبيعية مع مصر.. وتظهر إذا كان الوضع غير ذلك . وكان من مظاهر تجددها فى أول أيام الحكم

العسكرى ما أعلنه قائد الانقلاب أنه ينوى إزالة الجفوة المفتعلةمع مصر والانطلاق بالسودان فى ركب الأحرار والمناضلين ، فكان هذا داعياً لظهور المتمردين مرة وانتعاش نغمة الانفصال التى كان يغذيها الاستعمار وأعداء التحرر والأهداف الوطنية .

واستطاع قادةالانفصال ان يستغلوا الموقف الجديدللحكومة العسكرية فى كسب عطف الحكومات المجاورة للسودان والتى كانت لا تؤيد قيام تيارات وطنية وحكومات تقدمية تقضى على الوجود الاستعمارى الذى كان مسيطرا على هذه الدول آنذاك . وبدأت هذه الحكومات فعلا تستجيب للانفصاليين وتمدهم بالمال والسلاح والخبرات وتشجع هجرة أعداد كبيرةمنهم إليها .. حتى بلغ عدد الذين هاجروا من جنوب السودان أكثر من ثلاثين ألف مواطن انضموا إلى صفوف الانفصاليين وقويت بهم شوكتهم .

ورأى الانفصاليون أن يكونوا تنظيما سياسياً فى جوهره ، دينيا فى مظهره ، فأعلنوا عن قيام ماسمى باتحاد المسيحيين لشرق أفريقيا وتزعمه قادة الانفصال من أبناء جنوب السودان .. وكان قيام هذا الاتحاذ بمظهر دينى سببا فى انضمام عدد كبير إليه غاب عن مفهومهم حقيقة اتجاهاته ونواياه .. الذى مالبث أن كشف عن أهدافه السياسية لتحقيق انفصال جنوب السوذان عن شماله . وظهر الاتحاد كمنظمة سياسية تحمل اسم سانو ، وانتقل بنشاطه إلى داخل المديريات الجنوبية الثلاث .

رأت الحكومة السودانية أن تواجه هذا الموقف بالشدة والبطش .. وتقاوم أعمال التخريب والإرهاب التى تقوم بها هذه المنظمة بالعنف والقسوة ، فكان قرارها باستعمال كل الأساليب لمحاربة هذه المنظمة ، وتجدد القتال بين الطرفين وكان نتيجته العديد من القتلى وفرار الكثير

إلى الدول المجاورة أو إلى الغابات التى لا تستطيع القوات النظامية اقتحامها بسهولة .

وكان هذا الإجراء من جانب الحكومة السبيل إلى الحصول على المزيد من السلاح والعتاد للمتمردين والانفصاليين ليواجهوا به الحكومة . ووجدوا فى عدد من الحكومات المجاورة ما يساعدهم ويؤيد سياستهم . وبدأ السلاح ينهال على المتمردين .. وقام المبشرون الأجانب فى المديريات الجنوبية بدور كبير فى هذه الفتنة لصالح الانفصاليين ، مما دعا الحكومة إلى التفكير فى أمر استمرارهم وبقائهم فى الجنوب .

. . .

موقف قادة الانفصال :

نعود مرة أخرى إلى موقف قادة الانفصال فى جنوب السودان بعد قيام الحكم العسكرى وإعلانه عن سياسته التى كان مظهرها التحرر ومواكبة الحركات الوطنية . لقد استغل قادة الانفصال هذا الموقف الجديد فى بذل طاقات كبيرة من النشاط فى الدول الافريقية التى تحيط بالحدود الجنوبية .. وهذه كانت ، حتى ذلك الحين ، خاضعة للاستعمار وسيطرته .. فكانت تمتثل لأوامره وسياسته فى معاداة التيارات الوطنية وبخاصة الحكومات التقدمية . وعلى هذا دخلت علاقات السودان مع تلك الدول فى أول الأمر مرحلة خصومة وعداء ، فى الوقت الذى بدأت فيه تلك الدول فى مد يد العون والمساعدة للانفصاليين . فأمدتهم بالسلاح والخبرات ، ودعمت موقفهم بالأموال والمساعدات . . وشجعت هجرة أعداد كبيرة من أبناء الجنوب إليها حيث أعدت لهم معسكرات التدريب وأماكن لإيوائهم .. وقد بلغ عدد الذين هاجروا من الجنوبيين خلال تلك المرحلة

أكثر من ثلاثين ألف مواطن سودانى وقعوا تحت تأثير الإغراء والارهاب لينضموا إلى صفوف الانفصاليين ولتقوى بهم شوكتهم .

وقد رأى الانفصاليون بعد ذلك أن يكونوا تنظيما . يجمع شملهم . كان تفكيرهم فى أن يشكلوا تنظيما .. يحمل فى ظاهره الطابع الدينى وفى حقيقة الأمر له لونه السياسى والعسكرى وذلك ذرا للرماد فى العيون ، وتم بالفعل قيام ماسمى باتحاد المسيحيين لشرق أفريقيا وتولى أمره قادة الانفصال من أبناء جنوب السودان وكانت هذه التسمية الدينية ، التى تستتر وراءها أغراض أخرى ، سببا فى انضمام عدد كبير من المواطنين إليه ، وقد غاب عن مفهومهم حقيقة أمر هذا الاتحاد واتجاهاته ، ولم يمر وقت طويل حتى كشف ذلك الاتحاد النقاب عن أهدافه ومبادئه ونواياه فى تحقيق الانفصال بين جنوب السودان وشماله .. فغير إسمه عدة مرات على النحو الذى سنذكره فيما بعد . . وانتقل بنشاطه إلى داخل المديريات الجنوبية الثلاث .

وكان موقف حكومة الانقلاب العسكرى من أمر هذه التنظيمات لايتسم بالحكمة ، ففى الوقت الذى أصدرت فيه أوامرها لقواتها أن تواجه موقف الانفصاليين بالعنف والقسوة واستعمال كل أساليب البطش . . لم تتمكن من إيجاد حل واحد لجذور المشكلة أو علاج لأحد أسبابها . فوسعت الهوة بين الفريقين وخاصة بعد أن أسفر الالتحام بين القوتين عن سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى ، وفرار الكثير من المواطنين إلى الدول المجاورة أو إلى الغابات فراراً من المصير السىء الذى ينتظرهم .

وتسبب موقف الحكومة العسكرية هذا من الانفصاليين فى أنهم كسبوا عطف بعض الحكومات وعدد من الهيئات والمنظمات التى بدأت تساعدهم .. وتمدهم بالعون والسلاح ليواجهوا به تعسف الحكومة . وبدأ السلاح ينهال على

الانفصاليين بصورة أزعجت الحكومة فى الخرطوم وباتت ترقب الموقف بقلق زائد . ونظرت إلى الموقف بصورة جادة لتقوم بإجراء يحفظ هيبتها وسمعتها أما المواطنين . فكان قرارها بطرد القساوسة والمبشرين من جنوب السودان على أساس أنهم يغذون حركات التمرد والمتمردين .

طرد القساوسة والمبشرين :

ففى يوم ٢٧ فبراير ١٩٦٤ .. أعلنت الحكومة السودانية قرارها بطرد جميع القساوسة والمبشرين الأجانب من مديريات السودان الجنوبية الثلاث. واستندت الحكومة فى قرارها إلى رفض هؤلاء الالتزام بواجبهم الدينى ، وتدخلهم السافر فى السياسة ، وتشجيعهم لعملية التمرد التى قامت هناك ، وإمداد المتمردين والعناصر الانفصالية بالمال والسلاح .

وقد جاء فى البيان الذى أذاعته الحكومة آنذاك تفسيراً لهذا الإجراء جاء فيه أنها لم تكن بغافلة فى يوم من الأيام عن النشاط المعادى لوحدة البلاد الذى ظل بعض الأجانب من المبشرين يقومون به فى جنوب السودان. وقد تسامحت السلطات فى عديد من المناسبات وأبدت كثيرا من التساهل والصفح على أمل أن يرعوى أولئك ويثوبوا إلى رشدهم ويركنوا إلى الحكمة والعقل فينصرفوا إلى الرسالة المقدسة التى منحتهم الدولة حق الإقامة فى البلاد لأدائها ، وسمحت لهم بالتجول فى ربوعها من غير قيد ولا شرط . ولكن الأيام قد برهنت .. والتصرفات قد أثبتت ،على أن التسامح لم يزدهم إلا غياوتها . . وأن التساهل لم ينتج عنه إلا المزيد من الاستهتار وعدم المبالاة ، وعلى ذلك . . أصبح لا مفر من الأخذ بالشدة والحزم وإلا لما استتب النظام ولما ساد القانون .

ومضى البيان يقول : إن الدولة لا تسمح بالتخريب والفوضى مهما كان السبب ولا تفسح المجال للعبث بأمن البلاد أو مقومات وحدتها مهما كان الستار . وعلى ذلك كان قرار الحكومة السودانية بإبعاد جميع الأجانب من

القساوسة والمبشرين الذين يقيمون فى ذلك الوقت فى المديريات الجنوبية الثلاث .. بعد أن ثبت بوضوح وجلاء . . وبالأدلة الثابتة أن استمرارهم فى تلك المناطق ضار بوحدة البلاد . . ويعرض أمنها وسلامتها للخطر .

واستطردت الحكومة السودانية فى بيانها موجهة الحديث إلى أهالى الجنوب قائلة إن إبعاد ذلك النفر من الأجانب لا يؤثر عليهم فى شىء . . فسوف تساعد الحكومة الكنائس لتأدية رسالتها السماوية فيما يضمن لها الاستمرار .. كما ستقدم المساعدات المالية للقسيس والراهبات من السودانيين وتعمل على تأهيلهم لملء المناصب الدينية التى سبق أن احتلها هؤلاء الأجانب .

وأكدت الحكومة بأنها ستغلق جميع الثغرات التى قد تستغل فى غير مصلحة البلاد، وعلى ذلك قررت عدم السماح للتجار الأجانب بمزاولة العمل والتجارة إلا فى عواصم المراكز بالجنوب . . وأصبح غير مسموح لهم بتاتاً بالتسرب إلى القرى والأدغال .. كما كان عليه الحال حين صدور القرار . ودعت الحكومة السودانية هؤلاء التجار الأجانب إلى الانصياع لهذا الأمر ويرعوا القانون بأمانة ودقة .

وقد صدرت تعليمات الحكومة فعلا إلى وزارة الداخلية بأن تتولى مساعدة الكنائس لتأدية رسالتها السماوية فى جو يكفل لها الاستقرار والاستمرار بعيداً عن تدخل أى جهة أخرى .. كما تقدم المساعدات المالية للقسس والرهبان السودانيين وتعمل على تأهيلهم كما وعـــدت فى بيانها الذى أذاعته .

وكان لقرار الحكومة وقع طيب فى نفوس المواطنين الذين أزيح عن كاهلهم أحد المعوقات الهامة فى سبيل استقرار البلاد وأمنها ووحدتها ، وخرجت تعليقات الصحف السودانية تطرى القرار وتؤيده . . موضحة أثر هؤلاء القساوســة ورجال الدين فى إثارة القلاقل والبلبلة فى جنوب

السودان ، وكان على قمة مساوئهم ، فتنة التمرد التى قامت فى شهر أغسطس عام ١٩٥٥ والتى ذهب ضحيتها الكثير من أبناء السودان الأبرياء .

أما فى الخارج . فقد أثار طرد هؤلاء المبشرين زوبعة من الاحتجاج والسخط فى الدوائر الأجنبية وخاصة تلك التى عملت على تشجيع الانفصال وتفتيت وحدة الوطن السودانى . واستمرت هذه الزوبعة المقترنة بمهاجمة وتهديد الحكومة فترة من الوقت لم يستجب السودان لها ومضت الحكومة تنفذ قرارها بحزم وقوة . . ولتطهر البلاد من أثر بغيض من آثار الاستعمار .

وكان طبيعيا بعد القرار الحاسم الذى اتخذته الحكومة السودانية بطرد القساوسة والمبشرين الأجانب من جنوب السودان أن تقوم باتخاذ بعض الاجراءات العاجلة التى تطمئن المواطنين فى المديريات الجنوبية على اهتمام الحكومة بأمرهم . . وأنها فى سبيل اتخاذ خطوات لإنعاشهم حتى تتمكن من مواجهة الشائعات المغرضة التى سيطلقها هؤلاء المبشرون قبل أن يغادروا البلاد .. وخاصة فيما يتعلق بموقف الحكومة من الجنوبيين .. وتأكيد ماسبق أن أشاعوه من إهمال الحكومة لشئونهم وإغفالها فى تحقيق رغباتهم وأحلامهم فى سبيل مستقبل مرموق فى عهد الاستقلال .

ولهذا فإن الحكومة السودانية بادرت باعلان نواياها فى القيام ببعض الاصلاحات فى الجنوب ، وقد صرح وزير الحكومة المحلية بأن وزارته ستساهم مساهمة فعالة فى حدود مسئولياتها واختصاصاتها فى تحقيق الاستقرار والطمأنينة للمواطنين فى جنوب السودان وأعلن عن بعض التدابير التى اتخذت فى هذا الشأن .

فمن ناحية توفير المواد الغذائية والحاجات الضرورية ؛ كان مشروع الوزارة فى حصر المتاجر فى أماكن تجمعات المواطنين وحمايتها من أى سرقة أو اعتداء .

مع توفير جميع السلع الضرورية وفى مقدمتها المواد الغذائية التى سيكون لها الأولوية فى الشحن والترحيل على البواخر من مدن الشمال إلى مناطق الجنوب .

وثمة موضوع آخر حيوى أعلنت الحكومة عن الشروع فى تنفيذه . وهو حماية المواطنين أولا بأول عن ارتفاع منسوب النيل فى كل مراحله؛ وذلك بأن ترسل تقريراً للمديرية المعنية .. ثم تقوم إدارة المديرية فى كل منطقة باتخاذ الاحتياطات اللازمة على ضوء تلك المعلومات لدرء أخطار الفيضانات وحماية الأهالى والماشية والمحصول منها . كذلك أعلنت الحكومة عن شروعها فى تنفيذ إصلاحات فى بعض الخدمات الأخرى التى تهم الجنوب والتى ستكون عاملا لاستقرارهم وتطويرهم وذلك فى مجالات التعليم والثقافة العامة والصحة والثروة الحيوانية والأشغال العامة والتقدم الاجتماعى .

وكان إعلان الحكومة عن مشروعاتها الإصلاحية هذه بعد يومين من قرارها بإبعاد القساوسة والمبشرين الأجانب .. وكانت حريصة على معرفة انطباعات زعماء الجنوب وتعليقاتهم على هذين القرارين .. وخاصة الأعضاء فى المجلس المركزى الذى حل محل البرلمان .

وفى جلسة شهدها الوزراء فى قاعة ذلك المجلس ، تحدث عن زعماء الجنوب كل من فليمن ماجوك عن مديرية بحر الغزال وسيرسيو ايرو عن المديرية الاستوائية وجيمس كولمان عن مديرية أعالى النيل . فأعلنوا نيابة عن أهالى الجنوب الموافقة على قرارى الحكومة بشأن طرد المبشرين ومشروعات الاصلاح . معلنين عن آمالهم فى إصلاح أحوال الجنوبيين التى جنى عليها الاستعمار وكانت ضحية الإهمال والمناورات السياسية أكثر من نصف قرن . وانتهزوا الفرصة ليطالبوا بتحقيق عدد من الموضوعات الجوهرية التى يعانى منها إخوانهم وفى قمتها تعيينهم فى الوظائف التى تتناسب

مع مؤهلاتهم البسيطة .. حتى لا يفكروا فى الهجرة إلى الدول المجاورة .. كذلك طالبوا بتعيين لجنة جديدة للتعرف على الحقائق فى حوادث الجنوب ولتصل إلى علاج حاسم لأسبابها .

وأمل أبناء الجنوب خيراً فى هذه الوعود . . وانتظروا لحظات تنفيذ بعضها أو كلها وهم فى تطلع إلى مستقبل آمن مطمئن ولكن الحكومة لم تستطع الوفاء بذلك الالتزام كما لم تحقق غيره فى مجالات أخرى . وكان أسلوبها فى العمل وسياستها المتدهورة فى المجالين الداخلى والخارجى موضع انتقاد وهجوم أبناء الشعب السودانى .. ووصل التذمر والغضب بالشعب ذروته فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٤ حين أعلن ثورته على الوضع القائم فى البلاد ونادى بسقوط العهد وأقطابه .. ونجحت الإدارة الشعبية على الحكومة .. وسقط حكم الفريق إبراهيم عبود على أيدى ثوار أكتوبر ليبدأ عهد جديد فى السودان . . وجولة أخرى فى علاقة الجنوب مع الشمال .

• • •

الجنوب وثورة أكتوبر :

فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٤ قامت ثورة أكتوبر الشعبية ضد الحكم العسكرى الذى كان قائماً فى السودان آنذاك .. وتم تشكيل حكومة انتقالية كان عليها أن تنجز العديد من المهام وتحل الكثير من المشاكل . وكان فى طليعتها مشكلة جنوب السودان وما آلت إليه منذ عهد الاستقلال حتى نهاية الحكم العسكرى . وقد اختلفت نظرة الحكومة الانتقالية إلى ما يجب أن يكون عليه الحل فى مشكلة الجنوب .. ورأت أن تسلك طريقاً يغاير فى جوهره الأسلوب الذى اتبعته العهود السابقة .. وخاصة العهد العسكرى الذى اتسم علاجه لها بالبطش والشدة . .

لقد أصدرت الحكومة الانتقالية فور توليها مقاليد الأمور فى السودان قراراً بالعفو عن المسجونين السياسيين الجنوبيين .. وأصدرت تعليماتها المشددة لقواتها فى الجنوب بعدم التعرض للخوارج فى حالة ظهورهم مسلحين فى المدن .. وذلك أملا فى أن يسلموا سلاحهم ويمتنعوا عن إطلاق النار كما كان يحدث فيما سبق ، وتم تنفيذ هذا القرار لتظهر عدة إشكالات جديدة فى الموقف أهمها :

١ — كان ظهور الجنوبيين فى المدن وفى أماكن تجمع رجال الأمن دون أن يتعرض أحد لهم .. له أثره فى تدعيم مركز المتمردين فى نظر المواطنين الجنوبيين كما كسبوا أعداداً كبيرة من المؤيدين الذين انضموا إلى صفوفهم

٢ — استغل الخوارج من الجنوبيين سياسة اللين والتسامح التى اتبعتها الحكومة الانتقالية معهم وأطلقوا لأنفسهم العنان فى استفزاز قوات الحكومة ورجال الأمن الذين لم يتعرضوا لهم بسوء ، فكان نتيجة ذلك ضعف مركز الحكومة وهيبتها فى نفوس الجنوبيين .

٣ — كان نتيجة لأوامر الحكومة لقواتها بعدم التعرض للمسلحين من أبناء الجنوب والرد على استفزازاتهم وتحدياتهم أثره فى ضعف الروح المعنوية لقوات الأمن وانعدام كفايتها لأى عمل .

وبالإضافة إلى ذلك .. ذهبت الحكومة الانتقالية فى علاجها غير الموضوعى لمشكلة الجنوب إلى أكثر من ذلك حينما لم توفق فى اختيار ممثلى الجنوب فى الوزارة . فقد ضمت ثلاثة منهم من أعضاء جبهة الجنوب عرف اثنان بالتعصب الدينى المتطرف وعدائهما الشديد للشماليين . وكانت وزارة الداخلية من نصيب أحدهما وهو كليمنت امبورو والذى يعد أحد كبار دعاة الانفصال ، وكان يجاهر بهذا الرأى فى كل مكان واستغل سلطاته

فى وزارة الداخلية ليدعم حركة الانفصال . . ويساعد بعض المنظمات الانفصالية وخاصة منظمة الانيانيا . . وكان هذا الوزير يدعو صراحة وعلنا لاحتفاظ الانفصاليين بسلاحهم . وكان تشجيعه وحمايته لهم من أسباب نقل نشاطهم إلى العاصمة ذاتها . . حين تجمع فى قلب الخرطوم فى اليوم السادس من ديسمبر عام ١٩٦٤ عدد من المواطنين الجنوبيين الانفصاليين بسلاحهم وقاموا بمظاهرة مسلحة كان نتيجتها خسارة فى الأرواح والممتلكات . . كما تسببت فى قيام خلاف شديد فى مجلس الوزراء السودانى وبين المسئولين حول ما آل إليه الوضع فى البلاد .. وتأزمت الأمور تأزما شديدا تبعا لذلك .

وساد الاستياء الأوساط الشعبية لما وصلت إليه الحالة .. ولموقف الحكومة عامة والوزراء من أبناء الجنوب الانفصاليين خاصة . ودارت الهمسات فى أول الأمر عن ضعف السياسة التى يتبعها من ولى الأمر بعد ثورة شعبية جاءت لتصحيح الأوضاع ، ولتقوم الاعوجاج ولتسير بالبلاد فى سبيل مستقبل أكثر أمنا واستقراراً . وارتفعت الهمسات إلى صيحات بعد ما تكشفت أمور جديدة . . تسبب عنها قرار تلك الحكومة بالعفو عن المتمردين وإعطائهم مهلة لتسليم سلاحهم لا يتعرضون خلالها لرجال أمنها . . واستغلت منظمة الأنيانيا التى يساندها وزير الداخلية الجنوبى هذه الظروف لتوسع نشاطها بصورة أرهبت المواطنين ..ودفعتهم إلى القلق على حياتهم وأموالهم .

وشاءت الظروف فى ذلك الحين أن تساعد الانفصاليين عن طريق آخر .. وذلك حين لجأ إلى حدود السودان الجنوبية والجنوبية الغربية أعداد كبيرة من ثوار الكونغو فى هجرة جماعية للسودان عما مكن الانفصاليين من الاستيلاء على أسلحتهم . فكان هذا دعما لمركزهم وقواهم وتمكينا لهم من إقامة الكثير من معسكرات التدريب التى أسهمت بعض الدول

العربية فى وضع خبراتها وإمكانياتها لخدمة الانفصاليين . كما نشطت هذه الدول لدعمهم فى مجال خبراتها وإمكانياتها ومساندة موقفهم أمام الرأى العام العالمى . هذا فى الوقت الذى تبلورت به تنظيمات للمتمردين واتخذت أشكالا وصورا ترسم معالمها تنظيماتهم السياسية والعسكرية .

التنظيمات السياسية للانفصاليين :

عقب إخماد حركة التمرد التى قامت فى جنوب السودان فى شهر أغسطس عام ١٩٥٥ .. فر بعض زعماء التمرد إلى خارج الحدود حتى يستأنفوا حركاتهم ضد الحكومة وينفذوا المخطط الذى وضعه الاستعمار . هذا المخطط كان يهدف إلى جعل الجنوب منطقة قلاقل واضطرابات تحول دون انطلاق البلاد إلى آفاق جديدة وهى مقبلة على عهد جديد . وقد ساعد الاستعمار زعماء التمرد على الفرار إلى يوغندا المتاخمة للمديرية الاستوائية .. ومنحهم بمساعدة حكومة تلك البلاد حق اللجوء السياسى .

وكان أول تنظيم سياسى يكونه قادة الانفصال يحمل اسم الجمعية المسيحية السودانية Sudan Christin Gussouition وكان يتزعمه جوزيف أودوهو والأب ساترينو ووليم دينج وغيرهم ، وقد اتبعت هذه المنظمة أسلوبا يحمل فى ظاهره غير ما يكمن فى باطنه وذلك حين اتخذت من الدين ستارا يتحركون وراءه فى سهولة ويتصلون عن طريقه بالكنائس فى يوغندا والعالم الخارجى للحصول على العون المادى والأدبى لحركة التمرد : ويمارسون نظاماً سياسياً ويعدون قواعد عسكرية لتعبر الحدود إلى السودان .

واستمرت هذه المنظمة تعمل باسم الدين مدة تسعة أشهر .. شعرت بعدها بنوع من الاستقرار والتمكن . . فأعلنت إيقاف نشاطها واستئنافه فى منظمة جديدة عرفت باسم الاتحاد الوطنى السودانى الأفريقى للمناطق

المغلقة sudan African ciosed District National Union التى بادرت إلى إزاحة قناع الدين وظهرت على صورتها الحقيقية حين أعلن قادة الانفصال حقيقة أهداف تنظيمهم الذى كان فى قمته حكومة سياسية تسعى إلى فصل جنوب السودان عن شماله .. وإلى جانب الحكومة التى تشكلت فى يوغندا فقد أعلن قادة الانفصال عن تكوين مكتب لهذه الهيئة السياسية يضم أربعة عشر عضواً كان أبرزهم زعماء تنظيم .S.C.A السابق ذكره والذى صفى نشاطه بعد تكوين النظام الجديد .

وظلت هذه الهيئة تمارس نشاطها عدة سنوات رأت بعدها أن تحصل على اعتراف من الأمم المتحدة بوجودها . فتقدمت بعريضة لهذه الهيئة الدولية فى نهاية عام ١٩٦٣ طالبتها فيها بالاعتراف باستقلال جنوب السودان تحت شعار « جنوب السودان للسودانيين الجنوبيين تحت إطار الوحدة الأفريقية السوداء » . غير أن هذه المذكرة لم تجد فى هذه المنظمة أى استجابة وإن كانت هذه العناصر الانفصالية قد استغلت هذا الموضوع لمزيد من الدعاية عن نشاطها وأهدافها فى العالم . ومعروف أنه كان فى طليعة سياستها الخروج بالدعوة الانفصالية للعالم الخارجى عن طريق الحملات الصحفية الموجهة من قبل الجهات التى تعطف عليهم وتؤيد انفصالهم .

وفى خلال تلك الفترة . . وضعت منظمة S.A.C.D.N.U أسس وأساليب المقاومة المسلحة التى شهدتها بعد ذلك أرض جنوب السودان والتنظيمات الأخرى سياسية كانت أم عسكرية . كما أقرت دستور العمل الذى يكفل لها الاستمرار والذى يعتمد على المساعدات والمعونات التى تتلقاها المنظمة من الهيئات التبشيرية فى الداخل والخارج . وتنظيم طابور خاص من أنواع اللاجئين فى مديريات الجنوب لمعرفة الكثير من المعلومات والحقائق عن مواقع القوات السودانية للاستفادة منها حين الضرورة .

وقد لعبت هذه المنظمة دورها المحدد والذى يعد شكله السياسى أبرز معالمه، فى مهارة لم تستطع أن تخفى وراءها خبرات الاستعمار وجهده . . وظلت تقوم بهذا الدور حوالى سبع سنوات .. توقفت بعدها لتحل محلها منظمة جديدة . أو على الأصح أول حزب سياسى كونه زعماء الانفصال الذى عرف بحزب سانو .

. . .

حزب سانو

وكان حزب سانو من ألمع التنظيمات الانفصالية وأكثرها تحركا . قام فى عام ١٩٦٣ ليخلف الاتحاد الوطنى السودانى الأفريقى للمناطق المقفلة . . مواصلا العمل دون تغيير فى الأهداف . كما كان وليم دينج وجوزيف أودهو على رأس قيادته مع سائر الأشخاص الذين عملوا فى التنظيمين السابقين . . وقد قررت قيادة حزب سانو اختيار الكونغو كينشاسا (جمهورية زائير بعد ذلك) على الحدود مع المديرية الاستوائية مقراً لنشاطه وأصبحت محوراً جديداً يضاف إلى يوغندا فى تصعيد حركة الانفصال .

وقد مارس هذا التنظيم نشاطه بصورة أوسع وأعم وخاصة فى الناحية الإعلامية فى الخارج حيث خرجت عنه مجموعة من النشرات والكتيبات تشرح مشكلة الجنوب من وجهة نظر الانفصال ، كما أجرى اتصالات عن طريق المذكرات والبيانات لعدد من الهيئات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة فى هذا الخصوص . وقد تقدم حزب سانو بمذكرته المشهورة إلى المنظمة الدولية فى عام ١٩٦٥ مقترحا تشكيل لجنة دولية محايدة تبعث بها الأمم المتحدة إلى جنوب السودان للنظر فى إيجاد حل لمستقبله وحسم مشكلته بما يحقق تقرير مصيره السياسى . هذا المصير الذى يتمثل فى إقامة أية علاقات يراها مع شمال السودان أو أية دولة أفريقية أخرى وذلك على النحو الذى سبق أن اقترحه السكرتير الإدارى الانجليزى السابق لحكومة السودان دوجلاس نيوبولد .

وقد بعث حزب سانو بمذكرات مماثلة إلى كل من منظمة الوحدة الافريقية واتحاد دول وسط شرق أفريقيا وغيرها من المنظمات يردد فيها هذا المطلب . . شارحاً أهدافه السياسية محاولا كسب وضع دولى أو سمعة على مستوى عالمى .

وإذا كان ما يهم حزب سانو خلال تلك المرحلة من تطور قضية الجنوب هو ابراز نشاط الانفصاليين فى الدوائر الخارجية . . فليكن من أهدافه أيضاً إيفاد عدد من قياداته الطوائف فى عدد من دول العالم . . وهذا ما قام به وليم دينج أودوهو وهما يحملان جوازات سفر من حكومة الكونغو كينشاسا .. وزارا كلا من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا، حيث وجدا ترحيباً من الهيئات والمنظمات الاستعمارية فى هذه الدول ، وبعض الحكومات التى تدعم حركة الانفصال بين جنوب السودان وشماله .

وكان الهدف الحقيقى لرحلة وليم دينج وجوزيف اودوهو هذه يتلخص فى عدد من الموضوعات أولها جمع أكبر قدر من الأموال لتمويل حركة الانفصال من الهيئات التى درجت على تقديم المعونات للانفصاليين وغيرها .. ثم توسيع وتركيز الحملات الاعلامية التى يقوم بها دعاة الانفصال فى العواصم الأوربية . . كذلك العمل على توفير الإمدادات والمساعدات من ذخيرة وسلاح للتنظيمات العسكرية الانفصالية .

هذا هو مجمل أهداف تلك الرحلة . . التى أسفرت نتائجها عن تحقيق أمرين هما خروج أول كتاب يمثل وجهة الانفصاليين وهو مشكلة جنوب السودان لوليم دينج وجوزيف اودوهو ثم قيام أول تنظيم حزبى للانفصاليين .

وهذا التنظيم كان النواة التى قامت عليه فيما بعد منظمة الأنيانيا التى ضمت أشد العناصر الانفصالية تطرفاً وتعصباً والتى قامت بنشاط تخريبى ملحوظ

ضد نقاط الأمن البعيدة فى الجنوب وبعض المنشآت الحكومية وممتلكات الأهالى .

واستمر حزب سانو يمارس نشاطه حتى ما بعد قيام ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤.. والدعوة إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى العام التالى فقد دعت إليه الحكومة زعماء الانفصال لبحث قضية الجنوب واختلف زعماء الانفصال حول قبول المشاركة فى هذا المؤتمر أم مقاطعته وكان من رأى وليم دينج أن الوضع السياسى الجديد فى السودان يتيح لحزبه فرصة العمل داخل السودان لتحقيق أهدافه السياسية ولهذا تحمس لحضور المؤتمر . . بينما رأى زعيم آخر ، هو أقرى جادين ، أنه لا أمل فى الحصول على مكاسب الجنوبيين عن طريق المفاوضات ولهذا رأى أن يقاطع حزب سانو المؤتمر مستأنفا سياسته فى العنف والإرهاب .

كان هذا الموقف بادرة لاختلاف بين الاتجاهين المضادين فى حزب سانو . أعقبه شقاق هائل بينهما ؛ بذلت جهود للتوفيق بينهما وأسفرت عن حضور الجناحين مؤتمر المائدة المستديرة فى الخرطوم..وإن كانت الدلائل تشير إلى تصدع الحزب وحنق العناصر المتطرفة فيه على سياسة مهادنة الحكومة الانتقالية فى السودان . وكان هذا التصدع سببا فى ظهور هيئات ومنظمات أخرى تحمل طابع التطرف وتكتسح أمامها عناصر المهادنة التى كان ضحيتها وليم دينج ذاته الذى قتل فى ظروف غريبة .

• • •

مؤتمر المائدة المستديرة :

ابتهج حزب سانو بثورة أكتوبر والإطاحة بالعهد العسكرى وخاصة بعد ما أعلن أن السبب فى اختيار رئيس الوزراء الجديد السيد سر الختم الخليفة أنه عمل بالجنوب فترة طويلة مساعداً لوكيل وزارة التربية والتعليم..وأنه يعتبر حجة

فى تفهم مشاكل الجنوبيين ، وقد اقترح الحزب الدعوة لاجتماع مؤتمر مائدة مستديرة من الهيئات السياسية فى شمال السودان وجنوبه ويحضره ممثلون عن بعض الدول الأفريقية المجاورة ومن بينها جمهورية مصر العربية وذلك لبحث العلاقات الدستورية بين الشمال والجنوب .

وكان أبرز الهيئات الجنوبية آنذاك حزب سانو الذى كان يرى أن الاتحاد الفيدرالى بين الطرفين هو الحل الوحيد لتلك المشكلة . وتحقيقا لذلك يكون نائب رئيس الجمهورية من الجنوبيين وتشكل حكومة جنوبية إقليمية لشئون الإدارة المحلية وتكون اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية للجنوب وأن تحول المدرسة الثانوية فى رومبيك إلى جامعة وعدد آخر من المطالب . وكان هذا هو رأى الجناح المعتدل فى حزب سانو بقيادة وليم دينج . أما الجناح المتطرف بقيادة اودوهو فكان يدعو إلى الانفصال ولا سبيل لحل وسط

والحزب الجنوبى الثانى الذى لعب دوره فى تلك الفترة هو جبهة الجنوب الذى كان قوامه عدداً من المثقفين الجنوبيين ؛ ويرأسهم ، جوتردون ايبيه نجل أحد زعماء قبيلة الدنكا . وكان نشاطه واسعاً فى العاصمة وفى المديريات الجنوبية الثلاث . . كما كان له صلات مع جماعات الانيانيا الارهابية والتى تكونت من فلول المتمردين واستقرت فى يوغندا ، وكانت اتجاهات هذا الحزب تتقارب إلى حد كبير مع أهداف حزب سانو .

وثالث الأحزاب الجنوبية كان حزب الأحرار ويدعو إلى الاتحاد ويرأسه سانتينو دنج وفيلمون ماجوك من الوزراء السابقين . وكان موقفه ضد التطرف وضد الانفصال وضد الاتحاد الفيدرالى ويدعو إلى وحدة الجنوب مع الشمال ولكن شعبيته كانت ضعيفة إلى حد كبير . كما كانت هناك منظمات وهيئات أخرى قليلة الأهمية تحاول أن تبرز فى صوره الأحداث .

ومن المدهش حقا أن كلا من هذه الأحزاب والهيئات كان يدعى لنفسه زعامة الجنوب وأهليته للتحدث باسم أبنائه لأنه صاحب الكلمة المسموعة بينهم . ولكن الحقيقة أثبتت غير ذلك . فقد روى أن يتوقف اطلاق النار خلال الأشهر الأربعة السابقة لانعقاد مؤتمر المائدة المستديرة حتى يتوفر الجو الهادئ لاجراء المباحثات. وأصدرت المنظمات والأحزاب المذكورة نداءات متكررة لوقف اطلاق النار ؛ ولكنها لم تصادف استجابة عند المتمردين . . بل على العكس فقد ازدادت أعمال العنف والقتال من جانبهم بصورة واضحة ، وهذا يؤكد أن زعامة تلك الأحزاب لم تكن إلا أمراً ظاهريا .

وترقب الجميع المشاورات لعقد المؤتمر والمساعى الكبيرة التى بذلت ليحصره كافة وجهات النظر وخاصة المتطرفون من حزب سانو . . ويتم عقده داخل السودان وفى مدينة الخرطوم ، وليس له فى أى مكان آخر. وتوالت أثناء ذلك تصريحات المسئولين السودانيين وعلى رأسهم رئيس الوزراء تؤكد صدق نوايا الحكومة تجاه قضية الجنوب . وأنها تحظى بعنايتهم الفائقة وانهم يدركون أن العنف والقمع المسلح لا يحل المشكلة وأن استئناف مباحثات السلام هو السبيل إلى مستقبل آمن. واقترنت تلك التصريحات بالقرار المعروف وهو إعلان العفو عن الذين فروا من السودان فى أعقاب تمرد ١٩٥٥ . كذلك سافر وزيران من الحكومة إلى أوغندا ليوقعا مع حكومتها معاهدة بخصوص اللاجئين السودانيين .

وكان واضحا أن موقف الهيئات الجنوبية كان يتميز بالتشدد والمغالاة فى المطالب والشروط نتيجة لوقوع بعض زعمائهم تحت تأثير ضغوط أجنبية .. بينما هادنت الحكومة الجنوبيين وأجابتهم إلى معظم شروطهم التى وضعوها ليعقد المؤتمر . وأخيراً وصل إلى الخرطوم زعيم حزب سانو المعتدل وليم دينج ومعه عدد من ممثلى الحزب للتشاور مع الهيئات الرسمية

فى شمال السودان للترتيب لعقد المؤتمر . . وتم الاعلان عن عقده فى اليوم السادس عشر من شهر مارس عام ١٩٦٥ .

وظهر فى الأفق مشكلة جديدة هددت بعدم انعقاد المؤتمر .. وذلك حين أصر حزب سانو على عدم حضور ممثلين عن الهيئات الجنوبية التى تدعو إلى الاتحاد بين الجنوب والشمال . . وتهديده بمقاطعته لو تم ذلك .. لكن الشماليين قاوموا هذا الاتجاه وأصروا من جانبهم على ضرورة تمثيل كافة وجهات النظر فى المؤتمر . وأخيرا استقر الرأى على انتخاب أعضاء الجنوب يمثلون كل القطاعات استكمالا لأسباب نجاح المفاوضات .

• • •

وفى يوم ١٦ مارس عام ١٩٦٥ . . تم افتتاح مؤتمر المائدة المستديرة فى الخرطوم لبحث مشكلة جنوب السودان .. وحضره إلى جانب الأعضاء الذين يمثلون الحكومة وأحزاب الجنوب أعضاء مراقبين من الجزائر وأوغندا وكينيا وتنزانيا وغانا ونيجيريا ومصر . وقد اتضح منذ البداية أن ممثلى الجنوب ينقسمون إلى فريقين بوجهتى نظر متعارضتين . . فكان هناك فريق وليم دينج وفريق أقرى جادين .

وكان الرأى الذى اتفق عليه فى موضوع مشكلة الجنوب هو أنها مشكلة إنسانية ذات جوانب اجتماعية واقتصادية وثقافية ولا بد من حلها بالوسائل السليمة داخل إطار وحدة السودان . . واتخاذ خطوات لإزالة الفوارق بين الشمال والجنوب . وقدم مشروعاً يقضى بأن السودان بحدوده الحالية قطر واحد له شخصيته الدولية وليس لأى جزء منه الحق فى الانفصال ،

وأن الأحزاب الشمالية تعترف بالامانى الوطنية للجنوبيين .. وترى ضرورة تطبيق نظام الحكم المحلى على أوسع نطاق .

ومنذ بداية المؤتمر ثبت أن هناك قوى أجنبية تسعى لعرقلة جهوده من أجل تحقيق الوحدة الوطنية فى السودان . . وزيادة الهوة التى تفصل بين الشمال والجنوب ليتحقق لها أطماع وسياسة معروفة من قبل . وكانت تلك القوى ترى فى مبدأ انعقاد المؤتمر أمراً يتعارض أساسا مع جهودها فى عدم اتصال أبناء الوطن الواحد فى إطار من التماسك والوحدة .

وافتتح رئيس وزراء السودان المؤتمر بكلمة استعراض فيها مشكلة الجنوب .. مدينا السياسة البريطانية ونشاط الإرساليات والحكم العسكرى السابق .. ووصفها جميعا بأنها سبب التخلف الشديد الذى آل إليه الحال فى جنوب السودان وتدهور العلاقات بينه وبين الشمال .. مشيرا إلى اتجاه حكومة أكتوبر فى تغيير هذه المفاهيم عن طريق التقارب والحلول السلمية والتوصل إلى اتفاق بين الطرفين فى نطاق السودان الموحد .

وكان المشروع الذى تقدم به الأعضاء من أبناء الشمال يدعو إلى قيام علاقة دستورية بين الجنوب والشمال وإيجاد حكومة لمديريات الجنوب الثلاث مع وضع برنامج عمل لإصلاح اقتصادى سريع ومضمون .. وتطور فى النواحى الاجتماعية والتعليمية والمساواة بين الشماليين والجنوبيين . وتأتى بعد ذلك الحلول التى استعانوا فى مشروعهم بالمقترحات التى سبق أن طالبت الأحزاب الجنوبية بها فى الماضى مثل منصب نائب رئيس الجمهورية ومجلس استشارى لتطوير الاقتصاد وبرلمان وجامعة وغيرها من الأمور التى ترضى طموح الجنوبيين .

وهاجم زعماء الشمال فى جلسات المؤتمر التى استغرقت الفترة من ١٦ — ٢٩ مارس الاتجاهات التى تدعو إلى الانفصال أو الاتحاد

الفيدرالى . . ووصفوها بأنها حلول غير عملية . وكان هذا الموقف سبباً فى خلق جو من التوتر ساد أنصار الاتجاهات المتطرفة فى هيئات الجنوب والتى كانت مدفوعة إلى موقفها تحت تأثير أجنبى . هذا التأثير تحكم فى تصرفاتها وسياستها التى وصفها زعماء الشمال بأنها سياسة استعمارية صهيونية هدفها سيطرة الاستعمار على الجنوب ليحمى مصالحه فى شرق أفريقيا . وحينما بدأ زعماء الجنوب فى الكلام خلال جلسات المؤتمر . . هاجم بعضهم تغلغل النفوذ العربى فى جنوب السودان مناديا باستقلاله السياسى . . بينما أكد البعض الآخر ضرورة تطبيق النظام الفيدرالى ، وطالب جناح ثالث بحق تقرير المصير ، وانتقد فريق رابع ما اقترحه بعض زعماء الشمال تطبيق نظام الحكم الإقليمى للجنوب لأنه فى نظرهم لا يعتبر حلا للمشكلة .

وقدم بعد ذلك مشروع موحد يقضى بإجراء استفتاء لتقرير المصير على أساس الوحدة مع الشمال أو الانفصال عنه أو الدخول معه فى نظام فيدرالى . واشترط الجنوبيون انسحاب الجيش السودانى كخطوة أولى لإجراء الاستفتاء . ولكن أحزاب الشمال رفضت هذا الاتجاه لاحتمال خطورة عواقبه . وتعثر المشروع الثانى الذى عرضه زعماء الجنوب وهو تقسيم الجنوب إلى إقليمين تربط بينهما الخدمات المشتركة وذلك حين رفضت أحزاب الشمال الموافقة عليه .

وتوقع المراقبون فشل المؤتمر قبل أن تختتم جلساته لعدم امكانيته فى الوصول إلى نقطة لقاء بين الجنوب والشمال ، . وفى الوقت الذى تجسمت فيه شكاوى الجنوبيين من الشماليين والتى زادتها الأيام تصاعدا قلل احتمال حلها فى مدى قصير . كذلك أسفر المؤتمر عن ظهور شقاق كبير بين الأحزاب الجنوبية بعضها البعض ؛ ففى حزب سانو على وجه الخصوص أعلن جناحه المتطرف بزعامة جادين أنه غير مؤمن بالحل السلمى وأن مطالب الجنوب تتلخص فى الاستقلال ، بينما أعلن الجناح

المعتدل فى الحزب بقيادة وليم دينج امكانية الالتقاء مع أحزاب الشمال فى قيام لون من الحكم الفيدرالى فى الجنوب . والوصول لحل سلمى فى هذه القضية .

• • •

لم تستمر الحكومة الانتقالية التى قامت فى أعقاب ثورة أكتوبر كثيرا .. فقد كان واضحا أن الأخطار تحدق بها من كل جانب .. وخاصة أن السياسة التى اتبعتها لم تكن تمكنها من البقاء أكثر مما بقيت . ولفظت تلك الحكومة أنفاسها لتلتقط الأحزاب التقليدية الخيط ولتقوم فى تحالف فيما بينها بتشكيل وزارة جديدة مثلت فيها أغلب هذه الأحزاب .

وكان موضوع جنوب السودان من الموضوعات الرئيسية التى أعاد فيها العهد الجديد النظر وقرر أن يتبع حياله سياسة تغاير سياسة الحكومة الانتقالية والتى كانت مثار نقد وهجوم عنيفين على كافة المستويات. وشرع المسئولون فى دراسة الموقف فى الجنوب وتقييمه لاتخاذ الخطوات التى يرونها ضرورية لحل هذه المشكلة المزمنة .

وأولى الخطوات التى اتخذت فى هذا السبيل هو ذلك النداء الذى وجهته الحكومة للانفصاليين داعية إياهم لتسليم أسلحتهم فى مدة وموعد محددين .. يعاقب بعدهما كل من يخالف هذا الأمر عقابا صارما . كما أصدرت أوامرها المشددة للموظفين تحظر عليهم الاشتغال بالسياسة مما ساعد على تقليل النشاط السياسى الانفصالى إلى حد كبير وانصرف معظم الناس إلى أعمالهم .

ولما كانت القوات المسلحة فى الجنوب قد وصلت فى عهد الحكومة الانتقالية إلى أقصى مراحل التدهور النفسى والمعنوى نتيجة للأوامر الصادرة بوقوفها مكتوفة الأيدى أمام تحركات المتمردين . . فان الحكومة الجديدة عملت على أن تعيد لهذه القوات صلاحيتها .. فنقلت من نقلت وغيرت بعض

الوحدات ليكون الجميع فى حالة تمكنهم من تنفيذ الأوامر الصادرة بتعقب الخوارج ومهاجمتهم .

وكانت هذه الحلول الداخلية فى نظر الحكومة غير كفيلة باستقرار الأوضاع فى الجنوب وأنها ان تتمكن من السيطرة على الموقف طالما هناك مساعدات تصل إلى الانفصاليين عن طريق الدول المجاورة . ولهذا السبب رأت الحكومة أن تشرع فى إجراء اتصالات دبلوماسية مع الدول المجاورة لشرح ابعاد قضية الجنوب . . ووحدة الوطن الواحد التى تآمر عليها الاستعمار . وقد وجدت هذه الاتصالات سبيلا إلى نفوس بعضها فاستجابت لطلب الحكومة السودانية . وتم توقيع اتفاقيات معها بشأن اللاجئين السودانيين ، وهكذا ضمنت الحكومة إغلاق باب من أبواب الفتنة ودعامة من دعائم ارتكازها .

وفى الوقت نفسه . . أصدرت الحكومة أوامرها إلى قوات الأمن فى الجنوب لمهاجمة المواقع التى لجأ إليها الثوار الكونغوليون الذين تسللوا إلى السودان بأسلحتهم والاستيلاء على ما تبقى معهم من أسلحة مخبأة أو غير ذلك . . ففقد بذلك دعاة الانفصال ترسانة مجانية أمدتهم بالعتاد لفترة غير قصيرة من الوقت .

وكان نتيجة لهذه السياسة التى اتبعتها الحكومة فى تعقب المتمردين . . والاستيلاء على أسلحتهم والقضاء على المراكز التى كانوا يحصلون منها على السلاح .. ويدعمون بها موقفهم ويواصلون تدريبهم ثم الاتفاق مع الدول التى كانت تأويهم وتحمى عصيانهم وغير ذلك من الإجراءات. كل ذلك قلل إلى حد كبير نشاط المتمردين فى الجنوب . . وقضى إلى حد ما على مراكز نشاطهم خارج السودان وتوقف هذا النشاط بدرجة ملحوظة . . . ولكن إلى حين .

* * *

تطور النشاط الانفصالى :

لم يكد يمر على الشقاق الذى قام فى حزب سانو فترة طويلة حتى برز إلى الوجود ما عرف باسم هيئة تحرير أزانيا فى أواخر عام ١٩٦٥ لتقود الجناح المتطرف فى الحزب .. والذى رفض مؤتمر المائدة المستديرة وكل ألوان العمل السياسى فى جبهة واحدة مع الشمال لحل قضية الجنوب . وأعلن هذا الجناح الجديد عن مبادئه التى كان أولها الاستقلال التام لجنوب السودان ومقاومة ما أسماه بالتسلط العربى . . وبعد أن تتم هذه الخطوة بتقسيم السودان إلى جزءين منفصلين تكون العلاقات بينهما فى الحدود التى تنظمها الاتفاقيات الدولية .

ومضت مبادىء جبهة تحرير أزانيا تنادى بأن يتكفل السودان الشمالى بعد حصول الجنوب على استقلاله ، بإصلاح وتعمير كل المرافق والممتلكات العامة التى خربتها الحوادث والاشتباكات . . والتى حملت الجبهة حكومة السودان مسئولياتها . . متجاهلة تماما الاعتداءات المدمرة التى تخصصت فيها جماعات من الانفصاليين سواء إبان فترة التمرد الأولى أو من خلال التنظيمات السياسية التى قامت باسم الجنوب .

أما عن سياسة الجبهة بعد تحقيق أحلامها فى استقلال جنوب السودان .. فإنها هدفت إلى تقوية علاقاتها مع الدول التى ساندتها ودعمت وجودها .. وإقامة علاقات ديبلوماسية معها على أساس أن الصديق عند الحاجة هو الصديق فعلا . وهذا يؤكد الاتهام الموجه إلى عدد من الدول الاستعمارية بأنها تساعد حركة انفصال وتمد الانفصاليين بالدعم المادى والأدبى وفى نفس الوقت أعلنت جبهة تحرير أزانيا تنصلها الكامل من أية معاهدة وارتباط الحكومة السودانية مع الدول الأخرى . . ولن تكون ملتزمة بها على الإطلاق .

وفى شهر مارس عام ١٩٦٦ .. نشب خلاف داخل جبهة تحرير أزانيا بين

عدد من قياداتها نتيجة لفقدان الثقة فيما بينهم ، وتبادلوا الاتهامات حول عدد من الموضوعات كان أهمها استلام العون المادى من الخارج . . وقد هدد هذا الخلاف كيان الجبهة التى لم يمض على إعلانها لبرنامجها السياسى والاقتصادى والتعليمى والصحى شهور قليلة . . ورؤى حسم الخلاف تشكيل وزارة جنوبية تضم خمسة عشر وزيراً تنقل قضية الجنوب إلى مرحلة إعلان الجمهورية المستقلة لجنوب السودان تحت اسم جمهورية أزانيا .

وشكلت الحكومة الانفصالية فى مارس ١٩٦٨ وأعلن رئيسها اقرى جادين عن خطة عملها ، وتتلخص فى التالى :

١ — تعتبر حكومة السودان الجنوبية الانتقالية أن هناك حالة حرب بين الجنوب والشمال .

٢ — تشجيع كفاح الجنوبيين من أجل التحرر التام عن الشمال .

٣ — ضرورة وضع دستور خاص للجنوب وعدم الاعتراف بدستور السودان الجديد .

٤ — استبعاد الحل السلمى لمشكلة الجنوب واستنكار تصرف أى حزب جنوبى يحاول الالتقاء مع الشمال أو لا يشجع التطرف وحمل السلاح لكسب ما أسمته بالحقوق الضائعة المنهوبة .

هذا فى مجال السياسة بين جنوب السودان وشماله .. أما على المستوى الدولى فقد أعلنت الحكومة الجنوبية الانفصالية عن عدد من المبادىء والأهداف أهمها تدعيم علاقاتها مع الدول التى لم تؤيد مواقف حكومة السودان تجاه الجنوب .. ثم العمل من أجل اعتراف الأمم المتحدة بأن جنوب السودان مشكلة يجب حسمها وخاصة بعد ما يلفت نظرها لما أسمته بامتهان

حكومة السودان لحقوق الإنسان فى الجنوب . . كما أعلن أقرى جادين عن عدد آخر من الاتجاهات التى ترمى إلى طمأنة الدول الإفريقية المجاورة انوايا حكومة الانفصال المؤقتة وبالتالى تحصل على تأييدها والاعتراف بها .

ورغم موقف حكومة السودان المتشدد فى قضية الانفصال . وعملها على إحباط محاولات الانفصاليين سواء فى الداخل أو فى الخارج . . إلا أن حكومة الانفصال قد وجدت تشجيعاً كبيراً من بعض الدوائر الاستعمارية وخاصة التى رأت استغلال عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ على العالم العربى كفرصة ذهبية وحاسمة تقويض القلاع الوطنية والثورية فى الشرق الأوسط .. وشغل شعوب العالم العربى وعلى رأسها شعب السودان بمشاكل داخلية تصرفه عن المشاركة فى معركة المصيرية أو على الأقل تقلل من فاعليته وقدرته على دعم هذه المعركة .

وفى مطلع عام ١٩٦٩ . . استفحل الأمر بين العناصر الانفصالية فى شرق المديرية الاستوائية مع زملائهم فى مديرية بحر الغزال ..وأصبح يشكل خطرا كبيرا على كيان الحركة الانفصالية من ناحية والحكومة التى قامت باسم الانفصاليين من ناحية أخرى ... وصل هذا الخلاف إلى أقصى ذروته حينما التحم رئيس هذه الحكومة مع وزير خارجيته فى صراع قوى ذهب ضحيته الحكومة كلها وعزل رئيسها أقرى جادين . وسيطر وزير الخارجية جوردون موتات على مقاليد الزعامة وقام بتشكيل حكومة انفصالية جديدة فى شهر مارس من نفس السنة. وعرفت باسم حكومة النيل الانتقالية وأوقف المجازر التى نشبت بين قبيلتى الدنكا والباريا .

ولم تختلف هذه الحكومة الانفصالية فى سياستها أو أهدافها عن الحكومة التى سبقتها أو حتى عن المنظمات السياسية المتطرفة التى قامت تتحدث باسم الجنوبيين.

بل لعل هذه الحكومة قد ذهبت إلى أكثر من ذلك حين أعلنت عن تكوين جناحين لها أحدهما سياسى والآخر عسكرى مسلح مما يؤكد أنها حملت عند قيامها طبيعة عدوانية والجنوح إلى الشر والتربص.

وقد أشار ميثاق هذه الحكومة إلى عدة أمور تعبر عن سياستها وأسلوبها إذا ما وليت مقاليد الأمور فى الجنوب . . وهذا هو نص الميثاق :

١ — نحن النيليون نقيد أنفسنا بهذا الدستور الذى سيحدد مسار نضالنا فى سبيل الوصول إلى الاستقلال التام .

١ — حكومة النيل وجناحها المسلح المعروف باسم جيش الأنيانيا القومى المسلح والقطاع المدنى ، سيكافحون دون مساومة من أجل الحرية والاستقلال التام لحدود حكومة النيل . وهى نفس الحدود المعروفة للمديريات الجنوبية .

٣ — وستعمل حكومة النيل على شرح قضية جنوب السودان على الأشقاء فى الدول الأفريقية لمساعدتها فى كفاح ما أسمته «بالتسلط العربى» تماما كما تفعل جامعة الدول العربية للسودان العربى .

٤ — ستقيم حكومة النيل علاقات طيبة مع كل الدول التى تعطف وتساند قضية الجنوب والتى وصفتها حكومة النيل الانفصالية بأنها عادلة فى سبيل الحرية .

هذا ما أعلنته هذه الحكومة الانفصالية المؤلفة خارج حدود السودان والمتحدثة باسم حقوق المواطنين الجنوبيين . ويلاحظ أنها تنزع فى سياستها إلى اللجوء للعنف ، . وعدم محاولة إيجاد أى لقاء بينها وبين السلطة التنفيذية فى الخرطوم . . كما نصت فى ميثاقها على معاداة أبناء السودان ووصفت حكمهم بأنه تسلط وسيطرة . وزرعت هذا المفهوم فى نفوس المنضوين تحت لوائها لإبعاد شقة التقارب بينهم وبين إخوانهم فى أنحاء السودان.

وقد بذلت حكومة النيل الانفصالية بعض الجهود فى الخارج للحصول على دعم من الدول التى تؤيد الموقف الانفصالى فى جنوب السودان. وقد استطاع رئيس تلك الحكومة جوردون مونات بعد اتصالاته مع هذه الدول أن يحصل على مزيد من العون المادى والأدبى منها.. وعند ما تجمع لها السلاح والذخيرة دعت اللاجئين من أبناء جنوب السودان فى الدول الافريقية المجاورة إلى الدخول مسلحين إلى أقاليمهم مرة أخرى والنضال ضد ما سبق أن وصفته بالتسلط العربى » .

ظلت هذه الحكومة الانفصالية تمارس نشاطها فى الخارج حتى قامت ثورة السودان فى الخامس والعشرين من مايو ١٩٦٩ . والتى اتخذت أسلوباً جديداً فى علاج مشكلة الجنوب لم تسبقه إليها حكومة منذ عهد الاستقلال .

الفصل الخامس

ثورة مايو والحكم الذاتى الإقليمى

مرحلة جديدة فى قضية الجنوب

كان قيام ثورة الخامس والعشرين من مايو عام ١٩٦٩ فى السودان، إيذانا ببدء مرحلة جديدة من المراحل التى مرت بها قضية الجنوب . فبعد أيام قليلة من نجاح هذه الثورة .. قررت ضرورة اتخاذ إجراءات فورية وعملية لهذه القضية التى شغلت التفكير سنوات طويلة .. وليتم بمقتضى هذه هذه الاجراءات استتباب الأمن والسلام فى الجنوب .. وتوفر الطمأنينة فى ربوعه .. ولتعود حياة الجماهير إلى مسارها الهادىء بعد طول عناء .

ففى يوم ٩ يونيو عام ١٩٦٩ كان إعلان القرار التاريخى « بخلق حكم ذاتى إقليمى للجنوب فى إطار السودان الموحد » . وكان هذا الإعلان خطوة جريئة لعلاج مشكلة مزمنة طال أمدها وتشعبت إشكالاتها .. واستنزفت من الجهد والمال والأرواح ما كان السودان فى غنى عنه .

وقد صدر بيان شامل فى ذلك التاريخ من اللواء جعفر محمد نميرى رئيس مجلس الثورة . « شرح فيه الجذور الحقيقية لمشكلة الجنوب .. وتصميم الثورة على إيجاد تسوية نهائية لهذه المشكلة التى تحملت أعباءها جماهير الشعب السودانى فى جنوب البلاد وشمالها . وألقى الاستعمار تركتها المثقلة على كاهل المواطنين من جراء سياسته والتى اتبعها . والتى درج فيها عن قصد وتدبير على رسم خطة التطوير غير المتكافىء بين شقى البلاد . وكان نتيجة طبيعية لذلك التخطيط أن وجد أبناء الجنوب أنفسهم بعد إعلان الاستقلال فى وضع متخلف عن إخوانهم الشماليين فى كافة المجالات .

وقد حمل اللواء نميرى فى بيانه زعماء الجنوب بعض المسئولية فى هذا الذى حدث من تدهور الأحوال فى هذا الجزء العزيز من الوطن السودانى .. حين

اتهم معظم هؤلاء الزعماء بتحالفهم مع القوى الرجعية والدول الاستعمارية خلال العشرين سنة الأخيرة . . وكانوا خلالها أصحاب مصلحة فى بقاء مشكلة الجنوب دون حل نهائى لتحقيق مكاسب شخصية زائلة .

ومضى بيان رئيس مجلس الثورة يؤكد أن الحكومة السودانية وهى تقدم على حل مشكلة الجنوب، لا تتهيب بالاعتراف بالأمر الواقع . . وأنها تدرك أن هناك فوارق بين جنوب السودان وشماله . . وأنه من حق الشعب فى الجنوب أن يبنى ويطور ثقافته وتقاليده فى نطاق سودان اشتراكى موحد . ومن أجل تحقيق كل هذا كان قرار مجلس الثورة ومجلس الوزراء بعد سلسلة من الاجتماعات . . وبعد مناقشات بناءة ومستفيضة بالعمل على خلق الحكم الذاتى الإقليمى للجنوب فى نطاق السودان الموحد .

وقد نص البيان على القرارات التى اتخذت من أجل الإعداد لليوم الذى يستطيع فيه الجنوب ممارسة الإقليمى وهى :

١ — استمرار ومد فترة العفو العام

٢ — وضع برنامج اقتصادى اجتماعى ثقافى للجنوب .

٣ — تعيين وزير لشئون الجنوب .

٤ — تدريب كادر متمرس لتولى المسئولية .

٥ — إنشاء لجنة خاصة للتخطيط الاقتصادى فى الجنوب .

٦ — المساواة فى الأجور بين أبناء الوطن الواحد .

٧ — إعداد ميزانية خاصة بالجنوب تستهدف رفع مستواه ليقف على قدميه فى وقت قريب .

وقد كان لصدور هذا البيان الهام وقع كبير فى النفوس . . استقبلته الدوائر

المختلفة بما يتمشى مع مصلحتها تجاه هذه المشكلة التى عاش الكثير على وجودها وترقب المتصلون بها والمتتبعون لأبعادها داخل السودان وخارجه ردود الفعل لهذا القرار الذى اعتبرته ثورة السودان أعلى درجات الطموح التى يفكر فيها أبناء الجنوب وهم يخططون لمستقبلهم . وأن ما احتواه من بنود يحقق آمال الجنوبيين وتطلعاتهم لتعويض مافاتهم من سنى التخلف التى فرضها الاستعمار عليهم .

• ✲ •

وقد تركز اهتمام المراقبين السياسيين عقب صدور قرار مجلس الثورة السودانى بإعطاء الجنوب الحكم الذاتى الإقليمى على مدى سيحدثه هذا القرار من تأثير على الأوساط السودانية عامة ودوائر الجنوب بصفة خاصة .. ومدى ماسيلقاه من تأييد واستجابة .. والصور الواضحة لمظاهره. وقد أكدت تقارير المسئولين والبيانات الرسمية التى صدرت فى هذا الخصوص عن النجاح الهائل الذى أحرزه فى نفوس المواطنين . والابتهاج الذى عم الشمال والجنوب لصدوره . وفى مؤتمر صحفى عقد بالخرطوم . . تحدث المسئولون عن النتائج السريعة التى ظهرت والتى كانت مترتبة على الحل الثورى لموضوع الجنوب وهى :

أولا : عودة الآلاف من اللاجئين والذين سبق أن هاجروا من السودان والتجأوا للدول الأفريقية المجاورة .

ثانياً : تسليم أعداد كبيرة من المتمردين لأسلحتهم وانضمامهم لإخوانهم فى قرى السلام والتى تم تخطيطها بحيث توفر لهم احتياجاتهم بما فى ذلك العمل .

ثالثاً : تفهمت القوات المسلحة وقوات الأمن العاملة فى الجنوب أبعاد دورها كقوات لها رسالة محددة هى المحافظة على الأمن وحماية وحدة

تراب الوطن مع المراعاة الكاملة لأمن المواطنين فى الجنوب والتفرقة الكاملة بينهم وبين القلة الخارجة على القانون .

رابعاً : شارك المواطنون الجنوبيون قوات الأمن فى مطاردة فلول المتمردين الذين واصلوا حمل السلاح ، هذا بالإضافة لنشاط حرس السلاطين الجنوبيين المكمل لنشاط قوات الأمن .

خامساً : أدان المثقفون من أبناء الجنوب بصورة علنية وللمرة الأولى حركة التمرد والقائمين بها . كما وفد من الخارج أعداد كبيرة من المثقفين والذين غادروا البلاد فى عهد الحكومات . السابقة وأبدى أغلبهم الرغبة فى العمل فى الجنوب. وأجيبت رغباتهم بعد استيعابهم فى وظائف مناسبة .

سادساً : نشطت المنظمات الديمقراطية واتحادات العمل فى الجنوب واستطاعت ان تستقطب أعداداً كبيرة من المواطنين الجنوبيين للمشاركة بجدية فى نشاط هذه المظمات . . والذى تبلور فى دعم عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الجنوب .. إلى جانب التوعية السياسية التى تتعرض لجذور المشكلة .. والحل الثورى وأهداف ثورة مايو الاشتراكية ومنجزاتها على مستوى القطر وخاصة ما يتعلق بالإنماء الاقتصادى والاجتماعى فى الجنوب .

وكان من أبرز صور هذا النشاط المظاهرات الضخمة التى اجتاحت الجنوب مدينة التمرد والمتمردين وذلك فى شهر أغسطس عام ١٩٦٩ وهو نفس الشهر الذى اندلعت فيه حوادث التمرد الأولى فى عام ١٩٥٥.

سابعاً : تم اختيار أصلب العناصر وأكثرها كفاءة ، سواء من الشماليين والجنوبيين ، للعمل فى هذه المرحلة بالجنوب وذلك حرصا من الثورة على تجاوز أية معوقات تتعرض للمخطط المرسوم .

ثامناً : تم السيطرة وبدرجة ملحوظة على الأمن فى معظم مناطق الجنوب الهامة . الأمر الذى مكن السلطات من تشغيل كثير من المرافق التى كانت معطلة . . كما أعيد إصلاح الطرق والجسور وفتح المدارس وتنشيط الخدمات الصحية والاجتماعية . . بالإضافة إلى إعادة استثمار المشروعات الزراعية بصورة موسعة .

ونتيجة لهذا النجاح الذى عكسته الصور المشار إليها فلقد كان على السلطة الثورية فى السودان أن تجرى اتصالات دبلوماسية على أعلى المستويات فى مختلف دول العالم . . وخاصة مع الدول الإفريقية المجاورة . . والتى أعلنت ترحيبها بسياسة الثورة فى الجنوب ، وتم التوصل مع تلك الدول إلى الاتفاقيات بخصوص اللاجئين وقفل الطريق أمام فلول المتمردين التى استمرت فى ممارسة نشاطها من خلال الحدود المشتركة .

وبالرغم من أن هذه الاتصالات قد حققت نجاحا كبيرا إلا أن بعض هذه الدول والتى تعتقد أنها تعانى من وقوعها تحت ضغوط مباشرة أو غير مباشرة من القوى الامبريالية لم تنفذ هذه الاتفاقيات بصورة مكتملة .

وبعد هذا كله . . هل انتهى التمرد ، وهل ألقى المتمردون السلاح؟ وهل توقف الدعم الاستعمارى لدعاه الانفصال ؟ وهل انطلق الجنوب إلى مجالات العمل والإنتاج بعد هذا الحل لمشكلته ؟ هذه أسئلة دارت فى أذهان الناس وهم يرقبون سير الأحداث ليجدوا الرد على هذه الأسئلة .

. . .

موقف المتمردين :

وفى الوقت الذى استقبل فيه دعاة الاستقرار والهدوء فى الجنوب . الراغبون فى انطلاق مديريات الجنوب إلى مجالات الإنتاج المثمر .. قرار

مجلس الثورة الخاص بجنوب السودان بالسرور والابتهاج . . نرى دعاة الانفصال . . والذين قادوا التمرد شاركوا فيه طوال خمسة عشر عاما يظهرون امتعاضهم عليه . . ويترجمونه إلى أعمال مضادة . فقد عز عليهم أن يستبدلوا حياتهم القائمة على السلب والنهب والاغتصاب بحياة مستقرة يكسبون فيها من أعمال مشروعة ويعيشون على القدر الذى يسمح به جهدهم وكفاحهم .

هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى فإن القيادات السياسية التى قامت فى الجنوب وتفرغت للعمل الانفصالى طوال هذه السنين . . استطاعت فى مجال الإعلام الخارجى . . أن تكون لها فى البلاد الخارجية وخاصة الدول الأوربية مجالات للترفيه وحياة البذخ والرفاهية . . وكانت تجد التشجيع والعون من الدوائر الاستعمارية التى كانت تحتضن هذه الطبقة . . وتوفر لها كل الأسباب التى تكفل انصياعها لتوجيهاتها وأوامرها وتنفيذ مخططاتها العدوانية . وكان قبولها لقرار الحكومة الخاص بالحكم الذاتى للجنوب معناه فقد مورد شخصى هام وضياع مكاسب حصلت عليها هذه القيادات عن طريق العمالة والارتباط بعجلة الاستعمار .

وحتى تحتفظ العناصر المتمردة والمنتفعة من التوتر بين جنوب السودان وشماله بما حصلت عليه من امتيازات ومكاسب . . فانها بدأت أولا فى الاشتراك فى ترويج الشائعات التى انطلقت تردد أنباء كاذبة عن الموقف فى جنوب السودان بعد صدور القرار . وصورت موقف الانفصاليين بأنه فى مركز القوة لدرجة احتلالهم لعدد من المواقع الاستراتيجية من قوات الجيش . وتحدثت الشائعات أيضاً عن تسليح المتمردين وكيف أنه بلغ أرفع المستويات والكفاية بحيث يستطيع الوقوف ضد القوات المسلحة السودانية .

وطبعا كان من المقصود بهذه الشائعات خلق بلبلة فى الرأى العام وإثارة الشكوك حول مقدرة القوات المسلحة السودانية وإمكانية سيطرتها على الحالة فى الجنوب . . ثم التأثير على المواطنين عامة والطبقات العاملة خاصة للتأثير على الإنتاج . . كما قصد بها إضعاف الروح المعنوية بين القوات المسلحة ذاتها . . وإلى جانب هذا استثمارها فى الدعاية ضد الثورة السودانية فى الخارج وخاصة إذا ماعرف أن أجهزة الإعلام فى الدول الاستعمارية قد بالغت فى وصف سوء الموقف فى الجنوب ، وقد شاركت بإيجابية فى الترويج للشائعات الكاذبة التى انطلقت فى حينه .

وإلى جانب هذا المجال الذى تضافرت فيه جهود الخوارج والاستعمار وأعوانه فى الإساءة للأوضاع فى السودان . . فإن قيادات الانفصاليين شرعت فى تنفيذ مخطط مرسوم لها لتعويق مسيرة الثورة . من ذلك إقامة الكمائن لضرب قوات الأمن السودانية . . وعرقلة الاتصال بين بعضها البعض . . وشن غارات وهجمات على معسكرات القوات المسلحة . . ثم الهجوم على القرى بقصد الإرهاب ، وخطف النساء والماشية والمنقولات لإثارة الذعر بين المواطنين . . وكذلك التعرض للبواخر النيلية سبيل المواصلات الرئيسى فى الجنوب وذلك لعرقلة الملاحة النهرية وتقطيع شريان الاتصال الجوى فى البلاد .

والمتمردون وهم يقومون بهذه الأعمال العدوانية الاستفزازية ، كانوا يعتمدون على أسلحة جديدة متطورة جاءتهم من الدول التى واصلت دعمهم بصفة منتظمة منذ عام ١٩٦٣ وذلك إلى جانب الأسلحة التى سبق أن حصلوا عليها من قوات الحكومة ومن ثوار الكونغو على النحو الذى سبق الإشارة إليه . كذلك كان المتمردون يطمئنون تماماً إلى المساعدات الكبيرة التى تقدمها المنظمة والكنيسة للاجئين أو الفارين من هؤلاء المتمردين إلى أقاليم مجاورة للسودان . . وتشجيعهم على عدم العودة إلى

أرض الوطن . هذا بالإضافة إلى مهمة تلك المنظمات الأساسية فى تقديم المساعدات للمتمردين من أسلحة وذخائر وأدوية وغير ذلك .

هذه المواقف كلها كشفت الحكومة حقيقة أمرها . وأعلنتها أمام الرأى العلم فى الداخل والخارج إلى جانب ما أعلنته عن حقيقة المنظمات الكنسية والهيئات فى الخارج والدعم الاستعمارى للمتمردين وذلك قبل قيامها بإجراءات لتصفية هذه التحركات المضادة .

هذه المواقف كلها كشفت الحكومة السودانية حقيقة أمرها أمام الرأى العام فى الداخل والخارج ، وفضحت المؤامرات التى دبرت لاغتيال وحدة السودان والتى توافر عليها الاستعمار والصهيونية . وكان ذلك وهى فى سبيل قيامها بإجراءات شديدة ضد حركات الانفصال ودعاة التمرد الذين كانوا يجدون فى المواقف الوطنية مايستدعى تحركهم ونشاطهم ضدها ، وكان هذا هو الأسلوب الذى اتبعوه منذ عرف التمرد والانفصال فى جنوب السودان .

ثورة السودان والحكومات الانقلابية :

لقد كان على ثورة السودان أن تجابه التحركات المضادة التى تقوم بها الحكومة الانفصالية الموجودة خارج البلاد .. والتى تتحدث باسم الجنوبيين ووجدت العون والمساعدة من الدول الاستعمارية لتؤدى دورها فى تفتيت وحدة البلاد . وقد سبق أن تناولنا الكلام عن الحكومات التى تم تشكيلها فى الخارج لهذا الغرض . . وكان آخرها حكومة النيل الانفصالية التى شهدت قيام ثورة الخامس والعشرين من مايو عام ١٩٦٩ وإعلانها الحكم الذاتى الإقليمى فى جنوب السودان فى إطار الوطن الواحد .

وقد أحدث قرار ثورة السودان أثراً عميقاً فى صفوف الانفصاليين

عامة والحكومة المتحدثة باسمهم بصفة خاصة . . فقد شعر الجميع بأن كيانهم مهدد بالفناء إن لم يتخذوا إجراء سريعا . وظن بعض المتحمسين منهم أن العناصر السياسية فى الحكومة الانفصالية لن تستطيع مواكبة الأحداث الجديدة فى السودان . . وأصبح لزاما عليهم أن يطيحوا بهذه العناصر . . والقيام بانقلاب عسكرى يتولى السلطة فى صفوف الانفصاليين ويستطيع مواجهة الموقف أمام الثورة السودانية الوليدة .

فلم يكد يمر شهر ونصف على قيام ثورة مايو فى السودان . حتى كان ذلك الانقلاب العسكرى ضد حكومة النيل الانفصالية . . وتمكن قائده الجنرال تانينج قائد قوات الأنيانيا من الإطاحة بالحكومة ورئيسها وغير اسمها إلى حكومة إنيدى .

وقد أوضح الجنرال تانينج قائد الانقلاب أسباب قيامه بحركته، فعزاها إلى أن القادة الانفصاليين السياسيين ، الذين تبنوا قضية الجنوب، لم يقوموا بعمل يذكر خلال الفترة من عام ١٩٦٥ . . ولم ينفذوا ما تعاهدوا عليه فى مواثيقهم وخططهم ، بل على العكس من ذلك كانوا سببا فى تفاقم العلاقات القبلية فى الجنوب . ولم يكن يعنيهم إلا مصالحهم الشخصية ومكاسبهم الذاتية . . مهملين حقوق الجنوبيين ومستقبل الجنوب على المستويين الداخلى والخارجى . وتم تشكيل مجلس ثورة جديد للانفصاليين بزعامة الجنرال تانينج وينوب عنه البريجادير على رئاسة وعضوية اقرى جادين للشئون الخارجية ، ولويا كاسرور للشئون المالية .

وكان هذا هو الحل الذى وجد فيه دعاة الانفصال ما يمكنهم من مواصلة رسالتهم أمام قيام ثورة السودان وحلها العملى لمشكلة الجنوب . وأعلنت قيادة الانفصال عن سياستها التى تتلخص فى طلب إجراء استفتاء

فى مديريات الجنوب الثلاث تحت إشراف منظمة دولية لتقرير مصير الجنوب . وإلى أن يتم هذا الإستفتاء . . تبدأ فى تدعيم تنظيماتها الحربية وتشكيل جيش نظامى ليحمى مبادىء وأهداف حكومة الانفصال الجديدة وقد صرح رئيسها بأن يجب عليهم أن يقاتلوا بضراوة وعنف بعيداً عن مجالات الرحمة التى لن يطلبوها أو يمنحوها لأحد .

ولم تكد تمضى فترة قصيرة على قيام حكومة الانقلاب هذه . . حتى قام انقلاب جديد فى صفوفها قاده اللواء جوزيف لمافو ، واعتقل فيه قائد الانقلاب السابق ومساعده . وقد أعلن نفسه قائد لقوات الأنيانيا . وقال أنه أحدث هذا الانقلاب لإعادة تنسيق العمل بين المنظمات الحربية والقادات السياسية وإعادة توحيدها حتى تستطيع مواجهة الانتفاضة الجديدة فى السودان .

وشرعت الحكومة الانقلابية بعد ذلك فى تنظيم صفوف جيش جديد . . رأت أن يتكون من سلاحين ، أوله سلاح عرف باسم قوت الغوريلا (أى العصابات) . . والثانى هو الجيش الوطنى . ومهمة هذ الجيش هو إحداث شغب وتخريب فى مديريات الجنوب . . حتى يشغل ثورة السودان ويعوقها من الانطلاق لتنفيذ مشروعاتها الإصلاحية التى أعلنت عنها فى الجنوب . وبدأت هذه القوات فعلا تقوم بتخريب المنشآت والمرافق الحيوية . . وتسللت قوات الأنيانيا عبر الحدود إلى القرى المتاخمة وأعملت السلب والنهب فيها وإثارة الذعر والخوف فى نفوس المواطنين حتى يشعروهم بأن حكومة الخرطوم عاجزة عن حمايتهم .

وقد سار مخطط حكمة الانفصال هذه مع المخططات الاستعمارية الأخرى جنباً إلى جنب فى سبيل تقويض الحكم القائم فى السودان . وهذا الأمر أوضحته محاولات الاستعمار فى أعقاب ثورة مايو .

محاولات جـــديدة للاستعمار :

كان منح الجنوب الحكم الذاتى الإقليمى فى إطار الوطن السودانى أقصى أمنيات أبنائه . وكان هذا الهدف هو إحدى الركائز الهامة التى استند إليها الاستعمار وهو يعمق العداوة والتباعد بين أبناء الجنوب وأبناء الشمال . وإذا كانت ثورة ٢٥ مايو قد هدمت هذه الركيزة . . فهذا يعنى تقويض أدعاء وجدت فيه الدوائر الاستعمارية الأسلوب الذى تتدخل به فى موضوع الجنوب .. وتنفذ مخططها لتقطيع أوصال الوطن الواحد. ولهذا كان الحل مثار امتعاض شديد فى هذه الدوائر ، التى نشطت عن طريق عملائها لتوحيد القيادات السياسية الانفصالية وفلول الانفصاليين العسكرية .. كما أوفدت بعض المستشارين والخبراء من المرتزقة لوضع تكتيك جديد للعمل فى الجنوب .. ومحاولة ضمهم لجانب حركة الانفصال بالقوة وعن طريق الإرهاب لو لزم الأمر .. ثم عرقلة مسيرة التنمية عن طريق التخريب .. وأخيراً محاولة التوفيق الفعلى بين القيادات السياسية للانفصاليين وقيادة الأنيانيا. وقد توافر على تنفيذ المخطط الجديد مرتزق ألمانى هو رودلف شتاينر الذى سبق له العمل فى الكونغو وبيافرا فى أعمال مشابهة .

والاستعمار وهو يقدم على هذه الخطوة فى مساعدة حركة الانفصال فى عهد ثورة مايو . وفى أعقاب إعلانها قرار حل مشكلة جنوب السودان . ملزك بأنه من واجبه تحطيم هذه القلعة الوطنية التى تمثل عمقاً استراتيجياً للثورة العربية . . ثم هذا الموقف الوطنى الذى وقفه السودان من قضية العدوان الصهيونى الذى وقع على العالم العربى واتخذ شكله السافر فى يونيو عام ١٩٦٧.وكان تركيز الاستعمار على انعاش عمليات التمرد بشكل واضح، وتشجيع الخوارج، ووضع خبراته وإمكانياته تحت أيديهم لصرف السودان

عن الإسهام بدوره فى القضية المصيرية التى يمر بها العالم العربى .. وشغله بهذا الشكل حتى تقل فاعليته فى هذا المجال .

لهذا كله .. تضاعف دعم إسرائيل والقوى الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبعض المؤسسات والمنظمات فى ألمانيا الغربية للعناصر الانفصالية . فعملت على مدهم بالسلاح والمعدات والخبرات . . ا فى ذلك التدريب داخل إسرائيل نفسها . وكانت إسرائيل فى هذه العملية ترمى إلى تكثيف نشاط المتمردين حتى يكون هذا النشاط سبباً فى عرقلة مسيرة السودان ، وبالتالى ينجح المخطط الاستعمارى الذى وضع للقضاء على الدول التقدمية فى منطقة الشرق الأوسط وفى صدرها السودان .

ولما كان هذا المخطط .. وما صاحبه من تعديلات جديدة تتمثل فى دعم حركة التمرد بالسلاح الحديث والمعدات الأخرى فى شكل أدوية وما إلى ذلك يشكل خطورة على موقف الحكومة السودانية وقرارها بشأن الجنوب .. وخاصة الجزء المتعلق بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية . فقد قررت فوراً أن تحسم هذا التلاعب .. حتى لا تترك فرصة أمام المستغلين . . ولهذا أصدرت أوامرها إلى قواتها المسلحة فى الجنوب بالقيام بعدد من العمليات على أوسع نطاق تستهدف ضرب معسكرات الانفصاليين وذلك كرد عملى على المخططات الجديدة التى دبرها الاستعمار .

وشهدت المديرية الاستوائية القسط الأكبر من نشاط عمليات القوات المسلحة السودانية التى هاجمت معسكر مورتو فى أواسط الاستوائية ويعتبر مركز رئاسة الانفصاليين وبه مطار صغير وكان يعيش فيه المرتزق الألمانى شتاينر .. ونجح هجوم قوات الحكومة على ذلك المعسكر وأعلن استسلامه وتسليم ما به من أسلحة .

والذى حدث بالنسبة لمعسكر مورتو . . حدث فى معسكر لورانجو شمال مدينة توريت ومعسكر برامبيا نسبة إلى الجبل المعروف بهذا الاسم شمال غرب مدينة مريدى ثم معسكر أيدا . . حيث نجحت العمليات العسكرية للقوات المسلحة السودانية وتم تسليم هذه المعسكرات والقضاء على مراكز هامة للانفصاليين كانت تسيطر على مجموعة من مدن وقرى الجنوب وتثير فيها الرعب والدمار .. وكان فى هذا الإجراء من جانب الحكومة رد عملى على محاولات الاستعمار للتلاعب بمستقبل السودان .

اســـتراتيجية دعاة الانفصال .

منذ وقوع التمرد فى جنوب السودان فى شهر أغسطس عام ١٩٥٥ .. وعلى استمرار هذه الحركة فى السنوات التى تلت ذلك . . اتبع دعاة الانفصال استراتيجية سياسية سارت ضد الخط السياسى الوطنى التحررى وفى اتجاه عكسى .. وهذا ما أثبتته الأحداث التى مرت بالسودان خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة . فقد سار للنشاط السياسى والعسكرى والإعلامى للانفصاليين وقد تحكمت فيه نوعية الحكم القائم .. ويمكن توضيح أبعاد هذه الاستراتيجية على النحو التالى :

أولا : العمل بكل الوسائل على عرقلة أية تحركات على المستوى الرسمى أو الشعبى تهدف فى المدى القريب أو البعيد على إجراء تغييرات جذرية فى السودان .

ثانيا : العمل بكل الوسائل على أن ينشغل السودان داخليا . . بحيث لا تتاح له أى فرصة للمساهمة فى حسم الصراع القائم فى منطقة الشرق الأوسط لصالح التقدم وضد الاستعمار والرجعية ،

ثالثا : يكيف النشاط الإرهابى للخوارج بحيث تشكل الحدود الجنوبية

للسودان باتساعها، بعدد الدول التى تشارك فى هذه الحدود موضع اضطراب وإخلال بالأمن . وهذا الأمر الذى يؤدى بطريقة غير مباشرة إلى إساءة علاقة السودان بهذه الدول . . أو بتجميد هذه العلاقات حتى لا يتفاعل السودان أو يتعاون معها . ويحقق ذلك عزل القارة الإفريقية بأكملها من تأثيرات القوى التقدمية فى منطقة الشرق الأوسط . . وذلك باعتبار أن السودان وحده هو الذى يمثل الجسر الواصل بين العالم العربى والعالم الإفريقى .

وبالإضافة إلى ذلك . . محاولة القضاء على أية آثار إيجابية يمكن أن يحققها السودان عن طريق منظمة الوحدة الإفريقية . فالملاحظ أن نشاط الخوارج يتزايد بصورة ملفتة للنظر عند اجتماعات منظمة الوحدة الإفريقية وبروز دور السودان فى هذه الاجتماعات . كذلك كان النشاط يتزايد مع بوادر انتكاسات الحركات الاستعمارية الانفصالية فى أفريقيا . ومثال ذلك النشاط الواسع الذى قام به المتمردون فى الأيام الأخيرة السابقة على سقوط حكومة بيافرا التى أقامها الخوارج فى نيجيريا .

ومن هذا يتضح أن الاستراتيجية السياسية لنشاط الخوارج ترتكز بصورة أساسية على استراتيجية القوى الاستعمارية والصهيونية . وهو أمر معروف وتبرز صورته بالنظر لنوعية المساعدات العسكرية والمادية والإعلامية التى يدعم بها الاستعمار الحركة الانفصالية فى الجنوب . وقد أقام من أجل ذلك مجموعة من الهيئات والمؤسسات بغرض واضح ومعلن . . وهو مساعدة الخوارج فى جنوب السودان . وفى تصريح أدلى به وزير الجنوب فى حكومة الثورة أثناء زيارته للندن فى أبريل عام ١٩٧٠ أكد أن الجيش السودانى قد انتزع من المتمردين ، أسلحة حديثة مضادة للطائرات وعدد آخر من الأسلحة السريعة الطلقات المضادة للمدرعات وأجهزة لاسلكى تستخدم لإرشاد الطائرات إلى مناطق الإسقاط

صنعت فى ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية . كما أذاع وزير الدفاع فى ١٨ يولو عام ١٩٧٠ بيانا اعلن فيه أن الفئة الخارجة على القانون تتلقى عونا ماديا وعسكريا وتقوم بتدريب فرق أخرى منهم داخل إسرائيل على أعمال التخريب ونشر بعد ذلك بيانا تفصيليا عن الأسلحة التى عثر عليها فى صفوف المتمردين وكلها أسلحة حديثة صنعت فى دول الاستعمار الغربى وأمريكا . .

وقد جاء فى اعترافات الأسرى الذين وقعوا فى أيدى القوات المسلحة السودانية ما يؤكد صلة إسرائيل والاستعمار بأحداث التمرد والتخريب فى المديريات الجنوبية . والدليل على ذلك انعكاس آثار المعونات الفنية والعسكرية التى تلقاها المتمردون فى تطوير أساليبهم فى العمل خلال السنوات الأخيرة . وهذا كله دفع الحكومة السودانية إلى كشف هذه الأعمال العدوانية أمام الرأى العام العالمى . وفضح مواقف حكومة الانفصال والتمرد التى قامت تتحدث باسم جنوب السودان .. وكل سندها فى ذلك العمالة والارتباط بمخططات الاستعمار .

* * *

دور المرتزقة :

ولقد كان هناك الكثير من الأدلة أمام حكومة الثورة على أن هناك عناصر وهيئات أجنبية وراء حركة التمرد والانفصال فى الجنوب . وقد كشفت الثورة بالدليل والوثائق على وجود تلك الهيئات . ورأت — استكمالا حقيقة الأوضاع فى جنوب السودان — أن تضع أمام الرأى العام العالمى دليلا آخر قاطعا على تدخل أيدى أجنبية فى شئونه ومساعداتها الفعلية للعناصر الانفصالية . وقد تمثل ذلك فى عدد من المرتزقة البيض الذين استأجرهم الاستعمار للمساعدة على إثارة القلاقل فى الوطن السودانى . ومن هنا كان حرصها البالغ على أن يقبض على زعيم

هؤلاء المرتزقة البيض فى الجنوب والذى شارك مشاركة فعلية فى قيادة التمرد ودبر خططاً عدوانية على البلاد .

وتفاصيل قصة القبض على المرتزق الألمانى شتاينر تبدأ منذ أن وصل إلى المسئولين السودانيين نبأ وجوده فى الجنوب على رأس قوات من المرتزقة والانفصاليين . . وقيادته لعمليات حربية ضد قوات الحكومة، وصدرت الأوامر بتعقبه ومحاصرته ، وفى موقعه بين القوات المسلحة السودانية وشرذمة من المتمردين والمرتزقة بقيادة شتاينر فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ أصيب هذا بجراح فر على أثرها إلى أوغندا . وقد طلبت الحكومة السودانية من الحكومة الأوغندية تسليمه إليها . . وتمت الموافقة على ذلك ورحل إلى الخرطوم فى الأسبوع الأول من يناير عام ١٩٧١ .

وفى مؤتمر صحفى عقد فى القصر الجمهورى بالخرطوم يوم ١٨ يناير عام ١٩٧١ وشهده عدد من المسئولين وسفراء الدول ورجال البعثات الدبلوماسية والإذاعة والصحافة ووكالات الأنباء . . أعلن نبأ القبض على شتاينر الذى لعب دورا رئيسيا فى خدمة حركة الانفصال والتمرد فى جنوب السودان . . وبذل جهودا ليجعل منه إقليما منشقا على الوطن السودانى . وقد سبق وقام بهذا الدور فى إقليم بيافرا حيث شارك فى تشجيع الجهود الانفصالية فيها عن الوطن النيجيرى . . كذلك أسهم بالاشتراك مع القوات المرتزقة فى جمهورية الكونغو كينشاسا فى محاولة لإعادة النفوذ الاستعمارى ومحاربة الحكومة الوطنية التى تسلمت مقاليد الأمور بعد الاستقلال عام ١٩٦٠

وقد شهد الألوف من أبناء الشعب السودانى مجموعات كبيرة من الأسلحة الحديثة والذخيرة التى سقطت فى أيدى القوات المسلحة السودانية فى حملتها ضد المتمردين وقوات المرتزقة بقيادة شتاينر . وهكذا كان الإعلان عن القبض عليه فى ذلك المؤتمر الذى شهده ممثلو الدول ورجال الإعلام وثيقة دمغت بها

ثورة السودان التدخل الأجنبي فى شئونها الداخلية . . واشتراك عناصر مأجورة من بعض الدول فى تدبير الاضطرابات والقلاقل فى أرض السودان ، لخدمة أغراض استعمارية عدوانية .

وكان ممن شهدوا المؤتمر أيضا دياللو تيلى السكرتير العام لمنظمة الوحدة الأفريقية الذى عبر عن رأيه فى هذا الموضوع فى خطاب ألقاه فى الخرطوم أوضح موقف المنظمة من مثل هذه القضايا التى يدخل المرتزقة عنصرا رئيسيا فيها . ، فأشار إلى القرارات التى اتخذتها المنظمة فى عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٠ بشأن إدانة وتقديم المرتزقة إلى المحاكمة بوصفهم يمثلون الشكل الجديد للقرصنة الدولية ضد الشعوب المكافحة حديثة الاستقلال .. وضد حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا من آثار الاستعمار .. وما نصت عليه القرارات من وسائل ردع قاسية لأمثال هؤلاء المنحرفين المتاجرين فى مستقبل الدول والشعوب .

وكان القرار بتقديم المرتزق شتاينر إلى المحاكمة أمام محكمة أفريقية تتولى محاكمته عن الجرائم التى اقترفها فى حق السودان وبعض الدول الأفريقية لينال الجزاء العادل على ما اقترفه . . ولتكون إدانته سبيلا إلى كشف المزيد من ألوان التدخل الإمبريالى فى موضوع جنوب السودان .

• • •

هيئات أجنبية وراء حركة الانفصال :

كان استمرار حركات الانفصال فى الجنوب.. وقدرة القائمين عليها فى التحرك داخل السودان وخارجه داعياً للتساؤل عن السر الذى يكمن وراء هذا الاستمرار ؟ . وكيف أنه ظل قائما منذ عام ١٩٥٥ . . وهى السنة التى قام فيها التمرد — وما زال يواصل عمله ونشاطه . . ؟ وينفذ

المخطط الاستعمارى الذى رسم له بأحكام . وقد جاء الرد على هذه التساؤلات فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى الخرطوم بعد قيام ٢٥ مايو بشهور قليلة وأوضح المسئولون فيه أسرار وقوف بعض المنظمات الكنسية والهيئات فى الخارج وراء حركة الانفصال . . يمدونها بالأموال والتأييد الأدبى . . ويساندونها إعلاميا . وكشف المسئولون عن حقيقة هذا الأمر وهم يستندون إلى وثائق وديانات رسمية تدمغ هذا العون الذى اتخذ شكلا دوريا منتظماً .

ومن الهيئات التى أعلن أنها وراء حركة الانفصال فى جنوب السودان اتحاد الطلاب المسيحيين البروتستانت بجامعة بون بألمانيا الغربية . فقد جمع الطلاب الذين ينتمون إلى هذا الاتحاد تبرعات من المواطنين تحت رعاية الكنيسة لجنوب السودان وإقليم بيافرا فى نيجيريا . . وخصصت ثلاثة مراكز لذلك بمناسبة أعياد الميلاد عام ١٩٦١ وما بعده . . كما فتح حساب لهذه التبرعات فى البنك التجارى بعاصمة ألمانيا الغربية تحت رقم ١٠٦٧٦/٢ .

كما أسهم قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بإيطاليا بقسط موفور فى النشاط لدعم حركة الانفصال فى جنوب السودان . . وكان أغلب قساوسة هذه الكنيسة من الذين باشروا أعمالا سياسية وتخريبية فى الجنوب . . وصدر القرار بطردهم من السودان فى عام ١٩٦٣ . ومن الأسماء التى أعلنتها الحكومة السودانية وهى تبرهن على اشتراك هؤلاء القساوسة فى أعمال المعونة للانفصاليين . . أسماء ثلاثة قساوسة بالذات كانوا يعملون فى بحر مديرية بحر الغزال وهم البيشوب دومينك فيرابرا Dominic Ferrera والأب ادوارد ماسون Eduord Mason والأب الفونسى روزى Alfonse Rossi وقدنشروا فى الفترة من ١٥ مايو ١٩٦٩ مقالات عديدة بالمجلات المحلية ضد سياسة الحكومة السودانية تجاه الجنوب . كما نشطوا فى جمع التبرعات من بعض الدول الكاثوليكية الأوربية

ومجموعة الدول الاسكندنافية باسم اثنى مليون لاجىء جنوبى من المسيحيين يضطهدهم المسلمون من شمال السودان . وكان هذا الزعم الكاذب الذى أعلنوه سببا فى حصولهم على مساعدات ومعونات كبيرة .

ثم جمعية الدعم الأفريقى بألمانيا الغربية التى أسسها عام ١٩٦٤ طبيب يدعى لوبا وأنشأ فرعاً لها بمدينة فرانكفورت وآخر بمدينة كولون بألمانيا الغربية .. وفتح لها صندوق توفير بالمدينة الأخيرة تحت رقم ٦٩٩٩ ثم أنشأ فروع لها بمدينة كراكاس وميونيخ وهامبورج لتواصل دعمها للانفصاليين .

وهناك لجنة العمل « بيافرا — السودان » وهى إحدى المنظمات الكاثوليكية بألمانيا الإتحادية . وقد عثر لديها البوليس الألمانى على كثير من الوثائق والمنشورات ثم إعلانها فى المؤتمر الصحفى بالخرطوم .

أما منظمة المساعدات الألمانية والكنيسة الكاثوليكية فقد استعانت بمجموعة من الأفاقين والمغامرين لتمدوها بمعلومات عن حالة أبناء الجنوب من المسيحيين لتقديمها إلى بابا روما . كما اعترف بعض المرتزقة الذين ضمتهم هذه المنظمة بأن منظمة المساعدات الألمانية ستبدأ فى تقديم مساعداتها لجنوب السودان .. فكان هذا العمل الذى تقوم به لوناً من ألوان الدعم الذى لقيه دعاة الانفصال من هيئات أجنبية .

وهناك هيئة الكنيسة الكاثوليكية البروتستانتية وهى نشيطة بين المواطنين الألمان وتجمع منهم التبرعات لمساعدة اللاجئين السودانيين ، وقد فتحت حسابا باسم « إعانة السودان » .

وقد تخصصت هيئة العمل الطبى بفرانكفورت بألمانيا الغربية وهيئة الخدمة الألمانية فى إرسال إمداد اللاجئين عن طريق كينيا . . كما كانتا

تقومان بنشاط واسع مع معسكراتهم بيوغندا وتقدم لهم العون المادى الذى بلغ حتى ساعة الإعلان عن هذا الموضوع فى المؤتمر الصحفى السابق ذكره ربع مليون مارك ألمانى .

والهيئة الأخيرة التى أعلن المسئولون السودانيون عنها فى ذلك المؤتمر هى منظمة جنوب السودان. وهذه المنظمة مسجلة رسميا فى لندن.. ومن بين أعضائها أساتذة فى الجامعة وأعضاء فى البرلمان وهى تقوم بنشاط إعلامى واسع ضد السودان .وهى تضم اثنين من زعماء الجنوب الانفصاليين هما بادنج جرنج ويعقوب جيبل . . وتصدر هذه المنظمة صحيفة خاصة بها يقوم بتحريرها السودانيان السابق ذكرهما

وبعد . . فان هذا التدخل من قبل هذه الهيئات فى شئون السودان الداخلية إعتداء صريح على استقلاله . . وممارسة فعلية لعمل عدوانى. وتأييد سافر لمخطط يهدف إلى إطالة فترة النزاع بين جنوب السودان وشماله.. وتعميق مفهوم الانفصال على المستويين الداخلى والخارجى . . وإفساد العلاقات بين أبناء الوطن الواحد . وهذا ما دفع الحكومة السودانية إلى كشفه وفى يدها الوثائق والحجج التى تدين الهيئات والمنظمات التى ثبت اشتراكها فى هذه الأعمال التخريبية .

مؤتمر جوبا عام ١٩٧١ :

كان قرار الحكم الذاتى الإقليمى لجنوب السودان فى إطار السودان الموحد وفى تكامل قومى واقتصادى وفكرى . قرار سياسى واقعى لمشكلة مضى عليها سنون طويلة ، وقد هيأت ثورة مايو الظروف العملية لهذا القرار لخروجه إلى حيز الواقع والتطبيق العملى .. وذلك من خلال دراسة المشروعات المقترحة فى كافة المجالات دراسة بناءة هادفة تصل بالسودان عامة وجنوبه خاصة إلى المستوى المرموق . وهذا يعوض

عاقات من سنى التخلف التى تركها الاستعمار .. وعدم استقرار النفوس إلى المستقبل .

وعلى هذا الأساس .. كان التفكير فى عقد مؤتمر للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للجنوب .. يتدارس فيه أبناء الوطن ما فيه صالحهم .. وما يمكن أن يقدموه لجزء عزيز من بلادهم .. ظلمته الظروف رغم تمتعه بإمكانيات وفيرة وثروات غير محدودة .. طمع الاستعمار فى الاستئثار بها .. ومن هنا كانت خطته التى دبرها لفصل هذه الأقاليم الغنية عن جسم السودان .

وتحقيقا لخطة التنمية المقترحة هذه .. عقد فى مدينة جوبا عاصمة المديرية الاستوائية فى الفترة من ٢ إلى ٨ يناير ١٩٧١ مؤتمر اركويت الخامس للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للجنوب . وقد ناقش المؤتمر الأبحاث التى تقدم بها عدد من الإخصائيين فى مختلف فروع التخصص .. فيما يمكن اتخاذه من توصيات وقرارات على ضوء الدراسة العلمية الواقعية . وقد بلغ عدد هذه الأبحاث خمسة وعشرين بحثا باللغة العربية وتسعة عشر بحثا باللغة الإنجليزية .. احتوت على كثير من المعلومات والإحصائيات والبيانات عن كافة القطاعات الإنتاجية والخدمات كالمواصلات والسياحة والثروة الحيوانية والزراعة والصناعة والثروة المعدنية والقوى المائية والكهربائية والإعلام والتربية والتعليم وغير ذلك .

وقد أصدر المؤتمر عددا من التوصيات العامة ، فى مجال إدارة الخدمات بالجنوب أوصى المؤتمر بتحويل مكتب وزارة شئون الجنوب إلى وزارة تنفيذية لها سلطات مالية وتنفيذية على أن تتولى الوزارة مسئولية تخطيط وتنفيذ كل الخدمات بالجنوب .

وفى مجال المنظمات الديمقراطية أوصى المؤتمر بأن يحمل المثقفون

الجنوبيون على إنهاء التمرد وإشراك المواطنين الجنوبيين فى العمل وشرح أهداف الثورة لها . وأوصى المؤتمر كذلك بتجنيد كادر مؤهل من وزارة الجنوب ووزارة الشباب ومعهد الإدارة العامة وجامعة الخرطوم ومصلحة الإحصاء ووزارتى التخطيط والعمل القيام بمسح شامل وإحصاء المدربين فى الجنوب حاليا . . وتحديد الاحتياجات لمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وأوصى المؤتمر بإعادة فتح مركز جوبا للتدريب . وفى مجال الخدمات الصحية أوصى المؤتمر بزيادة المراكز الصحية وتوفير مواصلات جوية لمكافحة الأمراض الوبائية عند الطوارىء .

وفى مجال الإسكان والتخطيط أوصى المؤتمر أن يعطى البنك العقارى اعتبارات خاصة لتسليف المواطنين من أبناء الجنوب الذين ينالون قطعا سكنية .

وفى مجال التعليم أوصى المؤتمر أن تكون اللغة العربية هى اللغة القومية للبلاد وتدرس فى جميع المراحل الدراسية . . كما أوصى بالعناية بكتابة بعض اللغات القبلية المنتشرة بالجنوب . وأوصى فى هذا الصدد بأن يتم عقد مؤتمر عاجل لشعبة أبحاث الجامعة . . تشترك فيه وزارة التربية والتعليم العالى لدراسة اللغات القبلية فى الجنوب . وأوصى المؤتمر بالاختلاط فى المرحلتين الابتدائية والعالية . . وأوصى كذلك بإنشاء فروع لكليات العلوم بجامعة الخرطوم ومنح الجنوبيين اعتبارات خاصة .

وفى مجال الخدمات العامة أوصى المؤتمر بإجراء إصلاحات سريعة لمرفق النقل النهرى والعمل على فتح وإصلاح الطريق البرى بين جوبا وملكال .

وفى مجال المواصلات السلكية واللاسلكية لاحظ المؤتمر ضعف كفاءة الأداء فى أجهزة الاتصال . وأوصى بالعمل على زيادة الموظفين فى مكاتب البريد . . وفتح مكاتب بريد وكبانيات يدوية صغيرة السعة فى المدن الكبرى بالمديريات الجنوبية وفى مجال الإعلام أوصى المؤتمر بالإسراع بإعادة فتح محطة الإذاعة بجوبا وإنشاء دار صحفية للجنوب .

وفى مجال التجارة والتموين أوصى المؤتمر بإنشاء متاجر حكومية فى المدن الرئيسية ومتاجر متجوله بالقرى وإعطاء اعتبارات خاصة للسلع التموينية المخصصة للجنوب من حيث إجراءات فئات الجمارك ولوائح الأسعار وفئات النقل .. وتوثيق التعاون التجارى مع الدول الإفريقية المجاورة .

والأبحاث التى ناقشها المؤتمر .. والتوصيات التى أعلنها خطوة بناءة فى سبيل تعميق المفاهيم بموضوع الجنوب . . وتوضيح الرؤية أمام الباحثين عن حلول حاسمة لكل ما كان يعترض وحدة أبناء الوطن الواحد . وهو فى نفس الوقت دراسة منظمة لمستقبل جنوب السودان فى إطار الوطن السودانى المتحد .

* * *

الفصل السادس

مستقبل جنوب السودان

احتلت قضية جنوب السودان مكانا رئيسيا فى اهتمامات الساسة والرأى العام منذ حصول السودان على استقلاله عام ١٩٥٦ وحتى اليوم . . وكان الجانب السياسى أبرز معالمها . . فكان هناك أولا موضوع علاقة الجنوب بالشمال ثم قصة التمرد وحركات الانفصال . . والتدخل الأجنبى لتعميق الهوة بين الطرفين . . والعناصر المخربة التى ساعدت الانفصاليين ، وتمثل ذلك فى نشاط البعثات التبشيرية المريب فى الجنوب.. ومساعدة الاستعمار التمرد والانفصال بالمال والسلاح والخبرات .. وإيواء مجموعات ضخمة من الفارين إلى دول إفريقية . . وتدخل دول وهيئات أجنبيـــة لصالح المتمردين . . الأمر الذى أبرز موضوع الجنوب على النطاق الدولى .

وحينما جاءت ثورة مايو ١٩٦٩ أعلنت عن حلها لقضية جنوب السودان . . ليمارس الحكم الذاتى الاقليمى فى نطاق السودان الموحد.. وتكوين جهاز إدارى يتمثل فى وزارة شئون الجنوب يقوم بالاشراف على تنفيذ السياسة المعلنة للمشروعات الخاصة بالتعمير . وبدأت الأنظار تتطلع إلى الجنوب على أساس أنه قضية تنمية ونهوض بمرافق مساحات شاسعة تحفل بالموارد والامكانيات . وهذا يعنى احتياجها إلى المزيد من مشروعات العمل والإنتاج . . ومحاربة التخلف الاقتصادى وفقاً لخطط ودراسات . والهدف من وراء ذلك هو تعويض هذا الجزء من أرض السودان بما يفتقر إليه من مقومات أساسية للتنمية ، وإيجاد الاقليم الجغرافى الآمن ، تحت إدارة ذات نفوذ مباشر لها حتى يوجد السبيل لحل المشكلة السياسية الحضارية والتخفيف من حدتها .

ونظرة إلى جنوب السودان خلال المائة سنة الأخيرة .. نستعرض فيها نصيبه من التعمير والإصلاح .. نجد أنه افتقد إلى هذا القطاع الحيوى..

وذلك قياسا إلى ما حدث فى شمال السودان أوفى الدول الافريقية المجاورة كالكونغو ويوغندا ونيجيريا وأوعندا وساحل العاج . . ولو كان هذا التطور هدفه الاستغلال الجشع لصالح الاستعمار وأصحاب رؤوس الأموال .

فحينما دخل الاستعمار إلى جنوب السودان فى مطلع القرن الماضى أوقف عجلة التطور . . بل ذهب إلى أكثر من ذلك حينما تسبب فى خلق مأساة إنسانية وذلك حينما ساعـــد التجار والمغامرين الأوربيين على الاتجار فى البشر . . وروج لتجارة الرقيق التى كانت من موارده المالية الثابتة . وفى عهد المهدية كان الصراع ضد القوى الأجنبية والفتن الداخلية أقوى مما يسمح به أى تطور للجنوب . وجاء الحكم الثنائى ليسيطر الانجليز على ربوع الجنوب وجعلوا منه منطقة مقفلة و .عمدوا إلى إفقاره وتعميم الجهل فى أرجائه . ولم يتم فى عهدهم سوى مشروع الزاندى الذى كان الدافع الأصلى له سياسيا واجتماعيا لمسايرة ظروف عاشتها الادارة البريطانية آنذاك . وجاء بعد ذلك عهد الاستقلال ليستقبل قصة التمرد والانفصال.. والتى استمرت منذ ذلك التاريخ لتحول دون أى محاولة للتعمير والاصلاح .

وتسببت هذه الظروف التى مرت بجنوب السودان فى استحالة نجاح المحاولات الفردية المتفرقة التى بذلت للتعمير الاقتصادى . . فشركة كردفان التجارية التى عملت على استغلال المطاط فى بحر الغزال لم توفق فى مهمتها . . وجهود البلجيك لتنمية المطاط فى باى باءت بالفشل . ورغم نجاح زراعة القطن فى بعض مناطق الاستوائيـــة إلا أن التمرد قوض هذا النجاح .

ولم يكن هناك استثمار رأسمالى يذكر فى المشروعات الزراعيـة غير استثمار مزارع البن والشاى التى أتلفها التمرد الذى تسبب أيضا فى إهمال العمل فى مناشير الخشب رغم إمكانيات عملها الواسعة . ومن هذا يتضح

أن قضية التنمية فى الجنوب عليها أن تخطو الآن خطواتها الأولى التى سبقتها إليها مناطق السودان الأخرى بخمسين عاما على الأقل .

إن التنمية السياسية .. وإلى حد ما . . . التنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للجنوب . . لا بد أن ترتكز على طبائع المجتمعات المحلية وتكوينها . وإلى جانب ذلك يستلزم قيامها وجود دعامتين رئيستين أولاهما إعادة الاستقرار للجنوب لتعود الحياة الطبيعية إلى بعض مناطق الانتاج التى عطلها التمرد . . وثانيهما كسر حلقة الاقتصاد الطبيعى ؛ لأن وجودها أضعافاً لوسائل الانتاج الحديثة . . ومضى فى السياسة القديمة التى كانت تقتصر على سد حاجة المنتج فقط دون زيادة الانتاج لصالح المجموع . ويضاف إلى ذلك تحسين وسائل المواصلات لتلعب دورها فى ربط المناطق البعيدة بعضها مع بعض وزيادة الاختلاط والتقارب بين المواطنين. وغير ذلك من الأعمال التى تمهد لانطلاق جنوب السودان إلى آفاق التقدم . . وتعويض سنوات التخلف التى عاشها رغم إرادته .

* * *

مشروعات التوطين :

يوجد الآن عدد من المشروعات المقترحة للنهوض بجنوب السودان اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . وقيام هذه المشروعات ونجاحها يتوقف على توفير الأيدى العاملة من أبنائه ثم استقرارها فى مناطق العمل. وفى تجربة الاستيطان التى تمت فى مشروع الزاندى عام ١٩٤٥ ما يؤكد إمكانية استقرار الأهالى فى القرى وأماكن السكنى المعدة لهم وخاصة أن شعب الزاندى الذى نجحت معه تلك التجربة يعد من أكثر قبائل السودان هجرة وترحالا .

وقد نشأت تبعا القيام فكرة مشروعات التعمير والاصلاح فى الجنوب فكرة

توطين الأهالى هناك ، سواء المقيم منهم داخل السودان . . أو من هؤلاء الذين هاجروا منه إلى الدول الأفريقية المجاورة فى أعقاب تمرد عام ١٩٥٥ . والإشكال القائم حاليا هو كيفية عودة هؤلاء المواطنين الذين تقدر أعدادهم بعشرات الألوف . لقد كان فرارهم نتيجة لعـــدة عوامل منها المعارك والاضطرابات الدامية التى شهدتها أرض الجنوب ، وحوادث السرقة والقتل والاغتصاب ، وانعدام الأمن والطمأنينة ، وتأثير الدعاية الأجنبية المباشر عليهم والتى استغلت تلك الحوادث لتعمق الخلاف بين الجنوبيين والشماليين وعودة هؤلاء إلى السودان مرة أخرى يقتضى ضرورة إزالة هذه المسببات . . وإقناعهم باستتباب الأمن والنظام ، وحسن نوايا الحكومة تجاههم . . وزوال ما كان يهدد وجودهم فى أراضيهم .

وإعادة هؤلاء اللاجئين إلى أرض الوطن . واستقرارهم فى أماكن عملهم وإقامتهم الجديد . . يعتبر فى حد ذاته مشكلة كبيرة يجب أن تتضافر الجهود من أجل إزالة المعوقات التى تعترضها . فهناك أولا الدعاية الاستعمارية المغرضة التى صورت نوايا الحكومة السودانية وأبناء الشمال تجاه الجنوب تصويراً بشعاً لتجعل من مشكلة اللاجئين مشكلة مزمنة لا يسهل حلها . وذهبت تلك الدعاية إلى أكثر من ذلك حينما استغلت الوجود الفعلى لتلك المشكلة وعملت على تصعيدها حتى تصل إلى مرحلة التدويل . وليخرج حلها من يد أبناء السودان إلى مجالات التدخل الأجنبى . ومن هنا يأتى دور أجهزة الإعلام السودانى يشاركها فى هذا الأجهزة المماثلة فى الدول الصديقة لتفند هذه المزاعم ولتذيع على أبناء جنوب السودان فى الخارج ما يؤكد صدق نوايا الحكومة نحوهم . واستعدادها المطلق للسير بهم إلى طريق الأمل والخلاص مما عانوه فى ماضيهم وحاضرهم .

وبعد ذلك يأتى دور البذل المادى الكبير الذى يتطلبه نقل هؤلاء اللاجئين من مناطق تواجدهم الحالية إلى المناطق التى ستحدد لهم داخل

السودان . فيجب توفير الاعتمادات اللازمة لترحيل هؤلاء اللاجئين من البلاد التى يقيمون فيها حاليا .. وتهيئة المناطق اللازمة لإقامتهم .. وعملهم فى جو يسوده الأمن والطمأنينة . . وتوفير الخدمات الأساسية لمعيشتهم كالمدارس ومراكز الشرطة ومكاتب البريد والمستشفيات .. وكل مامن شأنه إشعارهم باهتمام الدولة بأمرهم ، بحيث لا يقل هذا فى مستواه عن المستوى الذى يجدونه الآن فى أماكن إقامتهم الحالية .

وقد عنى المؤتمرون فى جـوبا لبحث مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الجنوب موضوع استيطان أبناء الجنوب والمشاكل الناشئة عن عودة اللاجئين من الخارج . فلقد وضح من المناقشات الحاجة الماسة لإنشاء مشاريع الاستيطان المعيشية التى تتوفر فيها مجالات العمـل والخدمات الضروريه . وقد أوصى المؤتمر بتكوين مجلس إقليمى للاستيطان يخول سلطات مالية وتنفيذية تمكنه من تعبئة كل الطاقات . وبمـا أن استقرار العائدين ومجموعات السكان الأخرى دعامة أساسية لتنفيذ مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية . . ولتحقيق السياسة الرامية إلى إعادة الثقة لدى العائدين ، رأى المؤتمر معالجة هذه المشكلة بأقصى حد من السرعة . . مع الاستفادة بكل الامكانيات المتاحة فى نطاق التكامل عند التخطيط لما بين الانتاج والخدمات والأمن .

لقد كان السبب الرئيسى فى فشل مشروعات النهوض بالجنوب فيما مضى هو عدم توفر الأمن . . وافتقار ربوعه إلى الأيدى العاملة التى تركت قراها إلى خارج البلاد خوفا على حياتها مما كان سببا فى تدهور فى الموقف .. وشكل صعوبة ضخمة أمام حركة التعمير والإصلاح . وإذا كان علاج هذا الأمر يتطلب جهودا مضنية . . فإنها الضريبة لنجاح سياسة بناءة هادفة تحقق الخير العميم للسودان كله .

التعليم :

ترك الاستعمار البريطانى للعهد الوطنى فى السودان فى قطاع التعليم عبئا ضخما ومستولية كبيرة وهى إعادة تخطيط التعليم فى جنوب السودان وإقامة صرحه إبتداء من مراحله الأولى . فقد عاش الجنوب طوال عهد الإدارة البريطانية محروما من نور العلم . . مفتقراً إلى وجود مدارس ومعاهد عليا . . لقد كانت سياسة تلك الإدارة تهدف إلى ترك أبناء الجنوب فى جهالة تامة ؛ ومن يظفر منهم بنصيب قليل من التعليم تستغله ليكون إحدى أدواتها فى تنفيذ سياستها التى تهدف إلى فصل الجنوب عن الشمال . ونظرة إلى المدارس التى كانت موجودة فى ذلك العهد نجد أنها كانت دون المرحلة الثانوية . . وكلها تابعة للارساليات التبشيرية اللهم إلا مدرسة ثانوية وحيدة أقيمت فى رومبيك . وكانت الإدارة تبعث بالخريجين المؤهلين للدراسة العالية إلى أوغندا وتحرم عليهم السفر إلى الخرطوم لتكملة دراستهم وذلك حتى لا يلتقوا مع أبناء الشمال فكريا وثقافياً .

ورغم الآثار السيئة التى خلفتها الإدارة البريطانية والتى لا تحتاج إلى إيضاح فإن هذه الادارة فإنها غالطت المواطنين محاولة إيهامهم بأنها تعمل على تقدم التعليم فى الجنوب . . وذلك من خلال المؤتمرات المتعددة التى عقدت لهذا الغرض فى أوائل الثلاثينات . . ثم إعلانها عام ١٩٣٤ عما أسمته باعادة تقييم التعليم فى الجنوب. ولم تستطع هذه الصورة الظاهرية أن تخفى حقيقة سياستها فى هذا المجال ، وكان على رأسها محو آثار اللغة العربية وإحلال الانجليزية بدلا منها . . واستبدال الدين الاسلامى بالديانة المسيحية . وتوفير أعداد من المتعلمين من الجنوبيين ليحلوا محل أبناء الشمال فى مكاتب الحكومة والارساليات بجنوب السودان .

ولعل الطابع الغالب على سياسة التعليم فى تلك الفترة . . هو تركه كاملا

للبعثات والارساليات التبشيرية تتصرف فيه على هواها وتنفذ الأسلوب الذى يتوافق مع رسالتها . وكانت أبرز معالم تلك السياسة خلق طبقية فى التعليم وذلك حين قصرت الدخول فى مدارسها على أبناء السلاطين وزعماء القبائل والعشائر . . وسجلتهم فى تلك المدارس بعد أن أعادت تسميتهم بأسماء مسيحية لتتمشى مع مبدأ تنصيرهم . . ثم العمل بكل الوسائل على إحداث تغيير فى عقلياتهم يؤدى فى النهاية إلى إبعادهم عن قبائلهم ومجتمعاتهم وكانت الارساليات تتلقى من الحكومة نظير هذا العمل المدمر المعونات السخية والتسهيلات الكبيرة . . ورصد فى ميزانية الدولة مبالغ ثابتة لها كانت تتزايد على مر السنين لتواصل رسالتها فى تنشئة أجيال لا تدين بالولاء لوطنها بقدر ما تدين للأجنبى بالطاعة والاخلاص .

ورغم الجهود التى بذلتها الإدارة البريطانية من ناحية والارساليات التبشيرية من ناحية أخرى لطمس معالم اللغة العربية وإحياء اللغة الانجليزية . . فان هذه السياسة لم يكتب لها النجاح . فقد انتشرت اللغة العربية رغم الحرب الشعواء ضدها فى إقليم بحر الغزال بين عدد كبير من المواطنين . كما أصبحت لغة تخاطب فى مديرية أعالى النيل يفهمها ويتحدث بها أبناء القبائل ، . هذا فى الوقت لم تحرز فيه اللغة الانجليزية أى تقدم نظراً لعدم توفر الكتب اللازمة لتعليم الأهالى .

واستمر التعليم فى جنوب السودان على حاله كما رسمت سياسته الإدارة البريطانية ونفذتها البعثات التبشيرية . . يشكو قلة عدد المدارس فى كافة المراحل . . وانعدام المناهج المناسبة للتلاميذ . . وقلة عدد المدرسين . وظل الحال على تلك الصورة حتى بعد خروج الاستعمار من السودان والذى واكبه قيام حركة التمرد . لقد أحدثت تلك الحركة ومضاعفاتها فيما بعد أثرها فى اضطراب الأمن . وحالت دون قيام مشاريع للاصلاح بما فى ذلك التعليم ، وقد بدأ النشاط يدب مرة أخرى فى مشاريع إنعاش

التعليم فى الجنوب . وشهد مؤتمر بهوبا الذى عقد عام ١٩٧١ لونا من ألوان هذا النشاط . لقد بحث هـذا الموضوع الخطير واستقر الرأى على توسيع قاعدة التعليم فى الجنوب بإنشاء عـدد من المدارس الابتدائية والثانوية والمهنية . . وإتاحة الفرصة للجنوبيين لدخول الجامعة . . وتذليل العقبات التى تقف فى هذا السبيل وإنشاء فرع لجامعة الخرطوم فى الجنوب تـكون اهتماماته بالنواحى التاريخية والقانونية والادارية والفنية .

ولمـا كانت اللغة العربية هى اللغة المشتركة فى كافة أنحاء البلاد . . فان النية اتجهت إلى تدريسها فى جميع مراحل التعليم فى الجنوب . كما تقرر أن يخصص قسم لتدريب الموظفين والعاملين . . وأن تتبنى وزارة التربية والتعليم العالى فكرة إنشاء معهد الدراسات العربية فى الجنوب . وبهذه الإجراءات يمـكن النهوض بلغة البلاد الرسمية وتعميمها فى كافة أنحاء المديريات الجنوبية .

والفـكرة القائمة الآن هى خلق أجيال جديدة من أبناء الجنوب تـكون مزودة بالمعرفه والمهارة الفنية عن طريق التدريب المهنى لتعلم وسائل استعمال الآلات الحديثة إلى جانب بعض الدراسات المـكملة الأخرى . كما اقترح أن يكون هناك تدريب حرفى لمن تحول ظروفه دون إتمام دراسته .

إن التعليم بالنسبة للجنوب . . هو الأساس الذى ستبنى عليه التنمية الاقتصادية والاجتماعية . والجدية فى تنفيذ مشروعاته ومناهجه وإعداد المدرسين تعنى إعداد أجيال على مستوى طيب من الوعى والادراك تستطيع النهوض بالأعباء المسندة إليها .

* * *

الصحـة :

كان التخلف فى قطاع الصحة إحدى العلامات المميزة فى قصة جنوب السودان ، فقد عاش الجنوب وهو يفتقر إلى وجود خدمات طبية ممثلة فى مستشفيات ووحدات علاجية متنقلة وأدوية وعقاقير تقلل من حدة الأوبئة والأمراض المستوطنة .. وقد عانى أبناء الجنوب من هذا النقص الكبير الذى أثر على مستوى معيشتهم وعلى تعمير المناطق الشاسعة التى يعيشون فيها .

والجنوب يشكل نسبة عالية فى مواليد السودان حيث تبلغ فى مديرية أعالى النيل ٦٩ر٣ فى الألف وبحر الغزال ٤٨ر٦ وفى الاستوائية ٤٥ر١ بالقياس إلى النسبة العامة فى السودان كله وهى ٥١ر٧ . ومع هذا فان نسبة الوفيات العالية أيضاً بين أبنائه تقلل من أهمية هذه الزيادة .

والمعروف أن الوفيات فى أعالى النيل ٣٢ر٦ فى الألف وفى بحر الغزال ٢٧ر٣ وفى الاستوائية ٢٧ وفى السودان كله تبلغ النسبة الاجمالية ١٨ر٥ فى الألف . هذا فى الوقت الذى يحتاج فيه الجنوب إلى أعداد كبيرة من المواليد تزيد من عدد سكانه . . لتساعد فى عمليات البناء والتعمير .

ولعل أول اهتمام فى قطاع الصحة يرمى إلى العناية بصحة الأمومة والطفولة وتدريب وتوفير عدد الزائرات الصحيات وقابلات القرى لمواجهة النسبة العالية فى الوفيات بين الأطفال . هذه النسبة والتى تبلغ فى مديرية أعالى النيل ٣٢ر٩ فى الألف وبحر الغزال ١١١ر١ وفى الاستوائية ١٤٣ر٦ بالنسبة لمجموع الوفيات بين الأطفال فى السودان وهى ٩٣ر٦ «فى الألف» . وهذا العدد الضخم الذى يتوفى من الأطفال فى الجنوب سنويا يذهب نتيجة الاهمال فى رعاية الحوامل وعدم العناية بهن أثناء الوضع ثم ما يلاقيه المواليد من سوء إشراف والتعرض لخطر الاصابة بالنزلات والأمراض التى تودى إلى الوفاة . فاذا ما عرفنا أنه ليس فى الجنوب سوى مدرستين

للقابلات فى جوبا وملكال لا تغنيان ولا تسمنان من جوع فإن زيادة هذه المدارس وتوسيعها يقف فى المرتبة الأولى ... واتجهت النية فعلا إلى إنشاء مدرسة جديدة فى واو وتدعيم مدرسة جوبا ومدرسة ملكال .

وأهالى جنوب السودان يعيشون عرضة للأوبئة الخطيرة والأمراض المستوطنة كالملاريا والحمى الصفراء والحمى الشوكية ومرض النوم وغير ذلك . وفى تقارير هيئة الصحة العالمية ما يفيد بانتشار هذه الأوبئة بصورة تهدد حياة المواطنين . ولهذا كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بينهم. وقد قامت الهيئة الدولية بعدت أبحاث ودراسات عن مواطن تلك الأمراض وطرق مكافحتها . . ولكن إحداث الجنوب غير المستقرة واضطراب الأمن فى ربوعه من فترة لأخرى أوقف نشاط هذه الهيئة وايجابية الأعمال التى تقوم بها . . وخاصة مشروعاتها فيما يتعلق بمكافحة الأمراض التناسلية الواسعة الانتشار فى المديرية الاستوائية والتى تؤدى إلى مضاعفات خطيرة منها الحمى والعقم .

والنية الآن متجهة إلى توفير الخدمات الصحية الضرورية مع التركيز على الصحة الوقائية والتى تشتمل على صحة البيئة ومكافحة الأمراض المستوطنة . . وذلك بتخصيص نسبة معقولة من ميزانية المجالس البلدية لهذا الغرض . ثم العمل على زيادة المراكز الصحية وتوفير المواصلات السريعة كالطائرات مثلا لمكافحة الأمراض الوبائية عند الطوارىء . ويأتى بعد هذا موضوع زيادة الوعى الصحى بين أهالى الجنوب عن طريق وسائل الأعلام المختلفة والمتبعة فى عدد كبير من الدول. وادخال الموضوعات الصحية فى مناهج الدراسة حتى تخرج الأجيال وهى على ثقافة ووعى بالنواحى الصحية .

وإذا ما سارت هذه المشروعات جنبا إلى جنب مع إنشاء المستشفيات وتوسيعها بالعواصم والمدن .. وإنشاء مستشفيات ووحدات علاجية منتقلة

مجهزة بالأدوية والعقاقير والأطباء . . فإن هذه الأعمال ستؤدى فى النهاية إلى الارتفاع بالمستوى الصحى لدى المواطنين وحمايتهم مما يعانون منه حاليا . . وحفظ حياتهم إلى درجة تقلل من نسبة الوفيات فى مديريات الجنوب .. بحيث تظهر الفائدة من زيادة نسبة المواليد فى تعمير هذه المناطق وتوفير الأيدى العاملة السليمة للقيام بوظيفتها فى المجتمع.

* * *

المواصلات :

ترتبط قصة النهوض بجنوب السودان وزيادة المشاريع العمرانية فيه ارتباطا وثيقا بتطور المواصلات وتحسين وسائلها بين ربوعه . فليس من السهل زيادة الربط بين أجزائه ووسائل الانتقال تفتقر إلى الإمكانيات التى تمكنها من تأدية دورها على الوجه الأكمل ، وتشتمل وسائل النقل الداخلى فى السودان عامة والجنوب خاصة على النقل النهرى والسكك الحديدية والطرق البرية والخطوط الجوية .

ولعل أكثر هذه الوسائل توفرا فى الجنوب هى النقل النهرى وشريانه الحيوى النيل الأبيض. فعلى امتداده من جوبا إلى الخرطوم ولمسافة ١٦٥٠ كيلومتراً يصلح للملاحة فيما عدا عقبات بسيطة يصادفها فى منطقة السدود النباتية فى أقصى الجنوب وصخور دانكل على بعد ٣٥٠ كم جنوب الخرطوم ثم عند مخاضة أبو زيد . وهناك رحلات وسفريات منتظمة بين مدينة كوستى ومدينة جوبا بالبواخر السريعة والبطيئة طول السنة تحمل المسافرين والبضائع . ويعتبر هذا هو الطريق الرئيسى فى الملاحة النهرية. وهناك طرق أخرى فرعية مثل الذى يربط مدينة واو بالنيل الأبيض وهو موسمى يستعمل خلال الفيضان من يوليو إلى نوفمبر . . وطريق واو — مشرع الرق وطوله ١٦٠ كم ويستغل فى نقل الأخشاب التى يتم قطعها من الغابات . .

ثم خط يربط مدينة الناصر على نهر السوباط ومدينة جوميلا على رافده بارو على الحدود الحبشية .

أما خطوط السكك الحديدية . . فقد ظل جنوب السودان يفتقر إلى وجودها حتى عهد قريب ، والسبب فى ذلك يرجع إلى الاستعمار البريطانى الذى عمل على فصل الجنوب عن الشمال . وظل الجنوب على هذا الوضع حتى عام ١٩٦١ حين تم تشغيل أول خط حديدى امتد جنوبا حتى مدينة واو . وهذا الخط يشكل الآن أحد الامتدادات السته لسكة حـــديد السودان وهى الأبيض ونيالا ووادى حلفا وبور سودان والروصيرص ثم واو .

والوسيلة الثالثة للمواصلات هى الطرق البرية . . وقد هيأت الطبيعة الطرق الصالحة لاستعمال السيارات . وتعتبر مدينة جوبا هى المركز الرئيسى لالتقاء هذه الطرق . فمنها يتفرع طريق إلى توريت ونمولى على الحدود الجنوبية مع أوغنـــدا . . وطريق آخر إلى الجنوب الغربى يوصل إلى الكونغو كينشاسا . ولولا وجود منطقة السدود والمستنقعات لتحسنت الطرق البرية إلى مديرية أعالى النيل التى ما زالت تعانى من ضعف هذا الشريان الحيوى فى ربطها بأجزاء متعددة من الوطن وأهم طرق السيارات الحالية من الجنوب وإليه هو خط الخرطوم — ملكال ، أما عن طريق كوستى والرنك أو واد مدنى الروصيرص . . وطريق ملكال جوبا عن طريق بور ومنجلا وهما موسميان : ثم طريق جوبا — نيمولى وهو مفتوح طول السنة .

أما النقل الجوى .. فهناك رحلات منتظمة شبه يومية بين الخرطوم — ملكال — جوبا تنقل الركاب والبضائع .

وربط جنوب السودان بعضه مع بعض . . ثم مع أجزاء الوطن

الأخرى على هذا الامتداد الواسع يحتاج إلى مضاعفة تلك الطرق بأنواعها المختلفة .. وتحسين أساليب الخدمة فيها . وتحقيق هذا الأمر يأتى عن طريق إصلاحات سريعة ودائمة لمرفق النقل النهرى ، وتذليل العقبات أمامه وفى مقدمتها إزالة أعشاب النيل وزيادة السرعة والحمولة .. ثم العمل على إصلاح وفتح الطرق الداخلية وجعل وحدة الطرق بالمديريات الجنوبية وحدة نظامية . وبعد هذا يأتى التوسع فى النقل بالسكك الحديدية والخطوط الجوية حتى يتم اتصال الجنوب بالشمال بشبكة من المواصلات السريعة أهميتها البالغة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وما دمنا بصدد الحديث عن المواصلات . . فلا بد من الكلام عن المواصلات السلكية واللاسلكية فى الجنوب حيث يوجد حاليا عدد من مكاتب البريد التى توفر للمواطنين الاتصال التليفونى والبرقى مع سائر أنحاء السودان . ولكن يلاحظ أن عدد العاملين بها لا يستطيع مواجهة الأعباء المتزايدة على هذه الخدمة . وقد قدمت مشاريع لتحسين الدوائر السلكية التى تربط بين عواصم المديريات الثلاث والخرطوم برقيا وتليفونيا . . وإدخال نظام السنترالات الأوتوماتيكية وإعادة بناء مكاتب جديدة للبرق والبريد فى تلك العواصم لتستوعب الزيادة المنتظرة فى حجم أعمالها . كما اتجهت النية إلى فتح مكاتب بريد وبرق وسنترالات صغيرة من المدن العامة الأخرى فى الجنوب حتى يسهل الاتصال بها وتكون وسيلة إلى تعميرها والنهوض بمرافقها .

* * *

الصناعة والثروة المعدنية :

يمارس المواطنون فى جنوب السودان فى داخل قراهم وأماكن سكنهم أعمالا ذات صبغة حرفية . . مستفيدين من الموارد المحلية لإنتاج مختلف النماذج . هذه النماذج تعكس روعة الفنون الأصيلة التى يتناقلها جيل عن

جيل والتى تخلد حضارات الآباء والأجداد منذ عرفت الحياة على ضفاف النهر الخالد . ومن هذه الصناعات صناعة النسيج «الدمور» وصناعة الفخار والسجاد .. ونحت أشكال وصور للحيوانات من الأبنوس وسن الفيل والمصنوعات الجلدية وغيرهما .. وذلك بالرغم من قلة الإمكانيات وضعف وسائل التطوير لهذه الصناعات .

وأغلب هذه الحرف تمارس على نطاق فردى وهى لهذا تفتقر إلى وسائل التسويق مما يجعل الصانع تحت رحمة الوسطاء ولا تعود عليه أعماله بما يستحق من جزاء مادى .

والذين يمارسون إنتاج هذه الحرف ليست لديهم مدخرات يصرفونها على تحسين صنعتهم . وفى أغلب الأحيان يبيعون منتجاتهم بأبخس الأسعار لمواجهة التزاماتهم الضرورية . وقد يضطر البعض إلى أن يهجر قريته سعياً وراء العمل .

كما أن هذه المصنوعات تتميز بالجمود وعدم التنويع وإدخال تصميمات تساير الذوق الحديث لانعدام التدريب الفنى عند هؤلاء المواطنين . فالمواطن الجنوبى يعتمد على ذوقه الفطرى الذى ينقصه الصقل حتى تلائم منتجاته الأذواق الحديثة .

إن الصناعات القروية يمكن أن تلعب دورا بارزا فى تطوير مستوى المعيشة للمواطنين فى الجنوب .. وتنمية مواردهم وذلك إذا أشرفت عليها مؤسسة حكومية أو شبه حكومية . تتولى مهمة تنمية هذه الصناعات عن طريق إرشاد الصناع والحرفيين .. وتعليمهم ومدهم بالوسائل التى تعينهم على إجادة الصناعة وتنويعها . كذلك فإن قيام جمعيات تعاونية تضم هؤلاء الصناع وتمدهم بالمواد الخام والمعدات وتتولى بعد ذلك تسويق منتجاتهم سوف يساعد على

إنعاش مواردهم . هذا فضلا عن إقامة معاهد ومدارس على المستوى الذى يثقف الصغار ويرفع من كفايتهم وتدريبهم وفق الوسائل الحديثة المبسطة .

هذا على مستوى الصناعات القروية .. أما عن الصناعات الأخرى التى كان ينبغى ان تجد مكانها فى عواصم المديريات الثلاث ومدنها الهامة . فقد حالت الظروف السياسية التى مر بها السودان دون قيام أى لون من هذه الصناعات برغم توفر المواد الأولية اللازمة لها . وقد وضعت الحكومة مؤخرا فى مشروع الخطة الخمسية ، خطة للنهوض ببعض الصناعات فى الجنوب . . واعتمدت لها المبالغ التى تسمح بتحركها . من ذلك مصنع الجوالات فى التونج برأس مال قدره مليون وستمائة ألف جنيه .. ويعمل به ١٨٤ عاملا . وقد أثبتت التجارب نجاح هذه الصناعة بحيث تستطيع فى المستقبل مواجهة احتياجات البلاد منها .

وإلى جانب مشروع مصنع الجوالات . . هناك مشروع مدبغة لجلود الزواحف فى ملكال برأس مال قدره ٨٢٨,٠٠٠ جنيه ويعمل به ٩٧ عاملا يقومون بدباغة أكثر من ٢٠٠ ألف قطعة سنويا تدر دخلا مضمونا يساعد فى مشروعات التنمية الأخرى ، كما أن مشروع مصنع الأبلكاش فى مدينة واو رصد له ٧٦٦,٠٠٠ جنيه و٥٨ عاملا لينتج هذا النوع من الأخشاب التى تستخرج من أشجار الماهوقنى المتوفرة فى بحر الغزال .

وإلى جانب هذه المصانع الثلاثة . . هناك مشروعات أخرى تحت الدراسة أو تم بحثها فعلا و تنتظر توفير رأس المال اللازم لقيامها . . منها مشروع مصنع السكر برأسمال قدرد ٧ مليون جنيه وليعمل به ٣٥٠٠ عامل وينتج عشرة آلاف طن سنويا .. ومصنع للورق مستخرج من نبات البردى ولب الأشجار ومجموعات الحشائش الأخرى التى تذخر بها منطقة السدود. وقد سبق لإحدى الشركات الألمانية أن أجرت بحثاً فى هذا الموضوع منذ

أكثر من خمسين سنة ونجحت التجارب التى حالت الحرب العظمى الأولى دون أن تنفذ تلك الشركة مشروعها . وهناك مشروع بإنشاء مصنع للأحذية المطاط ومصانع لتعليب الأسماك ومعاصر الزيوت والصابون وطواحين الغلال ومصانع للثلج والمياه الغازية ومصنع للملابس الجاهزة .

والحديث عن الصناعة .. يسوقنا إلى ذكر شىء عن الثروة المعدنية التى تذخر بها أرض الجنوب . فبالرغم من أنه لم يتم مسح جيولوجى سليم لهذه الأقاليم ، إلا أن التقارير التى جاءت فى كشوف الرحالة والبعثات العلمية التى زارت الجنوب .. وكذلك ماتم بحثه أثناء عهد الإدارة البريطانية .. يؤكد وجود عدد من المعادن فى عدد من المناطق . فخام الحديد موجود فى كبويتا فى الاستوائية وجبل داجو فى أعالى النيل والذهب فى جوبا وموريت وياى والنحاس فى منطقة حفر النحاس والصفيح جنوب واو والرخام فى منطقة ناكشوط .. وغير ذلك من المعادن الأخرى .

وقد حالت صعاب متعددة دون استغلال هذه المعادن وفى مقدمتها عدم اكتمال الدراسات الفنية عن مناطق تواجدها .. وصعوبة المواصلات إلى هذه المناطق .. وظروف الحالة السياسية التى مر بها السودان قبل الاستقلال .. ثم عدم الاستقرار فى الجنوب يتبعه أحداث التمرد التى دبرها الاستعمار وأعوانه . ومن المؤكد أنه قد زالت معظم هذه الأسباب وقامت فى البلاد وزارة خاصة بالتعدين فإن العناية بأمر استخراج هذه الكنوز المدفونة فى الأرض ستجد عناية خاصة لما تشكله هذه الثروات من مورد هائل فى اقتصاديات السودان يساعد على قيام المشروعات الانمائية والنهوض بمرافق الدولة .

* * *

الثروة الزراعية .

تقع مديريات السودان الجنوبية الثلاث بين خطى عرض ٤و١٠ شمال خط الاستواء .. وتبلغ مساحتها حوالى ٢٥٠ ألف ميلا مربعا . هذه الرقعة الواسعة تختلف طبيعتها ومناخها وأمطارها والمجارى المائية التى تجرى فيها . فالأمطار التى تسقط فى شمالها تبدأ فى مايو وتنتهى فى أكتوبر بينما فى أقصى الجنوب تبدأ فى مارس وتنتهى فى نوفمبر . . كما أن درجة الحرارة تتراوح بين ١١ و٤٤ فى مناطقها المختلفة . وهذا الاختلاف فى كمية الأمطار ودرجة الحرارة أدى إلى وجود اختلاف وتعدد بين النباتات التى تنمو فى مديريات الجنوب .

وقد أدى اختلاف كميات المياه فى الجنوب إلى وجود ثلاثة أنواع من التربة تقتسم مساحة الأراضى الزراعية .. فالتربة التيجانية تبلغ ١٥٠ ألف ميل مربع ، وعليها تسكن قبائل الدنكا والشلوك والنوير . وتعتبر هذه المنطقة فى مجموعها من أصلح المناطق لزراعة الأرز . ثم تربة الفيرتوسول وهى طينية سوداء تقع شرق بحر الجبل وتمتد من حدود يوغندا إلى نهر السوباط شمالا وتعتبر أصلح المناطق لزراعة قصب السكر . وأخيراً التربة الحمراء تصلح لزراعة المحاصيل الشجرية والحقلية والفاكهة .

وقد أقيمت فى المديريات الجنوبية عامة والاستوائية خاصة عدد من المشاريع الزراعية أهمها مشروع الزاندى ومؤسسة المشاريع الاستوائية فى إنزارا ومشاريع البن والشاى والغابات فى اتحاد تلك المديرية .

وقد قام مشروع الزاندى فى أواخر عام ١٩٤٣ فى أقصى جنوب السودان فى مناطق حدوده مع الكونغو حيث التربة وأحوال الجو يصلحان للزراعة من ناحية وكثرة عدد السكان من ناحية أخرى . كما أن هذه المنطقة يكثر بها سقوط الأمطار وبالتالى تعتبر أصلح المناطق للزراعة

المطرية . وقد تضمنت خطة المشروع تنمية زراعة القطن والبن فى هذه الجهات ولهذا رأت إدارة المشروع أن تجرى التجارب على هاتين الغلتين وثبتت صلاحية الأرض لزراعتها .. ومن هنا كان التفكير فى دفع الأهالى إلى الاستقرار فى مناطق إقامتهم بدلا من حياة التنقل التى تعودوها منذ آلاف السنين . وقررت إدارة المشروع أن تقيم مجموعات من المساكن على مساحات متقاربة تضم كل منها نحو خمسين عائلة .. خصص لكل منها ما يقرب من أربعين فدانا . هذه المساحة كانت تزرع على أساس منظم يشبه الدورة الزراعية الطويلة المدى ، كما تم إنشاء محطات للتجارب تشرف على عمليات الزراعة والجمع والتسويق . وقد وضع القطن فى المرتبة الأولى فى الإنتاج يليه الفول والذرة .. وتحولت منطقة انزارا تبعاً لذلك إلى منطقة صناعية تقوم بها مصانع الحليج والغزل والنسيج وظهرت بها المجتمعات العمالية التى تتوافر على العمل فى هذه الصناعات .

وعملت مؤسسة المشاريع الاستوائية فى إنزارا مع ذلك .. على استغلال محاصيل البن والأناناس والنخيل .

وتشير الإحصائيات أن المؤسسة لها ١٣٧٢ فدان بن ومائة فدان أناناس و٤٠٠ فدان نخيل لاستخراج الزيوت و٧٠٠٠ فدان قطن . والمساحة المزروعة قطناً لا تفى بثلث احتياجات المصانع الموجودة وذلك راجع لقلة الأسعار التى تشترى بها المؤسسة وقلة العائد النقدى للمزارع من القطن ، كما أن كمية الأناناس السنوية التى تقدر بثمانمائة طن لا تجد وسائل الترحيل إلى مصنع التعليب فى واو .

أما مشاريع إنتاج البن والشاى فى الاستوائية فهى تتبع وزارة الزراعة

ومؤسسة مشاريع الاستوائية ومشاريع يملكها القطاع الخاص فتبلغ ٥٠٠ فدان بن تقريبا وحوالى ١٨٠ فدان شاى ، وعائد هذه المشروعات غير منتظم نظراً لما يتعرض له المحصول من إهمال يتسبب فى قلة معدلاته .

الأمر الذى يدعو إلى ضرورة إعادة تخطيط هذه المشاريع وتطوير إنتاجها وفقا للأساليب الحديثة حتى يمكن أن تتحقق الفائدة المرجوة .. وتشجع على التوسع فى هاتين الزراعتين لحاجة السـوق المحلية إليهما حاجة شديدة .

وهناك مشروع تجرى دراسته حاليا يهدف إلى إنشاء مشاتل مساحتها ١٠,٠٠٠ فدان توزع على مزارعى القطاع الخاص وتمدهم الحكومة بالخدمات والارشادات اللازمة والبذر وعمليات تنظيف الأرض كما تجرى الأبحاث لدراسة إمكانيات زراعة الشاى وبعض المحاصيل الأخرى فى المديرية الاستوائية يتوافر عليها خبراء فى هذه الألوان من الزراعة .

ومديرية بحر الغزال من أصلح مناطق السودان لزراعة الأرز .. ويعتبر مشروع زراعة الأرز الذى يبدأ عام ١٩٦٠ من أهم المشاريع الزراعية فيها . وقد خطط له بحيث ينمو على مراحل حتى يمكن فى النهاية الاعتماد على محصوله لسد حاجة الاستهلاك المحلى ، وقد هيأت الظروف الطبيعية الفرص لنجاح هذه الزراعة حيث توجد الأراضى المنخفضة الهائلة الاتساع والتى تتجمع فيها مياه الأمطار وفيضانات الأنهار لعدة شهور من السنة .

وكان أول من اكتشف صلاحية هذه المناطق لزراعة الأرز هو المهندس المصرى المعروف عبد القوى أحمد الذى أشرف على بناء خزان جبل الأولياء . فقد كان فى زيارة له لجنوب السودان وشاهد جهات بحر الغزال

وأعالي النيل ورأى بحكمة الخبير المجرب أنها لو زرعت أرزاً وفق الأساليب الحديثة لسدت حاجة السودان ومناطق كثيرة من العالم .

ويعد مشروع الأرز بمركز أويل بمديرية بحر الغزال أول تجربة لهذه الزراعة بصورة موسعة .. وهدفه هو تحقيق الاكتفاء الذاتي للسودان الذي يستهلك سنوياً حوالى ٧٠٠ طن . وكان أول خطوة فيه التمهيد لزراعة ١٥ ألف فدان في منطقة واحدة قسمت في الداخل إلى عدد من الأحواض .. واتخذت الإجراءات لزراعتها وحمايتها من خطر المياه والحشائش الضارة حتى ينضج ، وبعد ذلك تجرى عملية تخزين المحصول بطرق فنية قبل عملية القشر والتبييض بواسطة الآلات التي استوردت من اليابان لهذا الغرض . وهذه الآلات تقشر الأرز وتبيضه إلى ثلاث درجات .. يتم بعدها تعبئة الدرجة الأولى والثانية منها في جوالات تعد للتصدير للأسواق الداخلية ، وقد قامت بعض العقبات في سبيل هذا المشروع ليدر المحصول المرتقب .. كعطش الأرض لأسباب فنية ،والطيور الكثيرة التي تغير على شون التخزين ، والشمس الحارقة التي تؤثر على رطوبته فتعرضه للكسر أثناء عملية القشر .. وغير ذلك من الأسباب التي لولاها لأدى هذا المحصول دوره في الاقتصاد السوداني .

والمعروف أن وسائل نقله من الجنوب إلى الخرطوم سهله ،حيث يمر خط السكة الحديد من واو إلى العاصمة على المشروع مباشرة . وقد شجع هذا على زيادة إصلاح الأراضي لتحقيق إمكانية التوسع إلى ١٥٠,٠٠٠ فدان حسبما قدر الخبراء من قبل على المدى الطويل .

وهناك عدد آخر من المشاريع الزراعية في مديريتي بحر الغزال وأعالي النيل منها مشروع توزيع ٢٠٠ ألف فدان في منطقة الرنك بأعالي النيل.. توزع على القطاعات الخاصة والعامة والتعاونية لزراعة الذرة غذاء الأهالي

الرئيسى، ومشروع إنتاج الخضروات فى منطقة واو على مساحة ٢٠٠ فدان. ومشروع فى منطقة التونج لزراعة الكنساف فى دورة زراعية مع الذرة والفول السودانى. ومشروع زراعة قصب السكر على مساحة قدرها ٤ ألف فدان فى منجلا وطوط . واعتمدت مبالغ لتجارب هذه الزراعة كما قدرت تكاليف مصانع لإنتاج السكر بمليونى جنيه تنتج ٦٠ ألف طن سنوياً ويعمل بها ٣٥٠٠ عاملا .

ومن المشروعات الجديدة المقترحة مشروع بإنشاء ١١ جنينة للخضروات والفواكه حول المدن الكبيرة مساحة كل منها ٨٠٠ فدان ، ومشروعات لإنتاج المحاصيل يبلغ عددها ٤٣ مشروعا توزع على مراكز المديريات الجنوبية وينتظر أن تعطى هذه المشاريع مساحة قدرها ٢٠٠,٠٠٠ فدان. وتكون المحصولات الأساسية والذرة والسمسم والفول السودانى والذرة الشامى وتقدر تكاليف المشروع بحوالى ١,٧٠٠,٠٠٠ جنيه .

هذه المشروعات الضخمة فى حاجة إلى آلاف الأيدى العاملة ولهذا أوصى مؤتمر جوبا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية للجنوب بتوفير المال اللازم لمشاريع الاستيطان لتوطين العائدين من أبناء الجنوب وتوفير الحياة المستقرة لهم وهذا بالتالى يساعد على استتباب الأمن والنهوض بقضية التنمية التى هى فى الواقع قضية جنوب السودان .

• • •

مشروع قناة جونجلى :

كان التسرب النهرى فى منطقة السدود النباتية بأعالى النيل موضع اهتمام خبراء الرى منذ اكتشاف منابع النيل فى أواخر القرن الماضى . وأخذ هذا الاهتمام صوراً مختلفة منذ عام ١٩٠٤ حين قدم أول بحث لحماية

مياه النهر من الضياع وسط المستندات والسدود الكثيفة . هذه المنطقة تبدأ من مدينة جونجلى فى المديرية الاستوائية قاطعة بحر الغزال إلى أن تصل إلى مدينة موقو . ثم توالت المشروعات بعد ذلك .. حتى كان عام ١٩٤٨ حين وضعت مشروعات أعالى النيل فى صورتها المتكاملة .. والتى شارك فيها المهندس المصرى الدكتور محمد أمين بقسطموفور . وأصبحت هذه المشروعات تحت أيدى الهيئة الفنية الدائمة لمياه النيل التى يشترك فيها خبراء من السودان ومصر .

والمشروعات والمحاولات المقترحة حتى الآن تختص بالناحية الهندسية فقط والتى تهدف حفر قناة فى خط مباشر يبدأ من مدينة جونجلى وينتهى عند مدينة موقو تاركا التعاريج والانثناءات التى يمر بها النهر جانباً . . ليتولاها مشروع آخر لردم منطقة المستنقعات والمناطق الأخرى التى تقطعها الخيران التى تنتشر فى هذه المساحات .

والمعروف أن النهر تظهر فى مجراه مجموعات كبيرة من المستنقعات . وعندما يصل فى جريانه إلى الجانب الشرقى لوادى العالياب . . يدخل فى منطقة السدود .. وفيها يتفرع من المجرى الرئيسى عدة مجار ذات جوانب متعددة ومتعرجة ، شاقة طريقها وسط حشائش البردى الكثيفة لعدة كيلو مترات على كلتا الضفتين .

ونتيجة لهذا فإن كميات كبيرة من المياه تفقد من مياه النهر بسبب الترسيب والرشح والبخر بحيث تبلغ كمية المياه عند خروجها من منطقة السدود أقل بكثير عند دخولها إليها من مدينة جونجلى . ومشروع القناة يهدف إلى الاحتفاظ بأكبر قدر من المياه القادمة من الهضبة الاستوائية .. وتقليل كمية المياه التى تفقد فى منطقة السدود .. وزيادة كمية التصريف خلف هذه المنطقة .. مما يعتبر كسبا مائياً يعود بفائدة اقتصادية كبيرة على البلاد .

وإتمام مشروع قناة جونجلى ووفائه بالغرض الذى أنشىء من أجله سيجعله أحد المشاريع الهامة فى السودان . وفإن قيامه فى منطقة شاسعة المساحة تغمرها الماء سوف يستفاد من طاقاتها الطبيعية بواسطة أعمال هندسية .. وهو وضع مشابه لمناطق فى هولندا . هذا من الناحية الهندسية .. أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فإنه سوف يستفاد منه كأحد مشروعات التنمية الهامة باعتبار أن مشروع المستنقعات والاستفادة من هذه الأراضى فى الرعى والزراعة والتوطين وصناعة الأسماك واللحوم .

أما من الناحية البشرية ، فسوف يساعد المشروع على استيطان أعداد كبيرة من العائلات على ضفتى القناة الجديدة . . تمارس حياة اجتماعية يسودها الاستقرار والإنتاج .. وخاصة أنها ستكون المستفيد المباشر من العمليات الفنية المترتبة على إنشاء القناة . ومن ذلك مشروع الإكثار من المراعى .. فبواسطة تصريف المياه ورى المنطقة يمكن أن يتوفر العشب للمراعى على طول السنة .. كما ستتوسع أراضى المرعى بإزالة الشجيرات والحشائش التى لا يستفاد منها .

أما من الناحية الزراعية فإن الإصلاحات التى ستقوم فى تلك المنطقة ستساعد على ظهور أنواع جديدة من المحاصيل الغذائية وأهمها الغلال والفول السودانى.. وما سوف تسفر عنه التجارب والأبحاث على استنباط زراعات تصلح لها البيئة والتربة .

وإنشاء قناة جونجلى سيؤدى إلى الاحتفاظ بكميات المياه مما سيترتب عليه زيادة كبيرة فى الثروة السمكية وما ينتج عن ذلك فائض كبير منها يمكن تصديره أو تجفيفه . كما أن المنطقة ستكون مكانا صالحا لقيام مشروعات مزارع الأسماك .

ونقطة هامة يجدر الإشارة إليها .. وهى أن مشروعات التوطين لأبناء جنوب السودان فى منطقة القناة يتطلب توفير خدمات صحية وتعليمية لهم وتحسين المواصلات إلى جهات إقامتهم وغير ذلك من المرافق العامة الأمر الذى يتطلب تكاليف وميزانية كبيرة للنهوض بالمشروع ووحداته المختلفة حتى يؤتى نتائجه الإيجابية المتوقعة .

• • •

الغابات :

تعتبر مديريات السودان الجنوبية من أغنى المناطق بالنسبة لموارد الغابات التى تشتمل على أنواع كثيرة من الأشجار أهمها المهوقنى والبو والتك والسنط والطلح والكافور والتنون والأبانوس والتى يبلغ إنتاجها من الأخشاب حوالى ١٤٠ ألف متر مكعب سنويا . وتختلف كمية الغابات والأشجار من مديرية إلى أخرى . . وبالتالى تختلف كميات الأخشاب المستخرجة وأنواعها .

فالمديرية الاستوائية تتمتع بظروف مناخ وتربة يكونان أنسب الظروف لنمو الأشجار وتعددها مما جعلها مصدراً لثروة متجددة خلال الثلاثين سنة الأخيرة . وأتاح هذا فرصة الاستقرار والعمل لأعداد كبيرة من المواطنين . وتضم المديرية عدداً من الغابات المحجوزة تبلغ ٢١ غابة تصل مساحتها إلى أكثر من نصف مليون فدان . وتتركز أعمال الغابات فى حمايتها من الحرائق وتتبع نموها وقطع الأخشاب فيها وإعمال المناشير .

وتوجد بالمديرية مجموعتان رئيسيتان من المناشير وهما مجموعة لوكا وتتألف من عدة مناشير متناثرة فى دائرة قطرها ثلاثين ميلا . . ثم مجموعة كاترى الشهيرة، ولكل من هاتين المجموعتين ورش لصناعة الأثاث . . وتقوم أيضا صناعات أخرى

كالورق والخشب المضغوط وصناعات ثانوية أخرى .كما تنتج الغابات أعمدة المبانى وحطب الحريق والفحم الذى يشكل دخلا مضمونا للكثير من المواطنين . وهناك مشروع لغرس ٥٠٠٠ فدان بأشجار التك و٥٠٠٠ فدان أخرى بالقنا لتقوم عليها صناعة الورق وعجينته . كما أنه فى النية التوسع فى أعمال الغابات القائمة الآن وأعمال المناشير وصناعة الأثاث وذلك بزيادة اعتماداتها . . وسوف يتسبب ذلك فى استقرار الأهالى . ويجرى العمل كذلك فى تدعيم بحوث الغابات لتحسين الأشجار المغروسة وإعادة مسح مناطقها وتقليل تكاليف الإنتاج وتطوير الصناعات المعتمدة على الأخشاب .

أما مديرية بحر الغزال فإنها تماثل الاستوائية فى إمكانياتها الغابية ، وهى زيادة على أشجارها المحلية الجيدة تحتوى على مساحات كبيرة من التك ..كما أن قيام صناعات تعليب الفاكهة خلق سوقا للأخشاب الصغيرة التى تستخرج أثناء شاح الغابات . وفى داخل المديرية ١٦ غابة محجوزة تبلغ مساحتها أكثر من ٧٦٫٧٠٠ فدانا وثلاث مجموعات من المناشير وورشة كبيرة للتجارة فى واو . وتنتج هذه الغابات أيضاً أعمدة المبانى وحطب الحريق والفحم . ويجرى الآن مسح وتجديد الغابات بغرض احتياجات المنشار الكبير الذى تم تركيبه فى واو ..كما تقرر غرس ٥٠٠٠ فدان تك ومثلها قنا وذلك لزوج الصناعات القائمة على هذه الأخشاب .

ولمديرية أعالى النيل إمكانيات واسعة فى الثروة الغابية . وأغلب أشجارها من السنط والطلح . وبالنسبة لأن أرضها مسطحة وتربتها خصبة فإنها أنسب المديريات الثلاث لنمو الغابات وقطعها . . كما أنها مربوطة بطرق برية ونهرية بمراكز الاستهلاك فى الشمال . ويوجد بالمديرية حاليا ٣٤ غابة محجوزة مساحتها ١٦٥٫٤٤٣ فدانا .. وأن المزرع

منها ٨٤٠٠ فدان .. أغلبها سنط .. وبها القليل من المهوقنى . وتمد أعالى النيل باقى مديريات السودان بحطب الحريق الذى يبلغ متوسط إنتاجه سنويا ٣٥ ألف متر مكعب . والفحم ومتوسط إنتاجه السنوى ٣٠ ألف قنطار ، وتستوعب عملية الإنتاج أعداداً كثيرة من العاملين الذين يعتمدون عليه كمصدر لرزقهم وحيدا .

ولمديرية أعالى النيل إمكانيات عظيمة لزراعة الغابات ذات الأشجار سريعة النمو ، وقد تضمنت الخطة الخمسية زراعة خمسة آلاف فدان من القنا ليكون نواة لصناعة الورق وعجينة الورق . وهناك مشاريع أخرى عاجلة ترمى إلى زيادة استقرار السكان . . وخاصة أن مشروعات الغرس وأعمال الغابات .. ثم الصناعات القائمة عليها .. سوف يمهد لإنشاء المجمعات التى تمكن من العناية بالفرد وبإنعاشه اقتصادياً واجتماعياً .

وهناك توصية اتخذت فى مؤتمر جوبا للتنمية الاقتصادية بزيادة عدد الفنيين المشرفين على الغابات فى الجنوب . وهؤلاء سوف يساعدون على أعمال التطوير وإدارة الغابات .. ثم القيام بأبحاث علمية فى هذا المجال والتوسع فى أعمال الغابات القائمة الآن فى الحجز والزراعة وأعمال المناشير وصناعة الأثاث والخشب المضغوط والشرائح الخشبية والأبلكاش والورق والصناعات القائمة على إنتاج الغابات الثانوى ، ثم قيام مؤسسة لتصنيع وتسويق منتجات الغابات .

إن الغابات مجال هام فى مجالات اقتصاديات السودان لو أحسنت العناية بها وإخضاعها لأساليب الاستغلال الحديثة لأصبحت دعامة رئيسية فى مجالات التنمية فى البلاد .

. . .

السياحة :

لا يذكر جنوب السودان إلا مقترناً بالطبيعة الجميلة ومناطق الصيد المتعددة والحيوانات المختلفة التى لا يوجد بعضها إلا فى هذا المكان من العالم. وقد استهوى جنوب السودان من ناحية معالمه السياحية اهتمام الكتاب والرحالة الذين نشروا الكثير من الكتب والموضوعات والصور والأفلام منقولة عن ربوع الجنوب .

وإذا حاولنا عرض معالم جنوب السودان السياحية . . نجد أن تعددها واختلافها أمر يثير الفضول والرغبة فى رؤية هذه المعالم على الطبيعة . فهناك الحياة القبلية التى لم يدخلها التمدين والتطور والتى تعكس لنا العادات الأفريقية الأصيلة بتقاليدها الغريبة . . وهناك الفولكلور الشعبى متمثلا فى أغانى ورقصات جماعية تؤدى فى الاحتفالات والمناسبات المتعددة بمصاحبة الآلات الموسيقية الخاصة بأهالى الجنوب . . ثم هذه المصنوعات اليدوية التى لا توجد بميزاتها وخصائصها إلا فى جنوب السودان ، وهى من الأخشاب المختلفة وخاصة الأبنوس . . كذلك المصنوعات العاجية والتى تصنع من بعض المعادن المختلفة .

ولعل أهم جانب سياحى يتميز به جنوب السودان هو وجود تلك الكمية الكبيرة من الحيوانات المفترسة والبرية والتى جعلت من هذه المنطقة بقعة مثالية لهواة الصيد والتصوير . ومن الحيوانات التى توجد فى الجنوب الأفيال والأسود والفهود والزراف والجاموس البرى ووحيد القرن الأبيض وأنواع كثيرة من الغزلان . . كما توجد مجموعات أخرى كبيرة من التماسيح وفرس النهر . وهناك مجموعة أخرى من حيوانات الصيد قلما توجد فى بلد غير السودان مثل ذلك البقر البرى وغزال البوتى وغزال النيل العوام والتياتل. أما الطيور فنى مديريات الجنوب تعيش أعداد ضخمة متنوعة من مختلف أنواع الطيور التى تتميز بجمالها وروعتها وندرتها فى نفس الوقت . . مثل طائر أبو مركوب الذى لم يعد موجوداً

إلا فى جنوب السودان بعد أن انقرض من كل أنحاء العالم .. ويوجد أيضاً أبو منجل والحبارى والقمرى .

وتوجد فى الجنوب حظيرتان عامتان من أشهر وأجمل الحظائر العامة فى العالم . كما أن هناك عددا آخر من المناطق المحجوزة القابلة للتطوير كحظائر عامة مستقبلا وبأقل التكاليف لتكون فى مستوى الحظيرتين المثاليتين الموجودتين فى المنطقة الجنوبية ومنطقة نيمولى . والحظيرة الأولى تقع على طريق جوبا — واو والثانية فى المنطقة المعروفة باسمها والتى تحد جنوبا بأوغندا ومساحتها حوالى ٨٠ ميلا مربعاً . وتعتبر منطقة نيمولى من أغنى وأعظم مناطق الصيد فى العالم وهى الآن تشكو من ازدحام الحيوانات بداخلها وعدم وجود المراعى الكافية لذلك العدد الضخم .

وهناك عدد كبير من المناطق السياحية فى مديريات السودان الجنوبية وخاصة فى المديرية الاستوائية. وهى مديرية غنية بالمناظر الطبيعية والطقس الجميل والحيوانات البرية والفنون الشعبية والرقصات . وتتميز كل منطقة من مناطق المديرية السياحية بلون خاص . . فنى محطة ياى توجد شلالات كاجيكو الرائعة وتحفل منطقة بامبيو بالحيوانات النادرة وحياة القبائل الاجتماعية المتميزة . . أما محطة كبويتا فيوجد بها نبع المياه البارد جنباً إلى جنب مع النبع الساخن وأشهر مناطق الزراف فى العالم . كذلك تمتاز محطة نيمولى بوجود شلالات الفولة والمناظر الطبيعية الجميلة . وفى محطة كتوى عدد من المرتفعات التى تنحدر منها المياه مكونة عدداً من المساقط تستغل فى إدارة مناشير الأخشاب بالقوة الدافعة .

وكما تحفل المديرية الاستوائية بهذا العدد الكبير من المحطات السياحية

فإن مديرية أعالى النيل تعتبر هى الأخرى ذات طابع سياحى متميز وخاصة فى مواسم الجفاف .

وهناك مستقبل سياحى عظيم ينتظر مديريات السودان الجنوبية عقب استقرار الأمن فى ربوعها وعودة الحياة الطبيعية إلى مجراها العادى.. وهذا الأمر سيؤدى إلى تشجيع الرحلات إليها . وبالتالى انتعاش تلك المنطقة وزيادة الدخل القومى فى السودان بصفة عامة .

* * *

الثروة الحيوانية :

على مساحة الأراضى الواسعة التى تقع عليها مديريات الجنوب الثلاث تعيش ملايين الرؤوس من الماشية التى تعتبر العنصر الرئيسى للثروة والدخل القومى . وقد سبق أن ذكرنا أنها الأساس الذى تقوم عليه الحياة الاجتماعية ، والماشية تتكون من قطعان الأبقار والماعز والضأن .

وهى تختلف فى توزيعها بين مديرية وأخرى . كما يختلف توزيع الدواجن فى هذه المديريات على النحو التالى :

المديرية	الأبقار	الضأن	الماعز	دواجن
اعالى النيل	١ر٥٨٤ر٠٠٠	٦٠٣ر٠٠٠	١ر٠٤٦ر٠٠٠	٣ر٧٠٠ر٠٠٠
بحر الغزال	٢ر٦٤٠ر٠٠٠	٨٢٨ر٠٠٠	٩٦٦ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠
الاستوائية	٥٣٨ر٠٠٠	٤١٤ر٠٠٠	٧٢٥ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠

وقد عاش الجنوب طوال عهد الإدارة البريطانية مهدداً فى ثروته الحيوانية حيث لا توجد رعاية ولا حماية ولا إشراف بيطرى مما أدى إلى نفوق أعداد ضخمة منها . ولزاما لذلك اضطر المواطنون إلى تغيير نظام حياتهم فاحترفوا الزراعة حتى تعوضهم عن الخسائر التى منوا بها فى ماشيتهم .

ولم يتغير الوضع كثيراً بعد الاستقلال حيث شغلت الحكومات المتعاقبة من ناحية وأهالى الجنوب من ناحية أخرى بأحداث التمرد والحركات الانفصالية فكانت سبباً رئيسياً فى إهمال هذا القطاع الهام فى الاقتصاد السودانى وعدم الاستفادة به على النحو المرجو .

فمن ناحية المرعى يلاحظ افتقاره إلى الناحية الغذائية التى تكسب الماشية لحماً ولبناً . . ولم يوجه أى اهتمام نحو تحسينه وحماية الماشية من مواسم الجفاف التى تتابع بين الحين والآخر بعض الجهات . كما أن كثيراً من مناطق الرعى الصالحة تفتقر هى الأخرى إلى المياه اللازمة كما هو الحال فى مديرية أعالى النيل وشرق المديرية الاستوائية .

وقد أثر عدم العناية بتوفير المرعى والعلف فى متوسط الذبح والتصدير الذى كان معدله ٥ ٪ من جملة أعداد الماشية ، وحتى هذه النسبة الضئيلة قلت فى أعقاب حوادث التمرد . ورغم هذا فإن النسبة العددية لزيادتها سنويا يفوق مثيلاتها فى شمال السودان نتيجة لحرص الأهالى على الاحتفاظ بماشيتهم كتقليد متوارث . . للحفاظ على مركزهم الاجتماعى وثرائهم . وكان من الممكن جداً أن يزداد عدد رؤوس الماشية أضعاف ماهى عليه لولا وجود الأمراض المستوطنة بالمديريات الجنوبية وأشهرها التسى تسى وأبو فتيت والطاعون البقرى والطفيليات والديدان .

ويوجد حاليا فى الجنوب بعض المشروعات الخاصة بتنمية الثروة الحيوانية . . كما أنه هناك عدة مشروعات تدخل ضمن الخطة الخمسية التى وضعتها حكومة الثورة عام ١٩٧٠ . وهذه المشروعات تتلخص فى مشاريع للأعلاف والتوطين وأخرى لتنمية مزارع الألبان والثالثة السلخانات وتحسين الجلود والرابعة لتنمية الدواجن .

ففى مديرية أعالى النيل مثلا تم اعتماد عشرة آلاف جنيه لتحسين

المرعى والعلف فى مساحة قدرها ستة آلاف فدان . وهذا المشروع يهدف إلى إمداد مزارع الألبان والدواجن فى ملكال بما تحتاج إليه من العلف. كما اعتمد ٢٥ ألف جنيه لشراء أبقار وثيران لتحسين النسل الحيوانى فى المركز . وهناك مشروع لتنمية الدواجن وذلك بإنشاء مزرعة نموذجية. أما عن مشروع السلخانات وتحسين الجلود فقد بدأ تشييد سلخانات فى مراكز المديرية كما وجهت العناية لإرشاد الأهالى إلى أفضل الطرق فى تحضير الجلود .

أما فى مديرية بحر الغزال فهناك مشروع ضخم مساحته .. ر٥٠٠ فدان لمزارع العلف والتوطين ولتقديم خدمات ثابتة من ناحية الفناء والإشراف البيطرى . كما أن هناك مشروعا لإقامة مزرعة أعلاف لمد مزرعة ألبان واو مساحته ألف فدان ، وتم فعلا شراء أبقار وثيران لزيادة إنتاجية مزرعة اللبن فى واو . أما عن مشاريع تنمية الدواجن فقد تم توسيع مزرعة الدواجن بمدينة أويل حيث وضع فى الخطة أيضا بناء سلخانات حديثه لامداد المواطنين ومصنع التعليب فى واو باللحوم الخالية من الأمراض .

وقد لقيت المديرية الاستوائية اهتماماً كبيراً فى تحسين المراعى الموجودة بها وإنشاء مراع جديدة والاهتمام بتنمية الدواجن فى ياى ومريدى ويامبيو وتوريت وخصص مبالغ فى مشروع الخطة الخمسية لهذا الغرض .

وهكذا فإن التخطيط والأسلوب العلمى يجب أن يجد سبيله إلى الثروة الحيوانية فى جنوب السودان . وهذا ما أوصى به مؤتمر جوبا عام ١٩٧١.. فقد بحث إمكانية حفر آبار لمياه الشرب وإقامة مشاريع العلف والاهتمام بإقامة مشاريع الدواجن التعاونية وتشجيع إقامة تعاونيات لتسويق الأبقار والاهتمام بمحطات الأبحاث وإعادة العمل فى مشروع مكافحة ذباب التسى تسى .

وبهذا الاهتمام يتحقق نجاح قطاع هام من قطاعات الاقتصاد فى المديريات الجنوبية .

* * *

الثروة السمكية :

تشكل الثروة السمكية هى الأخرى قطاعاً هاماً رئيسياً من قطاعات الاقتصاد السودانى . فنى أراضى الجنوب . . تبلغ كمية المساحات المغطاة بالمياه فى بحر الجبل وبحر الغزال وبحيرة نو ونهر السوباط ومئات الروافد والمستنقعات قدراً هائلا من مجموع المساحة .

وحجم الثروة السمكية كبير للغاية نظراً لعوامل المناخ الملائم لتوالدها وتكاثرها ولوجود شبكة نهرية ومستنقعات فى منطقة السدود . وقد قامت مصلحة الصيد والأسماك فى عام ١٩٦١ بمسح شامل للثروة السمكية فى المنطقة الممتدة من جبل الأولياء حتى أقاصى المديرية الاستوائية . وأوضحت نتيجة المسح أن الإنتاج فى جبل الأولياء من ٣٠ — ٤٠ كيلو فى الهكتار فى حين أنه يبلغ فى الجنوب من ١٠٠ — ١١٠ كيلو . كما تبين من الدراسات السابقة عن إنتاج الثروة السمكية بالجنوب تزايد الكمية التى تم اصطيادها من ٨٥٠٠ طن عــام ١٩٦٠ إلى عشرة آلاف طن عام ١٩٦٦ .. وكان أغلب هذه الكميات يصدر فى شكل سمك مجفف بواقع ١٣٠ جنيها للطن. وقد وقفت الطرق البدائية من ناحية الإهمال وعدم الاهتمام بهذه الثروة من ناحية أخرى دون استغلالها والاستفادة بها فى دعم الاقتصاد القومى.. والذى كان متبعاً بالنسبة لها هو الحصول على حاجة الأهالى منها لحياتهم اليومية .

وتلقى الثروة السمكية حاليا اهتماما كبيراً لتطويرها بحيث تساير متطلبات

النهوض والتقدم بجنوب السودان . وعلى ذلك دخلت الثروة السمكية فى الخطة الخمسية للتنمية ، واستقر الرأى على إنشاء مصايد جديدة للأسماك تشمل ١٧ معسكرا للصيد فى عدد من الأماكن التى تعتبر من مراكز تجمع الأسماك الرئيسية مثل شامبى وبحيرة نو وتو كاكاوبور ، تتكلف حوالى ٣٢ ألف جنيه . ومن المعروف أن هذه المراكز توجد فى مناطق بحر الجبل فى ناحية السوباط والنيل الأبيض فى ناحية أخرى . وسوف يتدرج الإنتاج فيها سنوياً نحو الزيادة . . ففى عام ٧١/٧٠ قدر الإنتاج السنوى بمائة وأربعين طنا تصل فى عام ٧٥/٧٤ إلى ٣٥٠ طنا .

والمنتظر أن تعود معسكرات صيد السمك هذه بفائدة كبيرة على جنوب السودان . فمن ناحية الدخل القومى قدر أن يكون عائد إنتاج هذه المعسكرات فى نهاية الخطة ٤٠٫٧٠٠ جنيه . . كما أنه سيترتب على وجودها من استقرار واستيطان أفراد الشعب . فالمعسكر الواحد سوف يستوعب عشرين عاملا بعائلاتهم ليصل عددهم فى نهاية عام ٧٥/٧٤ إلى خمسمائة عامل .

وفى حالة قيام معسكر للصيد فى منطقة ما . . فان هذه المنطقة ستكون قرية ويترتب على ذلك ارتباط سكانها بالأرض بصفة مستديمة .. مما يساعد على استقلال هذه الأرض فى الزراعة حين يقل النشاط فى صيد الأسماك خلال فترات معينة من السنة . وإذا ما عرفنا أن وجود قرية أو عدة قرى متجاورة يلزمها إنشاء نقطة الشرطة . . فإن هذا يعنى أيضا المساعدة على استقرار الحال وحفظ الأمن والنظام فى ربوع هذه المناطق الجديدة . ولن يقتصر الأمر على إنشاء نقطة للشرطة .. بل سيتعداه إلى إنشاء مكتب بريد ومركز للإسعاف والرعاية الصحية وغير ذلك من المرافق التى تدخل قطاعات جديدة فى جنوب السودان إلى عالم المدنية .

وقد اشتملت الخطة الخمسية للنهوض بالثروة السمكية على إنشاء مؤسسة حكومية لتسويق الأسماك للبلدان المجاورة وخاصة جمهورية الكونغو الديمقراطية وسوف تقوم هذه المؤسسة بتنمية هذه الثروة ورعايتها كما أعد لها مشروعات لشحنه إلى مناطق التصدير .

وهناك عدة وسائل لتنمية هذه الثروة الهامة نذكر منها :

١ — توفير الاستقرار اللازم للمواطنين فى مديريات الجنوب وبذل الجهود لإعادة الأحوال إلى وضعها الطبيعى .

٢ — تحسين سبل المواصلات وربط مناطق الاستهلاك بمناطق الصيد .

٣ — تحسين طرق تجفيف وتمليح الأسماك والدعاية خارج السودان حتى يتسع نطاق الأسواق أمام السمك المجفف الذى يتم إنتاجه . وسوف يساعد قيام مؤسسة حكومية للتسويق على زيادة النشاط فى هذا الأمر .

٤ — تقديم التسهيلات اللازمة لفتح مراكز الصيد الجديدة .

٥ — تشجيع القطاع التعاونى والخاص للعمل بصيد الأسماك وتقديم التسهيلات اللازمة له .

٦ — إعادة النشاط لتربية الأسماك بمراكز غرب الاستوائية .

* * *

دور البنـــوك :

عاش جنوب السودان فترة طويلة من تاريخه الحديث وهو لا يعرف من أمر البنوك والمصارف شيئاً . فقد كانت السياسة التى اتبعتها البنوك الأجنبية التى كانت تسيطر على التعامل فى السودان .. هى تركيز التعامل فى العاصمة وبعض المدن الكبرى . وكان أمر تنمية الاقتصاد القومى ونشر

الوعى الادخارى بين الأفراد هو آخر ما فكرت فيه هذه البنوك ، كذلك كان النشاط المصرفى مقصورا على تمويل الشركات الأجنبية التى تعمل فى مجال التصدير والاستيراد وهذا يتفق مع سياستها فى تحقيق مصلحتها الذاتية على حساب استنزاف خيرات البلاد .

وقد استمر هذا الوضع فى السودان حتى كان قرار تأميم البنوك الأجنبية فى مايو عام ١٩٧٠ . فمنذ ذلك التاريخ تسلم أبناء السودان مقاليد إدارة البنوك والمصارف وتوجيه رسالتها لخدمة الشعب وخاصة فى المناطق التى كانت محرومة من خدماتها . وكان نصيب جنوب السودان وفيرا حيث تم إدماج فرع بنك السودان فى الجنوب فى بنك جوبا التجارى ، وأعادت الحكومة النظر فى الهيكل الجديد للنظام المصرفى بحيث يوجه كل إمكانياته لخدمة البلاد ، كما قام بنك السودان بفتح فروع له فى كل من ملكال وواو وجوبا للقيام بعمليات التحويلات وفتح الحسابات الجارية بتسهيلات كبيرة .

وكانت العقبة التى تعترض قيام البنوك المتخصصة فى ممارسة نشاطها فى مديريات الجنوب هو حالة عدم الاستقرار التى سادت هذه المديريات منذ بداية عهد الاستقلال والتى يمكن بعد زوالها أن تقوم بدورها فى مجالات تخصصها ، فالبنك الزراعى السودانى يقدم لها حجما من القروض يعتبر صغيرا جدا بالنسبة للمناطق الأخرى من السودان ..مع أنه توجد عدة مجالات لنشـــاط أكبر له فى الجنوب ..حيث الأراضى الواسعة ونجاح التجارب التى سبق أن أجريت على عدد من المحصولات الجديدة التى تحتاج إليها المصانع .. أو التى يمكن تصديرها لزيادة الدخل القومى .

والبنك الصناعى هو الآخر قصر نشاطه على العاصمة أو على المشروعات ذات العائد السريع. ولم يحدث استجابته للطلبات التى قدمت إليه لتمويل مشروعات

القطاع الخاص فى المديريات الجنوبية بسبب الاضطرابات التى كانت تنشط بين الحين والآخر فى ربوعها . ويتجه التفكير الآن لتمويل بعض المشروعات الصناعية فى الجنوب . وقد تم اعتماد مبلغ ٥٩٠,٠٠٠ جنيه فى الخطة الخمسية لهذا الغرض لحساب البنك الصناعى وذلك خلاف المبالغ التى اعتمدت للنهوض بالزراعة والصناعة وتوفير المياه وغيرها والتى تخص الوزارات المختلفة .

وبالنسبة لنشاط التوفير عن طريق دفاتر البريد فقد وجد عدد من الأسباب أدت إلى عدم توفر المدخرات فى مديريات فى الجنوب .. منها أن الادخار يأخذ شكلا عينيا نظراً لأن المجتمعات رعوية تقدر ثرواتها بما تملكه من رؤوس الماشية . كما أن سريان نظام المقايضة وعدم وصول النقود الورقية أو المعدنية لبعض المناطق يحول دون التعامل بها مع دفاتر توفير البريد . وبالاضافة إلى ذلك انخفاض متوسط دخل الفرد .. بحث لا يسمح هذا الدخل بوجود فائض ، كذلك انتشار عادة الاكتناز عند من تتوفر عنده الأموال ، وهذا بالطبع أدى إلى احتجاب جزء من الثروة القومية عن مجال الاستثمار .

وحتى تؤدى البنوك والمصارف ومكاتب توفير البريد مهمتها فى مديريات الجنوب ، على النحو الذى تخدم به الاقتصاد القومى وترفع من مستوى الحياة فى ربوعه ، لابد من بذل المزيد من الجهد فى نشر الوعى الادخارى بعد أن يتم للبنوك أداء رسالتها فى تمويل المشاريع المختلفة من زراعية وصناعية وخاصة بالنسبة للقطاع الخاص .

* * *

المراجع

أولا : وثائق وبيانات خاصة بحكومة جمهورية السودان .

١ ـ جامعة الخرطوم وثائق مؤتمر أركويت الخامس المنعقد فى مدينة جوبا عام ١٩٧١ لبحث التنمية الاقتصادية والاجتماعية للجنوب عام ١٩٧١

٢ ـ رئاسة مجلس الوزراء :

- أعمال لجنة التحقيق فى حوادث الجنوب عام ١٩٥٥

٣ ـ وزارة الإرشاد .

- بيان عن الهيئات الأجنبية التى تساعد المتمردين .
- بيان عن تطوير التنظيمات السياسية والعسكرية للانفصاليين فى الخارج .
- المشروعات الخاصة بالجنوب .
- بيان مجلس الثورة فى ٩ يونيو ١٩٦٩ .
- مجموعة نشرات خاصة بالجنوب .

٤ ـ وزارة التربية والتعليم العالى :

- مشروع السلم التعليمى .

٥ ـ وزارة الداخلية :

- قرار إبعاد القسس والمبشرين الأجانب من الجنوب .
- تقارير عن حالة الأمن فى الجنوب .

٦ ـ وزارة الدفاع :

- بيان عن الأسلحة التى استولت عليها القوات المسلحة من المتمردين .
- بيانات عن عمليات عسكرية ضد الانفصاليين .

٧ ـ وزارة الرى :

تقارير عن أعمال الرى ومشروعات الوزارة ابتداء من عام ١٩٦١

٨ ـ وزارة الزراعة :

تقارير عن تطورات الغابات فى عهد الاستقلال .

٩ ـ وزارة الخارجية :

مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٦٥

نشرات وتقارير

ثانيا : المراجع العربية

١ ـ رئاسة مجلس الوزراء : الكتاب الأخضر .
عن السودان — القاهرة ١٩٥٣

٢ ـ سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان — القاهرة ١٩٥٢

٢ ـ سعد الدين فوزى (د) جوانب من الاقتصاد
السودانى — القاهرة ١٩٥٧

٤ ـ الصادق المهدى : مسألة جنوب السودان — الخرطوم ١٩٦٢

٥ ـ عمر طوسون . تاريخ مديرية خط الاستواء
(٣ أجزاء) — الإسكندرية ١٩٣٧

٦ ـ محمد صبرى (د) : الامبراطورية السودانية
فى القرن التاسع عشر — القاهرة ١٩٥١

٧ ـ محمد عمر بشير : مشكلة جنوب السودان (ترجمة) القاهرة ١٩٧٠

٨ ـ محمد عوض محمد (د) : السودان الشمالى — القاهرة ١٩٥٢

٩ ـ محمد عوض محمد (د) : نهر النيل — القاهرة ١٩٥٢

١٠ ـ محمد فؤاد شكرى (د) : الحكم المصرى فى السودان القاهرة ١٩٤٧

١١ ـ محمد كامل شوقى : الغابات فى السودان — الخرطوم ١٩٦٦

١٢ ـ محمد محمود الصياد (د) : السودان — القاهرة ١٩٦٦
وحمد عبد الغنى سعودى (د)

١٣ ـ يحيى محمد مصطفى : السياسة الزراعية فى السودان — الخرطوم ١٩٥٦

ثالثا : الدوريات

١ ـ مجموعة الصحف المصرية — القاهرة منذ عام ١٩٤٨

٢ ـ مجموعة الصحف السودانية — الخرطوم منذ عام ١٩٥٤

٣ ـ مجموعة مجلة السودان فى رسائل ومدونات — الخرطوم منذ عام ١٩١٨

رابعا : مخطوطات لم تنشر

١ ـ إذاعة ركن السودان : مجموعة أحاديث وندوات مسجلة عن جنوب السودان اشترك فيها زعماء الجنوب — القاهرة منذ عام ١٩٥١

٢ ـ كوكس : تقرير عن التعليم فى السودان

٣ ـ محمد المعتصم (د.)/ مشكلة جنوب السودان — (ترجمة)
لجوزيف اودهو ووليم دينج
ـ قصة الإسلام فى السودان (تحت الطبع)

المراجع الأفرنجية

Abbas, Mekki : The Sudan question, London 1951

Aakell, A.J. : A History of the Sudan, London 1961

Casson, A.N. : Southern, Sudan Now X then, London 1951

Gray. R, : A History of the sautbern sudan Oup 1961

Greenidge, C.W.W. Slavery, London 1958

Guillebaud, P. : School Belts, London 1949.
Helser, A, D., : Hand of God in the Sudan. New York, 1946.
Henderson, K.D.D. : Sudan Republic, London, 1956.
Hill, R.T. : Egypt in the Sudan 1820-1881, Lodon 1956.
Holt, P.M., : A Modern History or the Sudan, 1961.
Jackson, H.W. «fahoda, 1898» SNR 111, 1920.
Mcm'chael, H, : The Anglo — Egyptian Sudan, Lon 1934
Moon head. H, : The White Nile, London 1960.
Pumphy, M E C. «The Shiulk tribe » Siver, XXIV, 1941
Quninton, A, G, H, : Sudan interior Minssion, New York.
Repubic of the Sudan Basie Facts about the Sathern Sudan.
Cevtral Offince Intarmation, Khartoum, 1949
Revell F. H, : The Hand of God in the Sudan New York, -947.
Said, Beshir, Mohamed, : The Sudan, Cross Roads of Apries.
London, 1965.
Seligman, C.G. and Silegnan, B., pagau tribls of the Nilotic
Sudan 1913.
:n the Sudan, Cairo, 1938
J — Al Hukm al Msri fi — al Sudan Cairo 194 .
o -- Equatoria under Egyption Rule, Cairo 1953.
Tothill, J. D. CED Agriculture in the Sudana Londin, 1948
Trimingham, J. S, . Islam in the Sudan, London 1949

محتويات الكتاب

الطبعـــة الأولى : يوليو ١٩٧١
الطبعـــة الثانية : فبراير ١٩٧٢

رقم الايـــداع بدار الكتب ١٧٦٨/١٩٧٢

مطبعة نهضة مصر بالفجالة



- اجتذبته القضـــية السودانية وهو لا يزال طالباً فى الجامعة منذ عام ١٩٤٦ .. وواصل اهتماماته بها منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم .. فعاصر مراحل هامة فى تطوراتها ..
- تخصص فيها على المستويين الأكاديمى والعملى .
- حصل على ليسانس الآداب جامعة القاهـــرة عام ١٩٤٩ .
- والماجستير فى الدراسات السودانية فى جامعة القاهرة عام ١٩٥١ .
- ثم درجة الدكتوراه فى التاريخ الحديث فى جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٩ بمرتبة الشرف الأولى .
- تعاون مع ركن السودان بإذاعة القاهرة منذ إنشائه عام ١٩٤٨ متحدثاً ففرداً فى أسرته العاملة .
- فى عام ١٩٥٣ . أسندت إليه إدارة إذاعة ركن السودان .. ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهده كاملا مخلصاً ليجعل منها إذاعة قوية هادفة تخدم العلاقات الأزلية الوطيدة التى تربط مصر بالسودان .
- أدخل فى تلك السنة برنامجاً باللهجات المحلية خاص بجنوب السودان فكان أول برنامج موجه فى تاريخ الإذاعة .
- زار جنوب السودان عدة مرات .. وله صلات قوية تربطه مع عدد كبير من أبنائه وزعمائه .
- له عدد من المؤلفات منها صلاح سالم ومهدى الصومال ودول إسلامية فى شرق أفريقيا ودور القاهرة فى الحضارة الأفريقية وأفريقيا والاستقلال الاقتصادى .
- نشرت له أبحاث ودراسات فى عدد من المجلات العلمية المتخصصة منها مجلة السودان فى رسائل ومدونات ومجلة الجمعية التاريخية المصرية ومجلة المدرسة الإنجليزية للدراسات الأفريقية بلندن ومجلة الجمعية الجغرافية بلندن .

الثمن ٥٠ قرشـــا

مطبعة نهضة مصر - الفجالة القاهرة